علي باك الكبير

تأليف

محمد رفعت رضا

ماجستير في الآداب ودبلوم في التربية

مدرس بالمعهد العالي للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

BOBST LIBRARY
3 1142 02821 2309

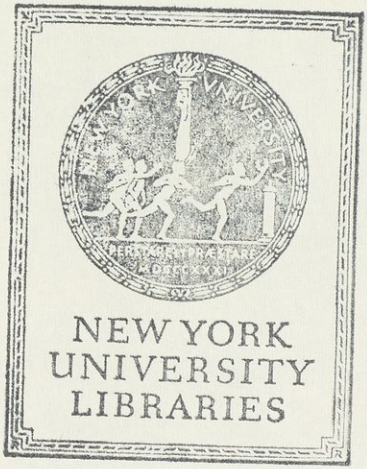

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Web Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		

DUE DATE
RETURNED
DEC 11 2006
Bobst Library
Circulation

DUE DATE
RETURNED
DEC 2 2 2006
FEB 1 2 2007
BOBST LIBRARY
CIRCULATION

PHONE/WEB RENEWAL DATE		

149613

Ramaḍān, Muḥammad Rif'at.
'Ali Bey al-Kabīr.

علي بك الكبير

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

تأليف

محمد رفعت رمضان

ماجستير فى الآداب ودبلوم فى التربية
مدرس بالمعهد العالى للمعلمين

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

Near East

DT
98
.5
.R3
c-1

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

لو قص علينا المحدثون قصة صبى مسيحى اختطفه تجار الرقيق من بلاد اليونان من أحضان أبيه القسيس الارثوذكسى وباعوه فى مصر بثمن بخس ، فاذا به يغدو فى يوم من الأيام حاكما بأمره فى مصر العثمانية ويقود جموع الحجاج إلى بيت الله الحرام لقلنا أنها من بنات الأفكار أو ثمرة الخيال . والواقع أنها قصة الكثيرين من حكام مصر فى وقت من الأوقات ، انها حقيقة واقعة وكثير من الحقائق أغرب من الخيال وأمتع ، انها قصة على بك الكبير . ضمنتها هذا الكتاب الذى أقدمه إلى حضرات القراء .

وهذه القصة نواة رسالة كنت قد تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ ، ولما أقرت لجنة الامتحان هذا البحث فكرت فى نشره لكى تعم فائدته لاسيما أنه يعالج فترة غامضة من تاريخ مصر والشام فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فيلقى الضوء على لون من ألوان الحكم المملوكى تحت السيادة العثمانية ويبين كيف استفحل نفوذ على بك الكبير فى مصر على حساب الدولة العثمانية الضعيفة ، ويوضح أثر ذلك فى مرافق البلد السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الخارجية عند ما تطلع إلى ضم الحجاز وشرع فى غزو الشام بالتحالف مع صديقه ظاهر العمر . واختتمت البحث بمناقشة العوامل التى أدت إلى فشل الحركة وعودة مصر ترزح تحت عسف المماليك واطماع العثمانيين حتى دخلها نابليون بونابرت .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بالشكر إلى أستاذى الجليل حضرة صاحب السعادة محمد شفيق غربال بك على كريم إرشاده وسديد توجيهه ، كما أشكر حضرات من يسروا لى طرق البحث فى دار المحفوظات بالقلعة ووزارة الأوقاف بالقاهرة وإدارة حفظ الآثار العربية ودور الكتب المختلفة .

والله ولى التوفيق ؟

المؤلف

القاهرة فى ١٠/٣/١٩٥٠

مقدمة

فى نشأة البيوت المملوكية

استعملنا كلمة (ثورة) فى التعبير عن حركة على بك ولا نقصد منها معناها المرسل كاستعمالها فى (الثورة الفرنسية) مثلا فهى لم تستتبع تغييرات أساسية وانما قصدنا منها معناها الخاص الذى يمكن أن نطلقه على الحركات المملوكية فى مصر فى أبان القرن الثامن عشر على وجه الخصوص . يعبر عنها مؤرخو الفرنجة بكلمة (عصيان Revolt) لأن هذه الحوادث فى نظرهم خرق للنظام الموضوع وخروج على الوضع الذى يجب أن يكون . ونحن لهذا الأمر بالذات استعملنا كلمة (ثورة) من باب التجوز .

* * *

ولكى ندرس (ثورة على بك) ينبغى لنا أن نناقش مسألتين : تدفعنا الأولى إلى أن نلقى نظرة شاملة على العالم العثمانى فى أبان تلك الثورة فنجدة يموج بحركات مماثلة ، أبرزها حركات ظاهر العمر فى فلسطين ، والاشراف الهواشم فى مكة ، والاكراد فى شمال العراق والشام ، والأغوات الحكام فى مدن الأناضول وموانيه ، كما نجد ثورات أخرى أوسع نطاقا فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والأفلاق والبغدان .

ونلاحظ أن هذه الثورات يمكن تصنيفها فتدخل تحت قسمين : قسم يشمل حركات الشرق العثمانى المسلم يثيرها فرد أو جماعة ، والثانى يشمل حركات القسم الأوربى المسيحى . وثورات هذا القسم الأخير كانت حركات انفصالية بعثتها الروح القومية والدينية وغذتها الدعاية الروسية فلم ينس أهله أنهم ورثة الحضارة البيزنطية المسيحية وفى الوقت نفسه (رعية) سلطان مسلم حل بارضهم واتخذها

قاعدة للتوسع الاقليمى . فوصفنا لهذه الحركات بانها حركات انفصالية أو استقلالية لاغبار عليه ويقربنا كثيراً من غرضها الحقيقى (١) .

أما حركات الشرق العثمانى فكانت تهدف إلى اغراض أخرى ولكنها ليست الاستقلال أو الانفصال بحال من الأحوال : فولاياته كانت موطن الحضارة الاسلامية وتكشفت لشعوبها منذ القرن الحادى عشر الميلادى اطماع الغرب السياسية بعد أن تدرع باسم الدين وتقدم فى ظل الصليب مستغلا تفكك وتنافس العالم الاسلامى الذى لم ينعم بالوحدة منذ ضعفت قبضة العباسيين حتى أصابه شىء من حسن الحظ بالاتحاد فى صورة ما وبالقدر الذى مكنه من طرد المستعمرين والغزاة الصليبيين فحمى الدين وحافظ على تراثه من الحضارة الإسلامية ولكنه مالبث أن تفكك وتخاذل .

ثم استهل القرن السادس عشر وبدأت موجة الفتوح العثمانية فى الشرق : استجابت الشام (١٥١٦) ومصر والحجاز (١٥١٧) ثم العراق (١٥٣٤) . وفى هذا المحيط الواسع لم تحاول الدولة العثمانية أن تقيم سلطانها على قواعد من الاستعمار المنتج ، ولم تحاول أن تصبغ أهل هذه الولايات بالصبغة العثمانية أو تربطهم برباط الحضارة العثمانية أو توجد بينهم شيئا من التعاون المتبادل أولونا من النشاط المشترك بل اتبعت نفس المبدأ الذى سارت عليه فى كل أملاكها تقريبا : أن تترك العناصر الأصلية فى حكم البلاد المفتوحة مع تعديلها التعديل الذى يضمن لها بقاء السيادة والسيطرة وتقاضى ثمن هذه السيادة والسيطرة — لم تحاول أن تمس العقائد الدينية والمدنية أو التقاليد القومية وسارت الشعوب على ماالفته لايضيرها إلا تعسف فى الجباية أحيانا ومفاسد الحكم والادارة وعناصر هذا الفساد فى أغلبها موروثة عن العصر السابق وليست كلها مستحدثة فى العصر العثمانى .

---

(١) Toynbee : Turkey. pp. 16-18

ورغم أن الدولة العثمانية لم تحاول أن تنظم هذه الولايات فى عقد استعمارى منسجم فثمة رابطة كانت قد بدأت فى القرن السابع الميلادى وظلت تقوى مع الزمن، تلك هى الديانة والحضارة الإسلامية التى كانت تربط بين كل ولاية وجارتها وبينها وبين الدولة العثمانية نفسها . أما الحضارة الإسلامية فقد تأثرت بالبيئة واتخذت نظم الحكم فى كل ولاية لونا محليا ، وأما الديانة فقد أوجدت عن طريق العاطفة الدينية نوعا من التماسك بين الدولة وولاياتها ، تقوى العاطفة ويزيد التماسك كلما بدت نواجذ الاطماع الغربية المسيحية فالشرق كان — ولا يزال — يخشى أطماع الغرب . والدولة العثمانية كانت فى نظر كل ولايه من ولاياته درعا يقيها شر تلك الأطماع ويضمن لها فى ظل الدولة العثمانية المسلمة نوعا من الحرية فى مزاولة تقاليدها الموروثة وأن تحيا حياة أفضل — فى نظرها على الأقل — مما لو اكتنفتها دولة أوروبية مسيحية .

ونظرة أهل هذه الولايات إلى الدولة العثمانية على هذا الاعتبار. نظرتهم إلى البطل يحمى الذمار ويدفع العدوان ويتقاضى لذلك جعلا مع الاعتراف له بالسيادة . وكما كانت القسطنطينية فى عصرها البيزنطى المسيحى حتى ١٤٥٣ تقف حاجزا يحول بين الإسلام الناشىء الفتى وبين أوروبا المسيحية المنحلة ، أصبحت فى عصرها الإسلامى وثوبها العثمانى درعا يقى الشرق الإسلامى المتداعى أطماع الدول الأوروبية الفتية . هكذا ارتبطت صوالح الولايات العثمانية فى الشرق الإسلامى مع الدول الحاكمة برباط الدين والمصلحة السياسية. وهذا الارتباط كان يمنع أى ولاية من القيام بأية حركة انفصالية حتى لا تدفع بنفسها إلى مخالب أقوى وبلاء أعظم

فنظرتنا إلى الأحداث الداخلية فى هذه الولايات ينبغى ألا تؤل هذا التأويل وينبغى أن تحمل على محمل آخر . تلك الأحداث فى جملتها محاولات فرد أو جماعة للتسلط على شئون الحكم والإدارة فى الولاية مع بقائها تابعة للدولة العثمانية حتى تحتمى بها من أطماع الغرب .

---

(١) Toynbee : Western Question in Greece & Turkey. PP. 30-33

وكثيراً ما نلاحظ ونحن نستعرض تلك الحركات حدوثها فى عدة ولايات فى وقت واحد أو فترات متقاربة وخاصة وقت انشغال الدولة العثمانية فى متاعب خارجية سياسية كانت أو حربية . والحق أن التقارب أو التوافق الزمنى لاينبغى أن يعزز الرأى الذى سفهناه وإنما نعلل ذلك بأن متاعب الدولة الخارجية كانت فى نظر القائمين بأمر هذه الحركات فرصا لاتعوض فى سبيل تحقيق أغراضهم الخاصة ولم يكونوا يتعدون ذلك إلى حد التعاون مع العدو الأوربى للدولة بل أن هذا التعاون كان فى عرف أهل الولايات (خيانة وكفرا) للدولة العلية لا ينبغى اتخاذه سلاحا لتحقيق الأطماع الخاصة . وكانت هذه إحدى التهم الشنيعة التى تغذى المهاترات بين المتنافسين فى الولاية العثمانية كما كان الحال سنة ١٧٧٢ بين على بك الكبير فى مصر ومنافسه أبو الذهب الذى كان يندد بعلاقة على بك بالروسيا « فالتنافس على الحكم » كلمة السر التى تقودنا إلى فهم معظم حركات الشرق العثمانى فى ذلك الحين .

* * *

ويدفعنا ذلك إلى مناقشة المسألة الثانية فينقلنا إلى ميدان أكثر تخصصا وتحديداً من ميدان الدولة العثمانية عموما وهو (مصر العثمانية) ويجرنا إلى الكلام عن نظام الحكم العثمانى فى مصر، وقد ناقشه المؤرخون ودرسوه وأعجب بعضهم « بحكمة السلطان سليم » التى جعلته يوزع السلطة فى مصر بين ثلاث هيئات متوازنة يضمن لها تنازعها وتنافسها بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية . والواقع أن هذا الرأى أصبح لا يستقيم مع دراسة وثائق ذلك العصر التى تظهر لنا أن سليما الأول لم يفعل فى مصر إلا ما فعله فى غيرها من الولايات والا ما يتمشى مع مبدأ العثمانيين فى الابقاء على أنظمة الحكم فى البلاد المفتوحة بعد تعديلها تعديلا يكفل بقاء السيادة العثمانية . كان يمثل السلطان العثمانى فى القاهرة عاصمة الولاية المصرية (باشا عثمانى) حل محل (السلطان المملوكى) وكذلك كان الحال فى جدة وفى دمشق وطرابلس وحلب وصيدا ، فقد وجد باشوات عثمانيون حلوا محل

الحكام المماليك السابقين ، وكان بمصر (أوجاقات عثمانية) حلت محل (الجيش المملوكى) عملها الأساسى الدفاع عن مصر وامتد نشاطها إلى بعض أعمال الإدارة الداخلية أو بعبارة أدق المساعدة فى تنفيذ الأوامر الادارية من جمع الميرى وحفظ الأمن وحراسة قوافل الحجاج . . الخ . ومثل هذه الفرق كان موجوداً بدرجات متفاوتة من حيث الكثرة والقلة فى كل ولاية من الولايات وبنفس الاختصاصات تقريباً وهذا أمر طبيعى . واستدعى الحال اشراك اغواتهم فى الإدارة العليا لمصر عن طريق الديوانين وهذا أمر طبيعى أيضاً فهم العنصر الحاكم ، والدولة العثمانية كانت تعتمد فى ذلك الوقت على الجيش والقوة الحربية قبل أى شىء آخر .

وإعطاء حكومات الأقاليم (الصنجقيات والكاشفيات) لبكوات المماليك دليل قوى على الرأى الذى قلنا به : كانوا حكام الأقاليم فى عهد السلطنة المملوكية وتمشيا مع التقاليد العثمانية ينبغى بقاؤهم حكاما على الصنجقيات والكشوفيات . فمشكلة الحكم فى مصر العثمانية إنما حلت بوضع الأمور كما كانت على قدر الإمكان وجاء ذلك متمشيا مع مبدأ العثمانيين . ففيما عدا (الخزنة) السنوية والخطبة والسكة وملكية السلطان نظريا للأرض بقيت مصر تحيا الحياة التى كانت تحياها فى عصر سلاطين المماليك . بل إن العنصر المملوكى الحاكم فى ذلك العصر كان لايزال مسيطراً على الإدارة المحلية فى العصر العثمانى .

والعنصر المملوكى ليس عنصراً أصيلا فى حكم مصر ولكنه على كل حال أقدم من العنصر العثمانى ، والسيادة المملوكية على مصر كانت أسبق من السيادة العثمانية بما يزيد على قرنين ونصف من الزمان . ولما حلت هذه الأخيرة سنة ١٥١٧ استبقت السيطرة المملوكية على الأقاليم .

والتطور الذى حدث فى نظم الحكم فى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر — وهو تطور فى مدى سلطة الحكام وليس فى نوع اختصاصاتهم — إنما نشا

عن ضعف الدولة العثمانية نفسها وفساد الأداة الحكومية والحربية فيها (١). وانعكس هذا الفساد فى الولايات وتمثل فى ضعف شخصية الولاة العثمانيين وسوء الإدارة عموما . كما أنه أوجد الفرصة الذهبية للمماليك فى مصر كى يحوزوا السلطة التى كانت بيد الوالى العثمانى الضعيف . وفى غفلة من هؤلاء الولاة الضعاف ظهرت عصبيات مملوكية قوية هددت سلطة الوالى العثمانى تهديداً خطيراً . وتنافست فيما بينها وكان تنافسها خطراً على الأمن الداخلى لأنها كانت مسلحة وكان من حقها المقرر أن تتسلح .

يعبر عنها مؤرخو الأجانب باسم (عصابات أو جماعات) ويسميهم مؤرخو العصر وعلى رأسهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (البيوت المملوكية) فأيها أقرب إلى الصواب ؟ هل كانت الرابطة التى تجمع بين كل فريق منهم روح العصابة وهى استعمال العنف فى تحقيق الاطماع والحصول على الأسلاب أو كانت تجمعهم رابطة الأسرة وهى رابطة التضامن والتساند والاتحاد على السراء والضراء فى سبيل مجد رب الأسرة والمنافع المتبادلة . وبعبارة أخرى : هل كان (على بك الكبير) زعيم عصابة مملوكية أو كان صاحب بيت مملوكى ؟ حقا كانت تجد ظروف يقوم فيها المماليك بضروب النهب والسلب بما لا يفترق عن أعمال العصابات المنظمة وغير المنظمة ولكن هذا كان من باب التهور والتمادى فى الانتقام . وإنما كانت تنتظم المماليك قواعد ثابتة وتقاليد راسخة وترتبطهم وشائج لا تنفصم . والتربية المملوكية التى أنجبت سلاطين دولتى المماليك كانت — مع تعديل طفيف — نفس التربية التى أنجبت بكوات المماليك فى العصر العثمانى : اهتمام بالروح والبدن وتدريب على الرياضة والحرب وتمرين على استخدام الخيل والسلاح . ووجود هذه البيوت كان خطراً على سلطة الوالى العثمانى فى مصر لا على الدولة العثمانية نفسها . ولم يكن يحد من هذا الخطر سوى تعدد البكوات وتنافسهم على المناصب فيما بينهم .

---

(١) جودت : تاريخ جودت ج ١ ص ١٠٠ — ١١٠) ترجمة الدنا عن التركية) .

نشأة البيوت المملوكية

وتتبع نشأة البيوت المملوكية يعود بنا إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى عند ما تأسست دولة المماليك الأولى ووضعت التقاليد المملوكية التى ما زالت تنحدر من عصر إلى عصر وطاولت بقاياها الزمن حتى أوائل القرن التاسع عشر . وهى تتضح إذا ناقشنا كلمة (مملوك) . فقد تعود مؤرخو مصر المملوكية أن يشرحوا تلك الكلمة على أساسين : أساسها (اللغوى) أى شخص فى يمين شخص آخر يملكه كما يملك السائمة . والأساس الثانى معناها (الاصطلاحى) بإطلاقها على (الارقاء) البيض الذكور من أسرى الحرب أو بالشراء من أسواق الرقيق ينشئون فى مصر وفق التقاليد المملوكية الخاصة . والواقع أن مدلول هذه الكلمة على هذا الوجه أو ذاك لا يصح إلا (عتبار ما كان) لأن الأمير عند ما كان يشترى مملوكه أو يحوزه عن طريق الأسر أو الهدية أو الاغتصاب إنما يبقيه ملك يمينه مدة تدريبه وتعليمه فقط ، حتى إذا ما بلغ سنا معينة — وكانت الثامنة عشرة فى أغلب الأحيان — « أعتقه وسمح له بإرخاء لحيته » وهذا أول حقوق المملوك المعتوق فى عرفهم . ولا يعد يربط الأمير المملوكى بمملوكه السابق سوى حق الولاء . ويبقى المملوك فى خدمة أستاذه مقيما على ولائه مهما علت مرتبة هذا المملوك ، ولا يأنف أن ينسب نفسه إلى سيده ويفخر بأصله المملوكى. وهذا النسب لا يأتى عن طريق صلة الدم وإنما عن طريق الحيازة السابقة والتبنى والعلاقة التى تربط بين الأمير ومماليكه وبين هؤلاء المماليك فيما بينهم أقرب ما تكون إلى رابطة الأسرة ، تقوم فى الحالة الأولى على علاقة التبعية السابقة والولاء المقيم ، وفى الثانية على رابطة (الخشداشية) أى الزمالة . فالأمير (أستاذ) مماليكه وصاحب ولائهم وهم (أتباعه ومماليكه وأهل بيته) . وكل واحد من هؤلاء المماليك (خشداش) الآخر اى زميله فى الرتبة [١] .

---

(١) الخشداش أو الخوشداش أو الخجداش أو الخوجداش — معرب اللفظ الفارسى خواجاناش ومعناه الزميل فى الخدمة . والخشداشية فى إصطلاح عصر المماليك بمصرهم الأفراد الذين نشأوا عند أستاذ واحد .

وكلما أعتق الأستاذ مملوكا ، أصبح من حق هذا الأمير اقتناء مماليك آخرين ينتسبون كلهم إلى أستاذهم الأول ويتعصبون له . وهكذا يتكون البيت المملوكى . وقوة أى أمير من الأمراء إنما تكون بعدد مماليك بيته .

* * *

وكانت (فرقة المماليك البحرية) أول هيئة منظمة للمماليك عرفت فى مصر (١). ولكنها لم تكن بيتاً من البيوت المملوكية بالمعنى الدقيق . انما بدأت النشأة الأولى للبيوت المملوكية مع نشأة السلطة المملوكية نفسها ، وكان أبرزها بيت قلاوون الذى يمكن اعتباره نموذجا للبيوت المملوكية التى ستظهر تباعا فى خلال عصر المماليك ، ولكننا نلاحظ أن قوة سلاطين الدولة الأولى وانحصار السلطنة حوالى مائة عام فى بيت قلاوون (١٢٧٩ — ١٣٩٠ م) خففت من غلواء العصبيات المملوكية ولم ترسم الحدود الفاصلة المميزة لها كما حدث فى دولة المماليك الثانية عند ما أصبح السلطان (كبير أمراء) أكثر منه (سلطانا) بما تحمله هذه الكلمة من معان ، فلا شبه وراثه ولا قداسة للعرش وانما القوة هى التى تقرر من يتولى ومن يدير دفة الأمور . أصبح كما يقولون (primus inter pares.) يختاره خشداشونه أو بعبارة أدق هو الذى يجبرهم على اختياره للعرش بقوة شخصيته وبقوة مماليكه ومهارته فى تصريف الأمور وسخائه فى بذل الوعود (٢) .

وإذ توفى السلطان وكانت تربط مماليكه رابطة المصلحة المشتركة ظلوا على اتحادهم وكونوا (بيتا) يعرف باسم أستاذهم السلطانى وإلا تفرقوا فى البيوت المملوكية الأخرى تحت لواء أساتذة آخرين . وهكذا ظهرت فى دولة المماليك الشمالية بيوت (الأشرفية والناصرية والمؤيدية . . . . وغيرها) يجمع كلا منها شعور بالذاتية المستقلة ويحركها عزم على الاحتفاظ بالنفوذ وكسب أكثر ما يمكن

---

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة — بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر ص ٧٢ — ٧٣ من مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٦ .

(٢) Lane- Poole : A History of Egypt in the Middle Ages .pp 325-7.

من الثروة، والقيام بمناورات وتكوين تحالفات توطىء العرش لأحد أمرائها. وقد أدى ذلك إلى تنافس ونزاع مستمر كان يصحبه دائما « قتال شوارع » فأوجد نوعا من الارهاب والفزع فى عاصمة القطر، وفترات قلق لا يأمن فيها المصرى أو غيره على نفسه وماله.

نرى مما تقدم أن البيوت المملوكية نشأت مع العصر المملوكى نفسه لأنها محوره وعنصر دوامه. ولكن قوة سلاطين الدولة الأولى أخمدت شرور تلك العصبيات إلى حدما. وكان ضعف بعض سلاطين الدولة الثانية والتنافس المرير على عرش السلطنة السبب المباشر لظهورها ونشاطها فى عنف وقوة قاست منهما مصر كثيراً وأصبحت ميداناً لاستبداد الجند، المملوكى إلى أن بدأ العصر العثمانى ودالت دولة المماليك واختفت بيوتها بتفرق مماليكها(١).

* * *

وورثت مصر العثمانية بعض التقاليد المملوكية فيما ورثت عن العصر المملوكى ولكن فى شكل أقل انسجاما، وصورة أكثر اضطرابا. وانحطت أهدافها وتواضعت أغراضها، فبعد أن كان الأمراء يهدفون إلى عرش السلطنة أو نيابتها، أصبحوا يتنافسون ويتناحرون فى سبيل (شياخة البلد) و(امارة الحج). وبعد أن كان السلطان المملوكى يؤلف قلوب مماليكه بالاقطاعات أصبح الأمير المملوكى لا يتورع أن يطلق مماليكه لنهب قصور منافسيه وسبى نسائهم وأولادهم وماعساه يقع تحت أيديهم غير مكترث لما يؤدى اليه هذا الأمر من فزع للأهالى وضيق وبطالة أو خسارة فى المال والأرواح.

وتميز العصر العثمانى فى مصر، وخاصة فى القرن الثامن عشر عندما ضعفت قبضة الوالى العثمانى، بالتنافس الشديد بين البيوت المملوكية والمعارك الدموية بين أمراء البيت الواحد بحيث كان الاصل ينقسم إلى فروع والبيت المملوكى الواحد ينقسم على التوالى إلى بيوت متنافرة متنافسة تتحد حينا وتتنازع أحيانا.

---

(١) شفيق غربال. محمد على الكبير ص ١٣ — ١٥.

البيوت المملوكية فى العصر العثمانى :

وقد حاول مؤرخ العصر العثمانى الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن يبحث فى نشأة تلك البيوت وبدأ باشمل الفرق فى عصره وهما فرقتا (الفقارية والقاسمية) فاورد عن أصلهما روايتين : أما الأولى فتجعل بدء ظهورهما فى عصر السلطان سليم الأول وفى مدة إقامته بمصر على وجه التحديد (١٥١٧ م ٩٢٣ هـ) فتقص علينا كيف زار السلطان قصر الامير سودون واعجب بحكمة ولديه (قاسم وذى الفقار) وزاد اعجابه بهما لما ابدياه من ضروب الفروسية والشجاعة والاقدام فجعل ذا الفقار على رأس الفرسان العثمانيين وقاسما على رأس فرسان المماليك وأمرهما بتمثيل معركة حربية كادت تنقلب إلى ملحمة حقيقية ، فأمر السلطان بوقف القتال ولكن تولدت فى النفوس حزازات اتضحت فى تحزب المماليك حزبين ينتسب احدهما إلى ذى الفقار ، يميل إلى العثمانيين ويتخذ اللون الأبيض شعارا له . والآخر فريق القاسمية يميلون عن العثمانيين وشعارهم اللون الأحمر (١).

هذا ولم يرد أى ذكر أو إشارة إلى تلك الحادثة فى كتابات المعاصرين للفتح العثمانى كابن أياس وابن زنبل والأرجح أنها قصة خيالية متواترة حاولت أن ترجع انقسام المماليك وعداوة بعضهم للعثمانيين إلى أصول تاريخية . والواقع أن أول انقسام كبير للمماليك فى مصر العثمانية كان إلى (قاسمية وفقارية) حقيقة ولكنه لم يبدأ سنة ١٥١٧ وهى سنة الفتح وإنما سنة (١٧٠٧ م — ١١١٩ هـ) على أثر النزاع بين (قاسم بك الدفتردار) ومنافسه (ذى الفقار بك الكبير) أمير الحج على نحو ماجاءت به الرواية الثانية .

ونحن إذا أردنا أن نقف على سر هذا الانقسام والانقسامات التالية فلا ينبغى أن نلمسه فى شعور المماليك العدائى نحو العثمانيين كما جاء فى الرواية الأولى وإنما فى تنافس المماليك على النفوذ وتنازع بكواتهم على المناصب الرئيسية فى

---

(١) الجبرتى . عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ١ ص ٢١ — ٢٣ .

الحكومة . كما أننا لانتظر حدوثه فى القرن السادس عشر عندما كانت الدولة فى أوج مجدها وعنفوان قوتها فتستطيع فى هذه الحالة أن تقضى على كل ماينتقص من هيبتها أو يهدد نفوذ ممثليها فى مصر ، وإنما نتوقع حدوثه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عند ما بدا ضعف الدولة واضحا فى ميادين السياسة والحرب سواء فى أوربا أو فى ولاياتها وخاصة مصر حيث أصبح النفوذ الحكومى مطمعا للبكوات المتنافسين ونهبا بينهم . ذلك لأن النزعة التى كانت تسير بكوات المماليك فى مصر العثمانية لم تكن نزعة انفصالية وإنما هى الأثرة وحب السلطنة فان تربيتهم واحلامهم وأعمالهم كانت كلها موجهة نحو ذلك الغرض . وكانو أبدا فى نضال ونزاع ، لايكاد الواحد منهم يبرز بين خشداشينه حتى يطمع فى أن يكون صاحب منصب ، فيعمد إلى الدسيسة والخداع حينا وإلى القتال حينا آخر حتى يقضى على شيخ البلد الموجود مثلا أو ينهزم فيفر مع خاصة مماليكه إلى الصعيد أو الشام أو بلاد المغرب حيث يلم شعث (مماليكه) ويجمع حوله (المنافى) ممن يحقدون مثله على من بيده النفوذ ويستعين (بالمرتزقة) من المغاربة أو العربان أو متاوله الشام أو دروز لبنان . وقد يقتل ويذهب ضحية اطماعه فيتولى رياسة مماليكه (ابنه أو خزنداره) مثلا (فيفتح بيت ابيه وأستاذه) . وهكذا يبدأ تكوين البيت المملوكى الجديد . وبمجرد وصولهم إلى المناصب تتولد اطماع جديدة قد تؤدى إلى انقسام جديد . وهم فى كل ذلك لايراعون الا ولا ذمة ولا يقيمون أى اعتبار للتحالف أو الزمالة فقد يكون شيخ البلد الذى يهاجمونه حليفهم السابق الذى تعاقدوا معه على الوفاء وقد يكون خشداشهم أى زميلهم الذى طالما حاربوا الى جانبه تحت لواء أستاذهم المشترك .

يتضح مما تقدم أن العاملين الأساسيين اللذين أديا إلى ظهور تلك البيوت — زيادة على الأسباب التى تقدمت فى عصر السلطنة المملوكية — هما ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حفظ هيبتها فى مصر . بحيث أصبح فى استطاعة بكوات المماليك أن يستحوذوا على نفوذ كامل فى المناصب الرئيسية المقصورة عليهم

واهمها منصب (شيخ البلد وأمير الحج والدفتردار) بالقاهرة (والصنجقيات والكاشفيات) فى الأقاليم . وثانيهما تنافس بكوات المماليك فى سبيل شغل هذه المناصب بأنفسهم أو باتباعهم .

يقول الجبرتى : (واستهل القرن الثانى عشر (الهجرى) وأمراء مصر فقارية وقاسمية[١]) ومن التناقس بين هاتين الفرقتين ستنشأ البيوت المملوكية التى ملأ نضالها تاريخ العصر بثورات محلية منظمة تحدث عنها المؤرخون باسم (الفوضى المملوكية) .

فمن (القاسمية) أنحدر بيت الإيوازية وأبى شنب . ومن (الفقارية) نشأت بيوت بلفية ورضوان والصابونجى والخشاب والقطامشة والدمايطة والجلفية والقازدغلية والابراهيمية والعلوية والمحمدية[٢] . ولعل من الطريف أن نصادف بيوتا أخرى مملوكية ولكنها لا تنتسب إلى أحد الأمراء وانما إلى أحد السراة أو الاعيان المصريين . (كجماعة الفلاح) و (بيت الشرايبى[٣]) .

وقد حدث بين هذه الفرق والبيوت خليط معقد من التنافس والمنازعات انتهى بتفوق (بيت القازدغلى) وهو ينتسب إلى الأمير مصطفى كتخدا الكبير القازدغلى الذى كان سراجا عند الأمير حسن أغا بلفية الفقارى أستاذ ذلك البيت

---

(١) الجبرتى . ج ١ ص ٢٣

(٢) تجد بيانا وافيا بأصول هذه البيوت وما حدث بينها فى الجبرتى ج ١ ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) جماعة الفلاح أستاذهم الحاج صالح الفلاح من قرية الراهب بالمنوفية (١١٦٧ هـ) تربى بمنزل على كتخدا الجلفى « ولم يزل ينتقل فى الأطوار حتى صار من أرباب الأموال واشترى المماليك والعبيد والجوارى — يزوجهم من بعضهم ويشترى لهم الدور والإيراد ويدخلهم الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لارباب الحل والعقد والمتكلمين وتقلدوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة كتخدا آت واختياريه وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشيه ، وصار لهم اتباع ومماليك . » (الجبرتى حـ ١ ص ١٩٠) أما بيت الشرايبى فجدهم الحاج محمد الشرايبى من كبار التجار بالازبكية بيتهم بيت مجد وفخر وعز ومما يسكهم من أعيان مصر وكان لهم مكتبة مبذولة للخاص والعام ويتردد على منزلهم العلماء والفضلاء وكانت لاسرهم تقاليد خاصة . (الجبرتى ج١ ص ٢٥٤).

فرقاه حتى تقلد كتخدا مستحفظان ، وحدث بينه وبين (كجك محمد باش اوده باشه مستحفظان) تنافس شديد ادى إلى نفى مصطفى كتخدا إلى الحجاز ، ولما عاد إلى مصر تم له اغتيال كجك محمد سنة ١١٠٦ هـ ، وصفا له الجو ، وتمكن من تأسيس بيت مملوكى استمر بعد وفاته ١١١٥ هـ [١] . وانقسم إلى بيوت اخرى اهمها (الابراهيمية) وفروعها (العلوية والمحمدية والمرادية والابراهيمية) انهت امرها مذبحة القلعة ١٨١١ فى ولاية محمد على باشا .

(والمماليك الابراهيمية) انحدروا من (القازدغلية) ، واستاذهم إبراهيم كتخدا [٢] . كان جاويش اليكيجرى ، ثم تولى الكتخدائية وانفصل عنها بعد ثلاثة اشهر . ثم اخذ ينافس شيخ البلد عثمان بك الفقارى (الذى كان له فضل القضاء الأخير على القاسمية وظهور الفقارية) « لأمور وحقد باطنى لا تخلو عن الرياسة والامارة » . حتى اضطره إلى الفرار من مصر إلى الأناضول حيث بقى ثلاثين عاما ، وتوفى هناك تاركا المجال فى مصر (لإبراهيم كخيا) فزادت سطوته ، واستكثر من المماليك ، وقلد اول صناجقه عثمان بك الذى عرف فيما بعد (بالجرجاوى) اشارة إلى توليه حكم الصعيد . وبعد انقطاع دولة القطامشة والدمايطة والخشابية « ادرك المترجم من العز والعظمة ونفاذ الكلمة وحسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره » ، وكان قسيمه رضوان كتخدا العزب — استاذ الجلفيه — ولكنه ترك السلطة بيد إبراهيم وركن إلى الدعة والترف .

واقتنى ابراهيم كخيا قبل وفاته مئات المماليك ، أمر منهم ثلاثة صناجق وهم : عثمان بك (الجرجاوى) وعلى بك (الغزاوى) وحسين بك (كشكش) ، ثم زاد صناجق الإبراهيمية سبعة آخرون بعد وفاة أستاذهم (١٧٥٤ م — ١١٦٨ هـ) وهم حسين بك (الصابونجى) وخليل بك (الكبير) . وحسين بك (جوجه) واسمعيل بك (ابو مدفع) واسمعيل بك وعلى بك (السروجى) . وعلى بك (لوت قبان) وهو على بك الكبير الذى سوف نتكلم عن حركته فى الأبواب التالية .

---

(١) الجبرتى . ج ١ ص ٩١ — ٩٣ .

(٢) ابراهيم كتخدا تابع سليمان كتخدا القازدغلى تابع مصطفى كتخدا الكبير جد القازدغلية .

الباب الأول

ظهور على بك الكبير

نشأته — تلبسه بالصنجقية — توليته شياخة البلد — تقلده امرة الحاج — نفيه وعودته

اكتنف الغموض مولد على بك ، شأنه فى ذلك شأن معظم المماليك ، يذكر لوزنيان — الذى احتك طويلا بعلى بك — أنه ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلاد ابازه من أعمال القوقاز العثمانى (١) حينئذ .

وكان والده داود ، أحد قساوسة الكنيسة اليونانية ، يأمل أن ينشىء ابنه يوسف (كما كان يسمى منذ ولادته حتى حضوره إلى مصر) تنشئة دينية ليشغل منصبا فى الكنيسة ، ولكن شاء القدر أمراً هو أبعد ما يكون عن رغبة الوالد أو ما هيأ له الولد ، إذ بينما كان الفتى اليافع يوسف بن داود مع بعض خلانه فى

---

(١) بلاد آبازة أو أباسية أو أباظة بلاد روسية فى سفح جبال قوه قاف فى الجهة الجنوبية المقابلة للبحر الأسود طولا بين خطى عرض ٤٢ ، ٤٤ شمالا ، وقد جاء عنها فى (دائرة المعارف للبستانى فى مجلد أول ص ١٧٠) أن أهلها ليسوا من الجراكسة أصلا وإنما من نسل أهالى المستعمرات اليونانية القديمة ، قوى عندهم الروح الحربية ويشتغلون بالزراعة وتربية الدواجن والتجارة مع الأرمن والعثمانيين وبها غابات متسعة جدا أخشابها فاخرة وهى مورد رزق لهم . ويشبع بينهم بيع السراري والمماليك . اعتنق أهلها المسيحية فى القرن الرابع ثم أسلموا ولكنهم لا يزالون متمسكين باعتقادات وعادات مسيحية ووثنية . وقد خضعوا لدول كثيرة وكان خضوعهم غالبا بالاسم . فبعد إنسلاخهم عن اليونان الذين هم منهم خضعوا للفرس ثم الجراكسة ثم العثمانيين وأصبحت بلادهم امارة ١٧٧١ حتى خضعت لروسيا سنة ١٨٢٤ وعاصمتها صعوق صو .

رحلة صيد بإحدى الغابات فاجاتهم عصابة من قطاع الطرق فاسروه بضاعة وباعوه إلى كرد أحمد وهو من كبار تجار الرقيق. فقصد به إلى الاسكندرية ١٧٤٣ حيث باعه إلى مديرى جمركها : الأخوين اليهوديين اسحق ويوسف، وهذان تقربا به هديه إلى ابراهيم جاوش اليكيجرى ومن أصحاب النفوذ فى مصر حينئذ . وكانت الهدية تليق بقدر المهدى إليه حقا ، فقد كان يوسف يافعا فى عامه الرابع عشر تلوح على محياه مخايل الذكاء وتلمع عيناه ببريق عجيب فيه معنى الإرادة والحزم[1]

* * *

تلبسه بالصنجقية :

ومنذ تلك اللحظة التى قبل فيها ابراهيم تلك الهدية البشرية بدأت حياة جديدة ليوسف بن داود كما تبدأ حياة غيره من المماليك عندما يشتريهم أسيادهم البكوات . مهدوا له الطريق فاعتنق الإسلام واسموه (عليا) ، ثم درس تعاليم الدين الحنيف ، ونصوص القرآن، ومبادىء القراءة والكتابة العربية والتركية، وسرعان ما اطمانت نفس الشاب إلى حياته الجديدة بفضل عطف استاذه ورغبته هو فى أن يصل إلى المثل الأعلى الذى اوحته إليه حياة زملائه المماليك المتقدمين عليه . وأخذ على يرتقى حتى أصبح خزندار بيت أستاذه .

وكان على يتخذ من عمله فرصة لكسب التجارب، فكان يأخذ نفسه بالتدريب الدائم حتى أتقن التمرينات البدنية، وفاق المماليك فى ركوب الخيل، وقذف الحراب، ولعب الجريد، وضرب السيف، واستعمال الأسلحة النارية وهو فى كل هذه الألعاب يمزح ويجد ويلعب ويدرس ثم هو يستلفت الأنظار بخفته ونشاطه ويستثير الإعجاب بإتقانه وأحكامه فأكسبه ذلك لقب (جن على) الذى اشتهر به[2]

---

(١) Lusignan: A History of The Revolt of Ali Bey· p. 56

(٢) الجن لقب أطلقه عليه المصريون معناه (النشيط الذى يغلب ولا يغلب) وذلك لمناسبة تفوقه على جموع الاعراب . كما أن من معانيه (الذى ينازل الخصم فلا يدرى الخصم من أين يناله) وفى ذلك أشارة إلى مهارته الفائقة فى لعب الجريد حتى كان يكنى بها بقولهم ويح من لم يتفادى جريد على بك » وليس معناها طبعا (المجنون) كما زعم فولنى Volney: Histoire d,Ali Bey. Chap. xlii· p. 115

حتى إذا ما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه (وسمح له بإرخاء لحيته)، وما أن استهل عامه الثانى والعشرين حتى وافق الديوان على ترقيته إلى درجة (كاشف) ١٧٤٩ م وبدأ ذكره فى دفاتر الرزنامة بلقب «كاشف شرقية».

ولما توفى أستاذه ابراهيم كخيا ١٧٥٤ (١١٦٨هـ) تقلد الصنجقية باسم «على بك ميراللواقازطاغلى»، وكان يتقاضى (علوفه) كل شهرين ٢٠ أردبا من الحنطة و ٤٠ أردبا من الشعير[١].

وقد ذكر الجبرتى فى معرض كلامه عن حصول على بك على البكوية ما يشير إلى أنفته وثقته الكبيرة فى نفسه قال «واتفق أن بعض ولاة الأمور تشاوروا فى تقليده الأمارة فنقل إليه مجلسهم وذكر له مساعدة فلان وممانعة فلان فقال أنا لا أتقلد الأمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد»[٢].

* * *

توليته شياخة البلد

وبحصول (على كاشف) على (الصنجقية) انتهى الدور الأول من حياته فى مصر وبدأ الدور الثانى وكان هدفه فيه الحصول على شياخة البلد أى زعامة المماليك جميعا ومن بيدهم أمور الحل والعقد فى مصر.

ولم تكن هذه مطمع على بك فقط بل كان يتزعم المماليك رضوان كتخدا الجلفى عزبان الذى انفرد بالنفوذ بعد وفاة شريكه إبراهيم كخيا، كما طمع فيها اتباع إبراهيم كخيا وخشداشة عبدالرحمن كخيا اليكيجرى وكبير طائفة القازدغليه، كما كان هناك أيضا آخرون من «الأكابر والاختيارية وأصحاب الوجاهة» على حد قول الجبرتى والكل متطلع إلى الرياسة كلف بها[٣].

---

(١) دفاتر جراية وعليق جماعت أمراء محافظين ولايت محروسة مصر — للسنوات من ١١٦١ هـ حتى ١١٦٧ هـ يمين ٥٥ مخزن تركى — دار المحفوظات المصرية بالقلعة.

(٢) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — حـ ١ ص ٣٨٠

(٣) الجبرتى: حـ ١ ص ٣٠٢

ولم ير على بك من الحكمة أن يزج بنفسه فى ذلك التنافس مع ماجره من مؤامرات واسعة النطاق بل آثر أن ينحاز إلى أقوى المتنافسين حتى ينال بنجاحه كسبا جديدا ويتخلص من منافس عنيد وهكذا . وكان عبد الرحمن كخيا كبير القازدغلية هو البادىء بالنزال ، فألب مماليك إبراهيم كخيا على رضوان (الجلفى) وأغراهم به سراً ، ولكنه رغم ذلك كان يظهر التودد اليه والنصح له ، ويتظاهر بانه يسعى بين الطرفين بالصلح قائلا له « هؤلاء أولاد أخيك وقد مات وتركهم فى كنفك مثل الأيتام وأنت أولى بهم من كل أحد وليس من المروءة والرأى أن تناظرهم أو تخاصمهم فانك صرت كبير القوم وهم فى قبضتك أى وقت فلا تسمع كلام المنافقين . . . » وراج عليه ذلك حتى فاجأه المهاجمون على حين غرة فى فجر يوم ١٦ مايو سنة ١٧٥٥ وهو بقصره بقوصون وأطلقوا عليه النار فاصابت ساقه ففر إلى الصعيد وتوفى بشرق أولاد يحيى بعد أيام (١) وانتهى بموته سلطان بيت الجلفيه ولم يبق فى الميدان سوى بيت القازدغلية والمماليك الابراهيمية .

* * *

نفيه الى نوسا الغيط

وسرعان مادبت الفرقة بين أتباع إبراهيم كخيا ، فقد كان كل منهم يسعى إلى الرياسه علنا الا على بك أخفى أغراضه وترك المتنافسين يسقط بعضهم بعضا . ولم يستطع عبد الرحمن كخيا « صاحب الخيرات والعمائر فى مصر والشام » أن يتقلد شياخة البلد ، فرغم شهرته وقربه إلى نفوس الشعب لم يكن له من الضاجق والاتباع مايوازن الضاجق الابراهيميه ، فزكوا لشياخة البلد عثمان بك الجرجاوى (أول الصناجق الذين قلدهم ابراهيم كخيا) فلم يحسن معاملة خشداشينه فنزعوه من الرياسة وزكوا بعده حسين بك الصابونجى شيخا للبلد فى أوائل سنة ١٧٥٧

---

(١) أولاد يحيى قرية من قسم جرجا فى شرق النيل كانت عامرة ذات مساجد ونخيل ومصايف ولأهلها كرم وشهامة . (على باشا مبارك . ج ٩ ص ١٠٥)

و١١٧١ هـ) (١) واتبع حسين بك سياسة خاصة أساسها تشتيت شمل الصناجق الابراهيمية حتى يصفو له الجو ، ووسيلته الاعتماد على ولاء الكشاف الناشئين (٢) فما كاد يتولى الشياخه حتى استصدر فرمانا بنفى على بك (بلوت قبان) إلى نوسا الغيط (مركز أجا بمديرية الدقهليه) وعثمان بك الجرجاوى إلى أسيوط . وأمر على بك الغزاوى أن يقيم فى منزل صهره على كتخدا الخربطلى ببركة الرطلى لايزار ولا يزوز ، واستدعى ضجق جرجا (حسين بك كشكش) ونفاه إلى البحيرة ، وكان الغرض من ذلك تفريق كلمتهم وتشتيت جمعهم حتى لايتمكنوا من القيام بعمل مشترك ضده . ولكن كشكش نجح فى استمالة كشاف الصابونجى وحرضهم عليه فاغتالوه بمصر القديمة ، وكتب القنصل دى جونيفيل الفرنسى De Joniville بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٥٧ (صفر ١١٧١) ماترجمته « لقد غدر بحسين بك الصابونجى خاصة اتباعه الذين أحسن اليهم من قبل إذ اغتاله هؤلاء منتهزين فرصة انفرادهم به فى أحد قصوره (بمصر القديمة) وافقدوه الحياة طعنا بالسيوف والخناجر (٣)

وأسرع على بك الغزاوى فاستدعى البكوات المنفيين فاقاموه شيخا للبلد حتى

---

(١) أصله من مماليك إبراهيم الصابونجى من زعماء المماليك فر إلى حمى إبراهيم كخيا فآواه ورباه وزوجه أرملة ابن الصابونجى فنسب إليهم . ويلقب أيضا بالقازطاعلى تولى أمارة الحج مرتين فى عامى ١١٦٩ (١٧٥٥) والعام التالى ثم تولى شياخة البلد ١٧٥٧ (١١٧١ هـ) ويسمى أيضا حسين بك المقتول اشارة إلى خاتمته (١١٧١ هـ) — ترجم له الجبرتى حـ ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨

(٢) أهمهم حسن كاشف الشهير بجوجو (أو جوجه أو القصير) وقاسم كاشف وخليل كاشف وإسمعيل كاشف (الذى سيشتهر فيما بعد بأبى مدفع) .

(٣) التقرير ذكره دهران Déhérain: L' Egypte Turpue. P. 123

وقد نقل الجبرتى شعرا على لسان حسين بك المقتول نصه :

وأخوان تخذتهمو دروعا ... فكانوها ولكن للاعادى
وخلتهمو سهاما صائبات ... فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن من ودادى
وقالوا قد سعينا كل يوم ... لقد صدقوا ولكن فى فسادى

تقلد أمارة الحج ١١٧٣ هـ (١٧٥٩) وأناب عنه فى شياخة البلد خليل بك الدفتردار وأغراه بالقضاء على عبد الرحمن كتخدا ، فعلم هذا بالمؤامرة وطالب خليل بك بنفى اتباع القزاوى فرفض . وعمل عبد الرحمن كتخدا على أن يزيل خليل بك ويقضى على الغزاوى « فانضوى إلى ممالأة على بك (الكبير) ومال هو الآخر إلى صداقته ليقوى به على أرباب الرياسة من اختيارية الوجاقات . » وعزم على بذل كل جهد ممكن لاقامة على بك شيخا للبلد حتى يتمكن من نفى من أرادهم .

« وأصبح فى ثانى يوم اجتمع عنده الاختيارية والصناجق على عادتهم فلما تكامل حضور الجميع تكلم عبد الرحمن كتخدا فقال : أيها الأمراء من أنا ؟ فاجاب الجميع بقولهم : أنت أستاذنا وابن أستاذنا وصاحب ولائنا . فقال: إذا أمرت فيكم بامر تنفذوه وتطيعوه ؟ قالوا : نعم فقال أن على بك (الغزاوى) سافر إلى الحجاز ولابد من كبير تجتمع فيه الكلمة . فقالوا له : الرأى ماتراه . فقال: على بك هذا — مشيرا إلى على بك الكبير — يكون شيخ البلد وكبيرها وأنا أول من أطاعه وآخر من عصاه . فقالوا : سمعنا وأطعنا ونحن كذلك . وأصبح عبد الرحمن كتخدا غاديا إلى بيت على بك وكذلك باقى الأمراء والاختيارية وصار الجميع و لديوان فى بيته من ذلك اليوم ولبس الخلعة من الباشا على ذلك[١] وكان هذا فى أوائل سنة ١٧٦٠م . والفرمانات الموجودة الصادرة فى تلك الفترة تشير إليه باسم « حالا شيخ البلد مصر عزتلو ميرلوا على بك [٢] » واضطر على بك الغزاوى أن يعود من الحجاز إلى غزة مباشرة دون أن يعرج على مصر ، وبقى هناك ثلاثة أشهر بقصد جمع أنصار ولكنه أيقن بالفشل فعاد حزينا إلى مصر وتوفى بعد ثمانية أيام [٣] .

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٢ وأيضا

Hammer: Histoire de L' Empire Ottaman. T. 16. Livrs Lxxii. PP. 148

ولكن التوفيق لم يصادف همر إذ يقول أن العثمانيين خلعوا خليل بك عن المشيخة وأعطوها لعلى باشا الابازى المولد والصحيح أنهم أعطوها لعلى بك الذى ندرس حركته .

(٢) دفتر قيد الفرمانات رقم ٢ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٣) الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٠ .

تقلده امرة الحاج

وبتولى على بك « حالا شيخ البلد عزتلو ميرلواى مكرم على يك قازطاغلى » شياخة البلد ينتهى الدور الثانى من حياته فى مصر ، ويبدأ الدور الثالث وهو مايصح أن نسميه مرحلة الكفاح للاحتفاظ بذلك المنصب الذى تولاه مرتين ثم خلع عنه مرتين — وقد حاول فى هذا الدور أن يقضى على من عساه ينافسه ذلك المنصب ، كما بدأ يكون بيتا مملوكياً جديداً سيعرف رجاله فيما بعد بالمماليك العلوية .

ولأول مرة بدأ على بك يعمل لحسابه الخاص فقد جلا عن الميدان كل المنافسين الأقوياء من بيت القازدغليه ، صرعتهم مؤامراتهم ، ولم يبق أمامه سوى ثلاثة لايستهان بهم : عبد الرحمن كتخدا قازطاغلى ، حسين بك ميراللوا اميرالحاج قازطاغلى (الشهير بكشكش) ، صالح بك ميراللوا شاهين حاكم جرجا وهو من بقايا القاسمية .

والواقع أن على بك لم يكن فى مركز يحسد عليه عندما تولى المشيخة سنة ١٧٦٠ ، نعم وافق معظم البكوات على اختياره ولكن العبرة فى ذلك الحين كانت بعدد الصناجق والمماليك المخلصين الذين فى خدمة البك . وقد ظهرت حنكة على بك فى اقتناء المماليك ، وتجنيد المغاربة المرتزقة مع ترقيـة اتباعه وتأليف قلوب أنصاره ، سياسته إلى ذلك الترغيب حينا والترهيب أحيانا (١) . واتبع تلك السياسة فى علاقته بالباشا والديوان والأوجاقات (٢) . وبدراسة « دفاتر الجراية والعليق » لبكوات المماليك فى تلك السنوات ، وهى تتضمن أسماءهم ومناصبهم ، يتبين لنا أن على بك وفق فى تحقيق غرضه إلى حد كبير فما وافت سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٧) حتى كان سواد الصناجق أما من مماليكه مثل (ذو الفقار بك ميراللوا قازطاغلى) و (اسماعيل بك ميراللوا قازطاغلى) و (محمد بك ميراللوا على قازطاغلى) وأما من خشداشينه مثل (حسين بك ميراللوا سردار خزنه) و

---

(١) الجبرتى حـ ١ ص ١٥٢ .

(٢) جودت محاسن الآثار (تركى) حـ ٢ ص ٢١٤ ، الجبرتى حـ ١ ص ٢٥٢

(ابراهيم بك زاده دفتردار) و (عثمان بك ميراللوا صغير قازطاغلى) أو من بعض مريديه من أغوات الأوجاقات السابقين مثل (حسين بك ميراللوا اغاء جراكسه سابق) و (محمد بك ميراللوا قازطاغلى اغاء مستحفظان سابق) و (خليل بك ميراللوا اغاء مستحفظان سابق) و (حسن بك ميراللواقازطاغلى أغاء تفتكجيان سابق) و حمزة بك ميراللو خليل أغاء كوكلويان سابق) و (على بك ميراللوا أغاء تفنكجيان سابق) (١)

* * *

وعندما حلت سنة سبع وسبعين ومائه وألف (طلع على بك أميرا للحج ورجع فى أوائل سنة ثمان وسبعين ومائه وألف فى ابهه عظيمة وارخى مملوكه محمد الخازندار لحيته على زمزم) (٢) ومن ذلك الحين أصبح يشار اليه فى دفاتر الجراية والعليق المتضمنه أسماء البكوات باسم «ميراللوا على بك ميرالحاج سابق»

وبمجرد عودته من الحج استصدر فرمانا بنفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز كما نفى الكثيرين من أنصاره (مارس ١٧٦٦ — ١١٧٨ هـ (٣))

وقد أشار الجبرتى إلى تلك الحادثة بقوله أن أخطر أعمال عبد الرحمن كانت « معاضدته لعلى بك ليقوى به على أرباب الرياسة » فلم يزل يلقى بينهم الفتن ويغرى بعضهم على بعض ويسلط عليهم على بك المذكور حتى أضعف شوكة الأقوياء وأكد العداوة بين الأصفياء واشتد ساعد على بك فعند ذلك التفت إليه وكلب بنا به عليه وأخرجه من مصر وأبعده عن وطنه فلم يجد عند ذلك من

---

(١) دفتر جراية وعليق عن ماء (شهر) رمضان وشوال ١١٧٩ هـ رقم ٥٥/٩٥ مخزن تركى .

(٢) الجبرتى حـ ١ ص ٢٥٣

(٣) ذكر الجبرتى حـ ١ ص ٢٥٣ أن القاهرة أرتجت عند سماع نبأ نفى عبد الرحمن كتخدا ولكن لم يحدث شغب — ونفس المعنى فى تقرير للقنصل دامبرات الفرنسى بتاريخ ٢١ مارس ١٧٦٦ ذكره Déhérain .

يدافع عنه وأقام هذه المدة فى مكه غريبا وحيدا . عند ذلك خلا لعلى بك وخشداشينه الجو فباضوا وافرخوا . . . (١) »

نفيه إلى غزة

وبقى صالح بك القاسمى وحسين بك كشكش ، فعزم على بك أن يوقع بينهما . لذلك أصدر امراً بنفى صالح بك إلى رشيد ثم إلى دمياط ، وعين حسين بك صنجقا لجرجا . أما صالح بك ففر إلى المنيا وأصبح نواة اجتمعت حولها (المنافى) من القاسمية وجماعة الفلاح وغيرهم ممن شردهم على بك . وأمده همام شيخ عرب هواره بكل ما يحتاج إليه من ذخيرة وعتاد .

واستصدر على بك أمراً من الباشا بالتجريد على صالح بك بحجة أنه « قاطع الطريق ومانع وصول الغلال والميرى » ثم عهد برياسة التجريدة إلى حسين بك كشكش ومساعديه محمد بك أبى الذهب وحسن بك الازبكاوى . وكان غرضه من ذلك أن يبذر الشقاق بين حسين بك وصالح بك . وتصادمت القوتان فى مناوشات تافهة ، ولكن يظهر أن صالح بك اتصل بحسين بك سراً فعاد كل منهما إلى مكانه ، وعادت التجريدة وعليها أبو الذهب إلى القاهرة .

حينئذ واجه على بك لأول مرة تلك الأزمة التى كان يسعى للحيلولة دون

---

(١) أورد الجبرتى ترجمة لعبد الرحمن كتخدا فى الجزء الثانى من العجائب ص ٥ — ٨ ملخصها أنه الأمير عبد الرحمن كتخدا ابن حسن جاويش الفازدغلى أستاذ سليمان جاويش أستاذ إبراهيم كتخدا . وكان من اليكيجرى وتقلد السرداريه وحج مع عثمان بك سنة ١١٥٥ هـ وبقى بالحجاز حتى سنة ١١٦١ هـ ، ثم عاد إلى مصر وتولى كتخدا الوقت سنتين وشرع فى بناء المساجد وعمل الخيرات وأبطال المنكرات . وبلغ عدد المساجد التى انشأها وجددها ١٨ مسجدا خلاف الزوايا والأسبله والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر والربط للنساء الفقيرات . ومن أهم المساجد التى بناها المشهد الحسينى والسيدة زينب وسكينة وعائشة وفاطمه ورقية ووقف عليها وقفيات كبيرة واشتهر بالجود حتى لقب « بصاحب الخيرات والمآثر فى مصر والشام والروم » . نفاه على بك إلى الحجاز سنة ١١٧٨ وبقى هناك حتى عاد إلى مصر سنة ١١٩٠ ومات بعد أيام ودفن بالأزهر .

حدوثها إذ أصبح يواجه منافسين قويين هما صالح بك وحسين بك .

فاستصدر على بك فرمانا بنفى حسين بك كشكش ، فلم يمتثل وأسرع فدخل القاهرة عنوة واستقر فى بيته (١) .

وازاء تلك الجرأة وذلك التحدى رأى على بك ألا يجاهره بالعداء فلجأ إلى إلى الحيلة ، وأغرى طبيبه عبد الله أن يدس له السم فى الدواء ففعل واكتشفت الخيانة(٢) واذكت العداء بين المتنافسين وفزع كل منهما إلى أنصاره ، وتبين على بك أن قضيته خاسرة فاستسلم حرصا على حياته ونزل على إرادة خصمه وخرج منفيا إلى الشام ، واصطحب معه أتباعه وأخصهم محمد بك أبو الذهب (مارس ١٧٧٧ — ١١٧٩ هـ (٣)) وقد أشارت الوثائق الرسمية إلى عزله فقد ذكر اسمه

---

(١) لم يكن كشكش أحد النكرات بل كان ذائع الصيت واسع الحيلة . اشتهر بأنه خرج أميرا للحج أربع مرات دون أن تؤدى عوائد العربان — ذكر القنصل دامبرات أن حمزة باشا وكان من ادكى لولاة « رأى فى كشكش بيكا من أكثر البيكوات مضاء عزيمة وطموح نفس واصلحهم للاعتماد عليه . رأى فيه الرجل الذى يمكن أن يعتمد عليه ليخلصه من على بك » ويعتقد همر أن حمزة باشا — الذى كانت سياسته تقوم على مبدأ التفريق بين الزعماء هو الذى أغرى حسين بك بالحضور إلى القاهرة لمناجزة على بك دون أن يخشى شيئا من الفرمان الذى صدر بنفيه .

وقد ترجم له الجبرتى فى وفيات ١١٨٢ هـ حـ ١ ص ٣١٨ ثم قال أنه « كان أسمر جهورى الصوت عظيم اللحية يخاطبها الشيب ، يميل بطبعه إلى الحظ والخلاعة وإذا لم يجد ما يمازحه حال ركوبه وسيره مازح سواسه وخدمه وضاحكهم .

(٢) كان حزاء الطبيب تناول السم الذى حضره لكشكش بك — يصفة الجبرتى بأنه كان نصرانيا روميا . وجيها . جميل الصورة . فصيحا متكلما . يعرف التركية والعربية والرومية والطليانية . من أهالى نابولى يدعى سلفاتورى فينجا . الجبرتى حـ ١ ص ٣٥٤

(٣) نفى أول مرة إلى النوسات فى عهد الصابونجى وهذه هى المرة الثانية . الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٤ ، شمعدانى زاده . مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٧ مخطوط تركى — وقد أشار القنصل دامرات الفرنسى فى تقريره إلى وزارة الخارجية الفرنسية عن تلك الحادثة بقوله : « يمكنكم يا صاحب المعالى أن تحكموا من هذه الحركة على أتجاه الشعور وما أدى إليه من تحول وعزل (بك) كان يطويهم بقوة شكيمته منذ أيام قلائل . وهكذا يا سيدى يتقرر =

« على بك مير اللوا كاشف شرقية سابق » وأضيف فوقها تأشيرة (رفع شدة) أى عزل كما أضيف نفس التأشيرة إلى أسماء أتباعه (ذو الفقار بك مير اللوا قازطاغلى حاكم ولايت جرجا) ، (اسمعيل بك مير اللوا قازطاغلى اغاء كوكلويان سابق) محمد بك مير اللوا على قازطاغلى (١) ؛

وعاد خليل بك إلى شياخة البلد وتولى حسين بك كشكش أمارة الحج وأخذا يعزلان أنصار على بك ويعينان أتباعهما ومماليكهما ويستعدان لنضال صالح بك .

* * *

نفيه الى أسيوط

فى تلك الأثناء عاد على بك واتباعه فجأة من الشام والتجأ الأول إلى منزل حسين بك كشكش ، كما التجأ أبو الذهب إلى بيت عثمان بك الجرجاوى . وتشاور حكام القاهرة فى أمر أولئك اللاجئين ، وقال بعضهم عن على بك « اسمعوا نصحى واقتلوه وارتاحوا منه فانه ان دام حيا اتعبكم ولا يبقى منكم أحداً ، فقالوا لا يصح أنه أخونا ودخل إلى بيوتنا (٢) . وأخيراً تقرر اعطاؤه حكم النوسات لإبعاده عن القاهرة كما تقرر نفى أتباعه إلى أسيوط .

ونجح على بك وهو فى منفاه فى تدبيره مؤامرة نفذت يوم عيد الفطر ١١٨٠هـ (١٧٦٧) جرح فيها حسين بك ، وقتل الجرجاوى وداخلتهم الشكوك من جهة حمزه باشا فقرروا عزله واختاروا خليل بك قائمقام (٣) . كما قرروا نفى على بك إلى أسيوط ، وكان هذا التصرف أبعد ما يكون عن الحكمة ، وانفى ما يكون للسلام ، وأوجب ما يكون لحدوث مشاغبات جديدة . ذلك أنهم نقلوه وسط

= المصير هنا فى هذه البلاد عن طريق الثورات فقد أسقطوا على بك من علياء عظمته التى كان قد وصل اليها واحتفظ بها عدة سنوات » .

(١) دفتر جراية وعليق رقم ٥٥/٩٥ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٤

(٣) أى يحكم لحين حضور الباشا الجديد — الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٦

مماليكه وأنصاره المنفيين ، وأتاحوا له فرصة الاتصال بصالح بك فقد « اجتمع عليه — على بك — بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا على (الكتاب والسيف) وكتبوا بذلك حجة واتفق مع على بك أنه إذا تم لهم الأمر أعطى لصالح بك جهة قبلى قيد الحياة واتفقوا على ذلك بالمواثيق الأكيدة (١) .

وتقدم الحليفان — على بك قازطاغلى وصالح بك القاسمى — بجيش جرار قاصدين القاهرة ، وقطعوا طريق الغادين والرائحين ، ونتج عن ذلك ضيق كبير ، فالصعيد كان مركز تموين القطر ، وانقطع حبل الأمن واضطربت الأمور .

ولم يجد حسين بك كشكش بداً من تجهيز تجريدة للقضاء على أولئك الخارجين . وعارض فى ذلك الشيخ الحفناوى أحد علماء الأزهر لشدة مانال البلاد من البلاء والارتباك قائلا لكشكش وزملائه فى الديوان « اخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال ، وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد ، على بك هذا رجل أخوكم وخشداشكم . أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم وأرحتم أنفسكم والناس ؟ وحلف أن لايسافر أحد بتجريدة مطلقا . وان فعلوا ذلك لا يحصل لهم خير أبداً . فقالوا أنه هو الذى يحرك الشر ويريد الانفراد بنفسه ومماليكه وإن لم نذهب إليه أتى هو إلينا وفعل مراده فقال لهم الشيخ : أنا أرسل إليه مكاتبة فلا تتحركوا بشىء حتى يأتى رد الجواب فلم يسعهم إلا الامتثال — فكتب له الشيخ مكتوبا وبخه فيه ولم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياما ثم مات (٢) .

---

(١) الكتاب أى القرآن رمز الاسلام والسيف رمز الشرف الحربى وهما أقدس الأمور فى نفس المماليك — الجبرتى ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٧ — وقد أورد الجبرتى ترجمة الشيخ فى وفيات سنة ١١٨١ ص ٢٨٩ — ٣٠٤ ملخصها أنه الشيخ محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ولد سنة ١١٠٠هـ ببلده حفنا من قرى بلبيس وتلقى العلم على أفقه علماء عصره فأجازوه بالافتاء والتدريس وتخرج على يديه عشرات من العلماء ، كان كريما أنيس المعشر . « هادنه الملوك وقصده الأمير والصعلوك ، اختير قطبا ووقف فى جرأة يرجو حسين بك كشكش سنة ١١٨١ ويحرضه على مصالحة على بك لكنه مات سريعا وقيل بالسم . ونقل عن بعض البكوات =

عودة على بك الى شياخة البلد

وفى ١٢ اكتوبر ١٧٦٧ (١٥ جمادى الأولى ١١٨١) خرج حسين بك على رأس تجريدة قوية تضم خمسة صناجق ، ثم أنجده خليل بك بتجريدة ثانية عليها ثلاثة صناجق ، ولكن هزمه على بك شمالى بنى سويف (٢٠ اكتوبر) فارتد إلى القاهرة بجمع مالا ورجالا ، ولكن الباشا الجديد (محمد راقم باشا) ايقن بافول نجمه فرفض أن يصدر فرمانا بتجريدة ثالثة وحرم على رجال الاوجاقات أن يساعدوا شيخ البلد الذى اسقط فى يده ففر مع اتباعه إلى الشام « وهم نحو عشرة صناجق وصحبتهم مماليكهم واجنادهم عدة كثيرة (١) » .

وعمل على بك على كسب اتباع حسين بك كشكش داعيته إلى ذلك حسن بك جوجو الذى لعب إزاء أستاذه كشكش دور المنافق فأخذ يكسب إلى صف على بك أبرز رجال سيده القديم حتى تمكن من ضم كثير من الصناجق والأعيان والوجاقلية ، وكان يراسل على بك سراً بأوراق يدسها داخل الأقصاب التى يشربون فيها الدخان (٢) » كما أرسل على بك يغرر براقم محمد باشا قائلا « إنى على استعداد أن الثم قدمى الباشا ، وليس النزاع إلا مع زملائى . كما ليست بينى وبين رجال الجيش أية خصومة . لقد قطعت مسافات شاسعة مع جندى الجراو ومع ذلك لم أغتصب من الأهالى حبة ولم أدع عساكرى يغتصبون شيئاً . فليطمئن الباشا من جانبنا (٣) . »

وفى زهوة النصر تمكن على بك من دخول القاهرة (٢٢ اكتوبر — ٢٩

حين قيل له أن الشيخ الحفناوى من عجائب مصر قال بل قل من عجائب الدنيا . وكان راغب باشا (سنة ١١٦٠ هـ) يقول « إن الشيخ الحفناوى سقف على مصر من نزول البلاء » لنفوذه وحسن مساعيه .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) شمعدانى زاده . مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨١ مخطوط تركى (ترجمة حمزة)

جمادى الأولى) « وثبت قدم على بك فى امارة مصر ورياستها فى هذه المرة وظهر بعد ذلك الظهور التام (١) . »

* * *

واكسبته حوادث كفاحه الطويل دروسا استثمرها بنجاح إلى حد كبير . فانتهز عطف الباشا عليه وظهر له منتهى التودد والخضوع والولاء للسلطان مع عزمه على « تسهيل الخزنة وصرة الحرمين وغلالهما » واستغل ذلك العطف فنزع إلى تنفيذ أركان سياسته التى أبدع الجبرتى فى تلخيصها وهى « قتل المتردين وقطع المعاندين وتشتيت شمل المنافقين » وبدأ فتخلص من حسن بك جوجو المنافق الأول قبله أتباعه ليلا خلف جامع قوصون (ديسمبر سنة ١٧٦٧) كما قتل كثيرين غيره . واستصدر من الباشا عدة فرمانات على فترات متباعدة بنفى من خشى تمردهم من صناجق القازدغلية من غير مماليكه ، وعشرات الأعيان وضباط الأوجاقات .

ولم يكد على بك يتخلص من «المنافقين والمعاندين» حتى اصطدم بظهور أعظم (المتردين) حسين بك كشكش وخليل بك الكبير ، اللذين عادا من غزه بعد ثمانية أشهر فى جيش من فرسان المماليك والدزوز ومشاة المغاربة ونزلوا دمياط فى ضحى ٤ مايو ١٧٦٨ (المحرم ١١٨٢) وتقدموا إلى المنصورة حيث انضم إليهم مئات من عرب الحبايبة . وعند الديرص والجراح (قرب سمنود) هزموا أول تجريدة أرسلها على بك ، ثم تقدموا إلى طنطا . وأحس شيخ البلد بخطورة الموقف فنشط يجهز حملة ثانية ولجأ صالح بك إلى صديقه همام يسأله المدد . وكان راقم باشا قد ربط مصيره بمصير على بك فساعد على جمع أكبر عدد ممكن من الجند وخرج إلى قبة باب النصر . « وجمع الوجاقلية والعلماء وأرباب السجاجيد وأمر الباشا بأن كل من كان وجاقليا أو عليه عمامة يشهل نفسه ويطلع إلى التجريدة أو يخرج عنه بدلا » فاجتمع مالايقل عن ١٥٠٠ فارس . (٢)

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٩ — وقد ذكر واصف وشمدانى زاده السبب الحقيقى الذى جعل راقم باشا يميل إلى على بك أو على الأقل يحقد على كشكش بك وذلك لاستيائه من تردد كشكش فى استقباله عند أول حضوره إلى مصر . فقد ذكر صاحب مرعى التواريخ ان أمراء =

وخرج على رأس التجريدة صالح بك ، وأبو الذهب ، وثمانية صناجق آخرون وحاصروا حسين بك كشكش وجيشه فى طنطا . واستحر القتال ، واستمر الحصار حتى نفد ما عند المحصورين من ميرة وذخيرة ، فأرسلوا يطلبون الأمان من أبى الذهب ، فأجابهم إلى ذلك ، ودبر مكيدة قضت على حسين بك كشكش وخمسة من ضاجقة ، فاضطر خليل بك إلى الاعتصام بضريح السيد أحمد البدوى واستجار بحماه

وأرسل أبو الذهب يستشير أستاذه على بك فى أمر خليل بك فاخرجوه بالأمان إلى الإسكندرية حتى لاقى حتفه بقلعتها فى أواخر ١٧٦٨ (٩ ربيع أول ١١٨٢) (١) . وتعتبر موقعة طنطا من المواقع الحاسمة ، كانت نتيجتها المباشرة استقرار على بك فى شياخة البلد

وقد ذكر الجبرتى — وعززته وثائق الاسكندرية — أمرين خطيرين : أولهما ما انتهت اليه تلك المعركة الحاسمة من انتصار محمد بك أبى الذهب وصالح بك ، ودخولهما من باب النصر فى موكب عظيم ، وأمامهم الرءوس محمولة فى صوان من فضة والخدم يقولون صلوا على (النبى) محمد .... وعدتها ستة رءوس وهى رأس حسين بك كشكش وخليل بك السكران وحسن بك شبكة وحمزه بك واسماعيل بك أبى مدفع وسليمان أغا وذلك فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم ١١٨٣ (٢٧ مايو ١٧٦٨)

ثم أضاف الجبرتى الأمر الثانى فى وصفه لدخول الظافرين القاهرة بقوله : وصالح بك ظاهر بوجهه الانقباض والتعبيس (٢) .

= مصر عند ما علموا بزحف على بك نحو القاهرة امتنعوا عن استقبال الباشا الجديد وأخذوا يتشاورون بروح غير موالية للعثمانيين فأنبههم على ذلك مدير دار الضرب ، أحمد أغا العثمانى وهددهم قائلا « لعل قصد الدولة اعدامكم فما لزوم هذا التبجح ، أى نوع من الحمقاء أنتم ؟ أنكم لم تدركوا بعد قوة السلطان القاهرة . ألا فاعلموا أنى رغم كونى أقل عبيد الدولة شأنا فلو ورد إلى أمرها لجعلت مصر القاهرة محرمة عليكم وحولت ترابها توتياء لعينه وجعلت من وقع منكم فى يدى طعمة للحسام ، هيالا تضيعوا أوقاتكم فى الباطل واستقبلوا واليكم وطهروا قلوبكم من الكلالة والملل » أنظر أحمد واصف . محاسن الآثار ج ١ ص ٣٠١ ومرعى التواريخ الشمعدانى زاده حوادث سنة ١١٨٢ مخطوط تركى .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٠٦ وهذه هى المناسبة التى نذر فيها على بك تجديد مسجد السيد البدوى بطنطا وأوقف عليه وقفيته .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ١٠٦ وحطاب من الأسكندرية ذكره عمر .

على بك الكبير فى شبابه

ولعل صالح بك كان يحس فى نفسه بقرب دوره ، فما كان له وهو من بقايا القاسمية أن يأمن شر على بك ، الذى قضى على القازدغلية عموما والابراهيمية خصوصا وبدأ يؤسس له بيتا ، كما أن على بك لم تفته تلك الملاحظة ، فاغرى به بعض أتباعه فاغتالوه ليلا بينما كانوا معه فى الطريق قرب سويقة عصفور ببولاق ، بعد خروجهم من اجتماع عقدوه بمنزل على بك مساء الأحد ١١ سبتمبر ١٧٦٨ (١٨ ربيع الثانى ١١٨٣)[١] وبذلك تخلص على بك من آخر صنجق كان يحتمل أن ينافسه شياخة البلد. واستقرت الأمور وسلمت اعنتها لعلى بك الذى أصبح شيخ البلد وسيدها الفعلى وبذلك النهاية الناجحة اختتم الدور الثالث من حياته فى مصر .

يقرر تلك الحقيقة الرحالة جيمس بروس الانجليزى James Bruce إذ كان قد بدأ رحلته فى أبان ذلك الوقت ووصل مصر فى أواخر يونيه ١٧٦٨ ، وكتب يصف فوضى الحكومات السابقة ثم قال « ولحسن حظى لم أصادف عند مرورى بالقاهرة ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يقبض على أزمة الأمور بنفسه أو بوساطة عماله » ثم أضاف قوله « أن على بك الذى ذاع صيته فى أوربا فى عصرنا الحاضر لكثرة ما يقصونه عن مخاطراته وجرأته قد حلب أشطر الدهر بما لاقى من إقبال وأدبار فعند ما نفاه منافسوه من العاصمة خرج طريداً ولكنه عاد بعد ذلك فتفاهم بدوره واضحى مطلق السلطان[٢] .

وبذلك تمهد السبيل أمام على بك للقيام بحركته التى سنفصلها فى الأبواب التالية .

---

(١) الثابت أن على بك تحمل بسبب ذلك عداء احمد بك بشناق (الشهير بالجزار) وبيان ذلك أن على بك حرض الجزار فيمن حرضهم على قتل صالح بك . ولما كان الجزار من أخلص الناس لصالح بك لفضل الأخير عليه أيام كان منفيا بالصعيد ، فقد اعتذر لعلى بك فكظم هذا غيظه وتصنع أمامه اكباره لشهامته وأكد له أنه إنما كان يختبر اخلاصه واستشف احمد نيات على بك الحقيقية فأسرع وأسرها إلى صالح بك الذى أنكرها ظاهرا واستنكرها باطنا لما كان بينه وبين على بك من المواثيق . كما أن على بك أسرع يغطى الموقف فهنأ صالح بك باخلاص الجزار وموه عليه قائلا : ينبغى لك يا أخى أن تختبر رجالك أيضا لئلا يكون بينهم خيانة . وأنا قد اختبرت الجزار فوجدته نصوحا . جودت تاريخ جودت ص ٣٤٣ ونفس المعنى فى الأمير حيدر . الغرر الحسان ج ٢ ص ٧٩٨ .

(٢) Bruce : Voyage Pour Decouvrir. T. L. pp. 29—21.

الباب الثانى

تمهيدات الحركة

الفصل الأول

تعبيد الطريق

سياسته نحو العثمانيين — شل نفوذ الحامية والديوان .
القضاء على نفوذ العربان : معركتا دجوه وأسيوط .

لم تكد تستقيم الأمور لعلى بك فى شياخة البلد حتى تطلعت نفسه إلى الانفراد بشئون الحكم فى مصر ، وعادت الحوادث تتطلب منه ما احتواه عقله من حكمة وخبرة ، وما انطوت عليه نفسه من حزم وعزم وإقدام .

* * *

وكان الطريق إلى تحقيق ذلك يعج بالعقبات . ولم تكن هذه مستحدثة يسهل اقتلاعها أو ازالتها بل كانت موروثة ترجع بأصولها الى مايزيد عن قرنين ونصف من الزمان .

* * *

سياسته نحو العثمانيين :

لم يكن على بك يستطيع أن يمضى فى طريقه مالم ينجح فى التغلب على العقبة الكبرى التى طالما أودت بحياة عشرات من مشايخ البلد وصناجقها ، تلك هى شكوك ديوان الاستانة .

وكان على بك بمأمن من تلك الشكوك بفضل صداقته المتينة مع محمد راغب باشا الصدر الأعظم وصاحب النفوذ الأكبر فى الديوان العثمانى ، ولكن وفاء تلك الشخصية المحبوبة من الجميع (٨ ابريل ١٧٦٣) أفقدت على بك سنده الذى كان يحميه فى حكومة الباب العالى .

عند ذلك اتبع على بك سياسة التودد إلى العثمانيين ، القائمة على إطاعة السلطان وملاطفة ممثلية فى مصر : فهو دائما المتغنى بافضال السلطان وطاعته ، وهو ابدا المملوك الذى كرس نفسه لخدمة عرش مولاه ، ذلك مع ملاطفة الباشا العثمانى ومداراته والتظاهر بتنفيذ طلباته ، فعجل ارسال الخزنة كاملة حتى سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) [١] وملأ المخازن السلطانية بالاستانة من خيرات مصر برهانا على ولائه وتفانيه فى خدمة السلطان . ولما كان الاهتمام بارسال « صرة الحرمين » وغلالهما مع الأموال الموقوفة على فقراء الحجاز من عوامل ارضاء السلطان فقد بذل على بك غاية جهده فى ذلك ، وقام على تجهيزها وارسالها .

كما لم يغفل ارسال الهدايا الى السلطان ورجاله ، فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شوال ١١٨١ هـ (سنة ١٧٦٨ م) أن على بك « هيأ هدية حافلة وخيولا مصرية جيادا وارسلها الى اسلامبول للسلطان وجال دولته » وأنه « كتب مكاتبات الى الدولة ورجالها والتمس من الشيخ الوالد — الشيخ حسن الجبرتى — أن يكتب له أيضا مكاتبات لما يعتقده من قبول كلامه عندهم » [٢] .

ولم يكن يصدر فى حركة من حركاته إلا عن فرمان من الباشا الذى أدهشه تواضع شيخ البلد رغم قوته ، فامتلأت نفسه غروراً لذلك رغم ضعفه . وكان على بك إذا أمر بجمع الميرى فهو انما يجمعه لتدبير أمر الخزنة وتوفير غلال الحرمين ، وإذا حارب منافسيه من البكوات فانما يحاربهم باسم السلطان وفى سبيل تدعيم سلطته .

---

(١) شمعدانى زادة : مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٨ ، أحمد واصف : محاسن الآثار ج ٢ ص ٢١٤ ترجمه حمزة .

(٢) الجبرتى . ج ١ ص ٣٠٩

هكذا اكتسب على بك عطف الاستانة مؤقتا ، كما اكتسب معاونة الباشا واحترامه له .

لاندهش اذن متى علمنا أن السلطان ارسل رسوله يحمل لعلى بك « مرسوما وقفطانا وسيفا اظهارا للرضاء السلطانى » كما ان راقم محمد باشا أصبح من انصاره الداعين له . فعندما حدثت مؤامرة ديوان القاهرة ، التى انتهت بقتل الجرجاوى سنة ١٧٦٦ وجرح كشكش ، نسبوها إلى تحريض على بك للباشا ، كما أن راقم محمد باشا خرج بنفسه يدعو الجند لنصرة على بك عند ما تهدد مركزه بقدوم كشكش بك وخليل بك من غزة سنة ١٧٦٧ ووصولهما إلى المنصورة ، مما كان له الأثر الفعال فى انتصار جيش على بك وكسب معركة طنطا ، وهى كما اسلفنا القول المعركة الحاسمة التى ثبتت على بك الكبير فى شياخة البلد .

بل ان الجبرتى يذكر فى حوادث يوم السبت ثانى عشر شهر ربيع الأول سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ — ١٧٦٨ م) ان الباشا « نزل إلى بيت على بك باستدعائه فتغدى عنده وقدم له تقادم وهدايا (١) » .

ولم يغفل على بك أمر من قد يكون لهم تأثير على الباشا ، بحكم عصبيتهم او مناصبهم ، فنراه ينتهز فرصة احتفال القاضى العثمانى حفيد افندى بختان ولده فيرسل اليه هدية يصفها الجبرتى بانها كانت « حافلة » ثم يغرى بقية البكوات واغوات الحامية والتجار والعلماء ليفعلوا نفس الأمر حتى امتلأت حواصل المحكمة بالأرز والسمن والعسل والسكر وكذلك امتلأ المقعد بفروق البن ووسط الجوشن بالحطب الرومى (٢) .

وكان لايجالس إلا ذوى الحيثية من الرجال ، ويخص من بينهم عبد الله كتخدا الباشا وكبار ضباط البكيجرى (٣) .

---

(١) الجبرتى . جـ١ ص ٣٠٦ — نزل الباشا أى غادر القلعة إلى منزل على بك يدرب عبد الحق وكان يطل على بحيرة الأزبكية .

(٢) الجبرتى جـ١ ص ٢٥٤

(٣) الجبرتى جـ١ ص ٣٨١

وبفضل تلك السياسة ضمن عدم معارضة الباشا او الديوان لأعماله ، وفى ظل تلك الثقة نشط على بك يكمل تنفيذ الخطة التى رسمها لازالة بقية العقبات .

شل نفوذ الحامية والديوان :

لم يكن شيخ البلد فى مصر العثمانية ، مهما علا قدره ، يستطيع ان يعمل وحيداً وسط تلك العواصف السياسية ، والحوادث القائمة على الأنانية وحب التسلط ، وإنما كان يعز بقدر ما يملك من مماليك ، ويظهر بقدر من يناصره من بكوات . فلم يكد على بك يحاصر القاهرة مع صالح بك فى أكتوبر ١٧٦٧ حتى أرسل يستدعى كل البكوات الذين نفوا فى مدة السنوات الثلاث السابقة . وما أن تقرر له النصر حتى شرع فى ازالة انصار العهد السابق من المناصب الهامة ، أما بالقتل أو المنفى الى جهات متفرقة ، وكانت عادته بعد ذلك أن يشرع فى « قتل المنافى الذين أخرجهم إلى البنادر مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة ، كان يرسل اليهم ويخنقهم واحدا بعد واحد » (١) وذلك بعد أن يكون قد استصفى أموالهم وأخذ التزاماتهم فوزعها على مماليكه وأتباعه الذين يؤمرهم فى مكانهم (٢)

بهذه الطريقة تمكن على بك فى ظرف سنوات اربع ، من أن يقيم فى أهم مناصب الحكومة بكوات من خاصة اتباعه ، فولى اسماعيل بك دفتر دارية مصر وحسن بك رضوان امارة الحج وأيوب بك ولاية جرجا وعين سليم اغا اليكيجرى وسليمان بك كخيا لنفس الأوجاق ، ولم يكن عبد الله كتخدا الباشا سوى عينه الساهرة لدى العثمانيين كما سيتبين لنا فيما بعد .

وتيسر لعلى بك أن يملأ جميع مراكز الصناجق الشاغرة ، أو التى أخلاها هو ببكوات تعهدهم منذ كانوا صغاراً وارضعهم لبان الاخلاص له والتفانى فى خدمته. ذكر لنا التاجر لوزنيان ثمانية عشرة بيكا وهم رضوان بك ، على بك الطنطاوى ، اسماعيل بك ، خليل بك ، عبد الرحمن بك ، حسن بك ، يوسف بك ، ذو الفقار بك ، عجيب بك ، احمد بك الجزار ، سليم اغا ، سليمان كتخدا ، لطيف بك ، عثمان بك ،

---

(١) الجبرتى جـ١ ص ٣٣٦

(٢) الجبرتى جـ١ ص ٣٠٩ ، De Tott : Memoires . . . . T. IV. P.65.

محمد بك ابو الذهب ، ابراهيم بك ، مراد بك (١)

وفى الوقت الذى استكثر فيه على بك من المماليك حتى حازما يقرب من ٦٠٠٠ مملوك ، حرم على بكواته وكشافة أن يجوز الواحد منهم أكثر من مملوك أو اثنين حتى يستعصموا به دائما ويأمن غدرهم .

وأراد على بك فيما أراد أن يأمن شر الحامية والديوان فعول على القضاء التام على نفوذهما والتقليل جهد الطاقة من عدد رجالهما ، فبدأ اولا بأشراكهم فى الحروب الداخلية حتى هلك من صدور الأوجاقات من هلك ، خصوصا فى اول

---

(١) lusignan p.79 والدفاتر التى تتضمن أسماء البكوات فى عهد على بك غير موجودة بالمحفوظات . وتربط رضوان بك بعلى بك صلة الدم فهو ابن شقيقة على بك الكبرى جاء مصر وسنه ١٦ عاماً فرباه خاله على الطريقة المملوكية وقلده كاشفا سنة ١٨٦٨ ومنحه لقب بك بعد ذلك بقليل lusignan, p. 53 أما أحمد بك الجزار فكان من زينا من أهالى البوسنة ، عمله الموسى ، جاء إلى مصر فى حاشية على باشا ١١٦٩ هـ ثم خدم صالح بك ١١٧١ هـ حيث وجد مجالا لإشباع غرامه بالجندية وصحب سيده الى الحج ، ولبس زى الجند وأحبه سيده واشتهر ببوشناق أحمد . ثم انحاز إلى عبد الله بك سنجق البحيرة . وقدر لسيده هذا أن يروح ضحية غدر عرب الهنادى . وتولى بعده ذوالفقار كاشف فعين بوشناق أحمد حاكما على احدى قرى البحيرة وهنا أراد أحمد أن يتشفى لسيده عبد الله فحول صناعته من « الموسى إلى أعمال السيف » وأخذ يفتك بعرب الهنادى ، وقتل أربعة من كبرائهم . وكان كلما قتل منهم رجلا يقول « هذا ثأر سيدى عبد الله » وكان يرسل رؤوسهم إلى القاهرة فأسموه الجزار . وهانته الهنادى ، فكبر فى عين على بك نعينه رئيسا للشرطة بالعاصمة ومنحه لقب بك واتخذه وأبا الذهب آله للقضاء على المتمردين والمنافقين والمعاندين ، حتى اذا جاء دور صالح بك ، أبى أحمد أن يخونه لماله عليه من سابق فضل . وحذر صالح بك من غدر صنائع على بك . ورغما عن وجوده وقت اغتيال صالح بك فأنه لم يرفع إليه يده يقصده بسوء فعاتبه أبو الذهب وقال له وهو يمسح سيفه من الدم « ياأخى أرنى سيفك أنظر هل هو كسيفى جدير بشهرته !! » وكان قصده أن يأخذ السيف ثم يقتله . فقال الجزار « ان سيفى لايخرج من غمده الا ليدمى ونهض قائما » وقد أوجس منهم الجزار خيفة وفر سنة ١١٨٣ (١٧٦٩م) سرا الى الاستانة . ثم حط رحاله بالشام حيث قدر له فيما بعد أن يخلد اسمه مدافعا عن عكا ضد نابليون (الأمير حيدر ج١ ص ٨٩٨ ، جودت ج١ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ ، الجبرتى ج١ ص ٣٠٧) وعنه أيضا كتاب Jockroy : Ahmed le Bouchr.

اصطدام لجيش على بك مع كشكش عند الديرص والجراح ، ثم ابعد معظم من بقى من كبرائهم كما ابعد اتباعهم . وكان غرضه من ذلك كما ذكر الجبرتى « ازالة أصحاب المظاهر كائنا ما كان » وقد ذكر الجبرتى من هؤلاء المنفيين مايزيد على الثلاثين من ضباط الحامية . وكان إذا عزل أو نفى او اغتال واحداً من ضباط الأوجاقات استبدل به آخر من اتباعه . وقد ذكر المؤرخون[1] ان على بك لجأ اخيراً إلى حيلة ماكرة لتشتيت شمل من بقى من رجال الفرق الذين كانوا قد التحقوا بها طمعا فى دسامة الموجبات ، إذ اخر دفع رواتبهم مدة ستة اشهر متعللا بقلة المال . ولما اشتد بهم الحال وذاقت انفسهم مرارة الحرمان ، مع عجزهم عن السلب أو النهب لعناية على بك بالأمن والعدل قبلوا تسلم نصف رواتبهم ، ولم تعد الجندية مطمعا لأولئك الذين لم يعرفوا لها معنى سوى التجبر والنهب فأخذوا يبحثون عن عمل أجدى .

غير أننا لم نعثر فى الوثائق الرسمية ودفاتر الرواتب عن سند لهذه المسألة ، ولم يتسن لنا العثور على دفاتر الأوجاقات لتلك السنوات ، ولكن كل ماذكر فى سجلات « دفاتر مرتبات مردان القلاع التابعة لحروسة مصر » لايتمشى مع هذا الرأى ، بل على العكس وجدنا عدة مرفقات بالدفاتر تركها الأفندية ، وهى عبارة عن اخطارات من كاتب اوجاق متفرقة إلى افندى المصرف (قلم الصرف) بمختلف القلاع ، بشأن صرف تذاكر رواتب عساكر تلك القلاع وعبارتها لاتحتمل حدوث أو تعمد أى تأخير او تقصير ، مثلها نص الاخطار التالى وهو محرر بالعربية :

بعد مزيد السلام عليكم نعرفكم انتا قابلنا حضرة اسماعيل افندى روزنامجى وأخبرناه بتذاكر القلاع فلم قصرو اوعدنا انه يأذن لكم فى اخراج التذاكر والحال يأخى انكم تعطوهم تذاكرهم والعهدة علينا .

سليمان افندى كاتب كبير متفرقة

---

(١) مثلهم Cattaui : Histoirede Repports. p. 24.

وقد آثرنا ان ننقل نصا آخر بالتركية ونقارن فيه بين تاريخ التحرير وتاريخ الاستحقاق وتاريخ الدفع وهو من كبير افندية اوجاق متفرقة إلى افندى قلعة ابريم وهذا نصه(١)

بنم عزتلو اوغلوم افندى حضرتلرينك

حالا قلعة ابريم بيك يوزسكسان بش رشن مواجبك تذكرة سى اخراج وخليل حمد حواله سند تسليم ومعتاد اوزره عوايدكزى اخذ ايله سز ؟

امضاء سليمان كاتب متفرقة حالا

تحريراً فى ٢٥ شعبان ١١٨٥

وترجمته بالعربية

حضرة صاحب العزة ولدنا الأفندى

الرجا اخراج تذكرة مواجب قلعة ابريم عن قسط رشن ١١٨٥

(رجب شعبان رمضان) وتسليمه لخليل حمد الحواله بعد أخذ عوائدكم المعتادة

امضاء سليمان كاتب متفرقة حالا

تحريراً فى ٢٥ شعبان ١١٨٥

ومعنى هذا أن تاريخ استحقاق دفع هذا القسط أوائل شوال ١١٨٥ ، حرر عنه الاخطار السابق بتاريخ ٢٥ شعبان أى قبل الاستحقاق بشهر وقد رجعنا إلى قلعة ابريم فوجدنا بالدفتر اشارة إلى أن قسط رشن المذكور دفع بتاريخ ٨ شوال ١١٨٥ ، وهذا لايعنى أى تأخير .

* * *

ولكننا فى مثل ثان لقلعة أخرى وجدنا تأخيراً فى دفع رواتب بعض الأقساط وتقديماً فى دفع البعض الآخر ، فخامية قلعة دمياط مثلا تسلمت رواتبها كالآتى :

عن مصر (محرم ، صفر ، ربيع أول)

---

(١) دفتر أرقام قلاع در توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ هـ رقم ١٣٢ / ٥٥ مخزن تركى

إلى لذذ (شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة) بتاريخ ٨ رمضان ١١٨٥ ، ومعنى هذا أنها فى سنة ١١٨٥ تسلمت مرتبات السنة دفعة واحدة منها القسطان الأولان متأخران ، والقسط الثالث قبل موعده بشهر ، والقسط الرابع قبل موعده بأربعة شهور .

* * *

وهناك مثل ثالث لقلعة العريش ، دفعت مرتبات رجالها متأخرة فى جميع الاقساط ولكننا نلاحظ انتظام التأخير ، بحيث يتلاشى أثره على مدار السنة (١)

فقسط مصر (محرم ، صفر ، ربيع أول) دفع بتاريخ ٢٥ رجب ١١٨٥

« رجج (ربيع ثان ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة) « « «

« رشن (رجب ، شعبان ، رمضان) دفع بتاريخ ٨ ذى القعدة ١١٨٥

« لذذ (شوال ، ذو القعدة ، ذوالحجة) دفع بتاريخ ٢ ربيع الثانى ١١٨٦

يتضح مما تقدم أن أقساط مرتبات رجال القلاع ، وعددهم ينيف على الفين وخمسمائة ، موزعين فى اثنين وعشرين قلعة ، كانت تدفع بانتظام كل ثلاثة اشهر قمرية ، وان كان ثمة تأخير فهو ناشىء من تاخير تسليم ديوان الروزنامه للأموال المقررة لسبب من الأسباب ، وهذا ثابت فيما يختص بموقف على بك من حاميات القلاع وهى من المتفرقة ، أما فيما يختص بالأوجاقات الأخرى فغير قاطع ، والوثائق لم تمدنا بمعلومات ذات قيمة لعدم وجود دفاتر لرواتبهم فى تلك الفترة ، والتحفظ اجمل من الانسياق وراء آراء المؤرخين حتى نعثر على السجلات الرسمية . وقد اورد لنا الجبرتى مثلا للطريقة التى كان يتبعها على بك للتخلص من منافسيه قال « وفى يوم الخميس (٥ شعبان سنة ١١٨٣) ارسل على بك ، عبد الرحمن اغا مستحفظان إلى رجل من الأجناد يسمى اسماعيل اغا من القاسمية وامره بقتله . وكان اسماعيل هذا منفيا جهة بحرى وحضر إلى مصر قبل ذلك وأقام ببيته جهة الصليبة ، وكان مشهوراً بالشجاعة والفروسية والاقدام . فلما وصل الأغا حذاء

---

(١) دفتر أرقام قلاع توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ هـ رقم ١٣٢ / ٥٥ مخزن تركى

بيته وطلبه، ونظر إلى الأغا واقفا باتباعه ينتظره علم انه يطلبه لقتله كغيره، لأنه تقدم قتله لأنفس كثيرة على هذا النسق بامر على بك (١) »

* * *

غير أن على بك كان يخشى نفوذ اوجاق اليكيرية ، أقوى اوجاقات الحامية وامرسها، والتى ينسب فضل ظهوره إلى كتخداها السابق ابراهيم كخيا ، كما ينسب توليه شياخة البلد لأول مرة إلى قائدها اللاحق عبد الرحمن كتخدا . لذلك عين لها قائدا من أتباعه هو عبد الرحمن اغا ثم سليم أغا، كما عين لها كتخدا من أتباعه أيضاً هو سليمان بك . ثم صادق كبير كتابها محمد افندى ، وبذا أصبحت تلك الفرقة طوع بنانه .

وقد لاحظ نقص عدد جنود تلك الفرقة وقلة نفوذها الفرنسى بوابيه Boyer وعلق على ذلك بقوله فى تقرير له بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٧٦٨ « لم يهزل اوجاق اليكيجرى من قبل إلى مثل الدرجة التى هو عليها اليوم (٢) »

* * *

هكذا أضعف على بك سلطة الديوان العثمانى بالقضاء على نفوذ كبار ضباط الاوجاقات ، وأنقص عدد رجالها إلى الحد الذى يمكن اعتبارها بسببه كما مهملا

وبعد أن أمن على بك مكر الباشا والديوان ، وكسب رضاء السلطان وقضى على المعاندين والمنافقين ، وشل الحامية حتى كادت تكون اسما بلا جسم ، وبعد أن ركز السلطتين الادارية والحربية فى يده، أصبح فى مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التى يمكن أن تهدد سلطته ، بل وجوده ، تلك هى قوة العربان المنتشرين فى الوجه البحرى والمنبثين فى الصعيد .

القضاء على نفوذ العربان : معركتا دجوه وأسيوط

جمهرة المؤرخين الذين تعرضوا لمسألة العربان هذه عالجوها على أنها محاولة

---

١) الجبرتى جـ١ ص ٣٠٨

(٢) أورده Débérain p. 126

من على بك لأقرار الأمن الداخلى والسلام ، بينما هى فى نظرنا مسألة مزدوجة : ظاهرها اقرار الأمن ، وباطنها دعم مركزه بالقضاء على منبت الفتن السياسية والملجأ الأخير لها وجهاد على بك ضدهم فى الوجه البحرى ، أى ضد عرب الهادى والحبايبة ، يغلب عليه القصد الأول ، بينما يغلب الوجه الثانى على كفاحه ضد همام فى الصعيد .

وللعرب فى مصر قصة قديمة تبدأ مع الفتح العربى . ومنذ دخلوا فى ركاب عمرو وهم أصحاب السلطة ، حتى إذا ما انتقلت أمور الحكم إلى أيدى دول شبه مستقلة استمر تدخلهم بشكل ما . ولما استقلت بمصر دول الفاطميين والايوبيين والمماليك ، وتعذر على العرب التدخل الفعلى فى شئون الحكم ، التحق بعضهم بالجيش كجند مرتزقه . وأخيراً عند ما حارب المماليك دفاعا عن دولتهم ضد العثمانيين ساعدهم العرب أولا ، ثم تخلوا عنهم عندما تبين أن قضيتهم خاسرة .

وجاء الحكم العثمانى حائلا دون تدخلهم فى الحكومة والجيش ، فراحوا يعيثون فى مصر فسادا ، يقطعون طريق الحج ، ويسلبون التجارة فى طريقها من الصعيد إلى أنحاء الوجه البحرى ؛ وأخذوا يهاجمون الأرض المزروعة من حين إلى آخر ، لايراعون فى ذلك حرمة . واشتهر أمرهم هذا وعرف فى التاريخ باسم « أفساد العربان » (١)

عالج تلك المسألة المؤرخ پولياك Poliak فى كتابه « ثورات مصر الشعبية وأسبابها الاقتصادية فى عهد المماليك » واعتبر (افساد العربان) من أهم عواملها ، إذ كثيراً ما نصادفهم فى ذلك العهد أما فى ثوب اللصوص وقطاع الطرق ، وأما فى ثوب الثائرين على الحكومة يرفضون دفع الميرى ، وأما مغيرين على القرى المزروعة يسلبون وينهبون ؛ وبالاختصار كانوا عنصر فوضى واضطراب . ولهذا السبب كان من أهم اختصاصات الكاشف حماية الزراع من عبث الاعراب ،

(١) Sonnini ; Voyage . . . T.I. Chap. XXXI. p. 253 & Poliak : les Rovoltes Populaires p. 257–8.

وأغرى على تأديبهم بمنحه ما يغنمه منهم ، كما جعلوا العزل عقابه إذا ثبت تهاونه فى تأديبهم (١).

* * *

وكان أخطر العرب قدرا بالوجه البحرى الحبابيه بشرق الدلتا ووسطها ، والهنادى بالبحيرة . وهؤلاء جاء معظمهم من الحجاز ، بينما استقر عرب هواره بالصعيد . ومعظمهم جاء من بلاد المغرب(٢) وغير هؤلاء كثيرون انبثوا فى أنحاء القطر على حدود الوادى المنزرع ، فمنهم من استقر وترك حالة البداوه ومنهم من ظل متبديا .

* * *

وورث سويلم بن حبيب عن أبيه حبيب وشقيقه سالم شهرة تردد صداها فى أنحاء الوجه البحرى ، وانتهت اليه زعامة جميع القبائل هناك ، وهابه الجميع لجرأته وشدة بأسه « وأحاطوا أعماله بها له من الخيال حتى قوموه وفرسه بألف خيال »

وقد انتهت اليه خفارة الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد ، غير أنه رغم ثروته الطائله ، وما كان بيمينه من الضياع الواسعة ، تجبر وبغى وطغى وأصبح لايفترق فى شىء عن قطاع الطرق بعد أن زاول القرصنة النيلية « وأنشا عدة مراكب تسمى الخرجات ، ولها شرافات وقلوع عظيمة ، وعليها رجال غلاظ فاذا مرت بهم سفينة صاعدة إلى (الوجه القبلى) أو حادرة (إلى البحرى) ،

---

(١) Combe. L'Eg. ottomane p. 77.

(٢) ينتسب الحبابية الى حبيب بن سعد أعظم المشايخ قدرا بالقليوبية خاصة والوجه البحرى عامة ، وهو كبير نصف سعد وليس لهم أصل مذكور فى قبائل العرب ، وكان ظهوره فى أوائل القرن الثامن عشر — الجبرتى جـ ١ ص ٣٤٥ — أما الهوارة فقد اختلف المؤرخون فى أصلهم : أشار الى ذلك المقريزى فى كتابه « البيان والأعراب عما بارض مصر من الأعراب ص ٣٣ — ٥٨ — ٦٠ والذى يهمنا أن الظاهر برقوق أقطع كبيرهم أرضا ناحيه جرجا حوالى سنة ٧٨٢ هوكانت خرابا فعمروها واستقروا بها .

صرخ عليها اولئك الرجال قائلين «البر» فان امتثلوا وحضروا ، أخذوا منها ما أحبوه من حمل السفينة وبضائع التجار ، وأن تلكئوا فى الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات فى اسرع وقت ، واحضروهم صاغرين ، واخذوا منهم اضعاف ما كان يؤخذ منهم لو حضروا طائعين من أول الأمر ، وكان له قواعد وأغراض وركائز وأناس من الأمراء وأعوانهم بمصر يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه ولا يسمعون فيه شكوى (١) »

وما كان على بك ليسمح لتلك الفوضى بالبقاء فى عهده ، وما كان ليغمض عينيه على من كانت « غالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولا يقدر ملتزم ، ولا قائمقام على تنفيذ أمر مع فلاحيه إلا باشارته . » ثم هو يتحكم فى الطريق بين القاهرة وموانى القطر الشمالية ، فوجه على بك تجريدة بقيادة أبى الذهب وأيوب بك للقضاء على سويلم بن حبيب ، وتأديب أتباعه ، وحجته فى ذلك ان سويلما كان قد أكرم حسين بك كشكش وخليل بك عند عودتهما من الشام .

ولم يكن سويلم موجوداً فى مركزه دجوه (٢) ؛ بل كان فى سند نهور ، فأسرع إلى البحيرة . والتجأ إلى عرب الهنادى فاكتفى محمد بك أبو الذهب بتجريد دوائره مما فيها ؛ وعاد إلى القاهرة سنة ١٧٦٩ (ربيع آخر ١١٨٢ هـ) .

ولم يكتف على بك بذلك ، بل سلط عليهم سنجق البحيرة عبد الله فاشتبك معهم ولكنه خر صريع المعركة ، فتولى بعده ذو الفقار كاشف الذى استعان بأحمد الجزار على الانتقام لمقتل عبدالله ولما تم اغتيال صالح بك . ووقعت القطيعة بسبب تلك الحادثة بين احمد بك الجزار وعلى بك ، وفر الجزار إلى سورية

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٢٤٩

(٢) دجوة قرية صغيرة من مديرية القليوبية واقعة على الضفة الشرقية لفرع دمياط وكانت مركز عرب أولاد حبيب عامرة بالخيرات . على باشا مبارك الخطط التوفيقية جـ ١ ص ١٠١ ، الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٨

عاد مرة ثانية ليناصر سويلما عدوه القديم ضد سيده وصاحب الفضل عليه على بك .

عندذلك أسرع على بك فجهز تجريدة بقيادة اسماعيل بك شددت النكير على الحبابية والهنادى ، فانكسروا شر كسرة ، وقضوا على سويلم ونكلوا بأتباعه ، وزال خطر أولئك الاعراب (١) .

* * *

وبعد أن أصبحت القاهرة فى يد على بك وخلص له الوجه البحرى أيضا تطلع إلى استخلاص الصعيد وهو مركز تموين القطر من يد أعظم مشايخ العرب قدرا وأكثرهم نفوذا وأتباعا همام بن يوسف الهوارى .

وكان حكم الصعيد منذ عصر المماليك فى يد شيوخ العرب من هواره . حتى كان عهد الوالى العثمانى سليمان باشا الذى فكر فى أن يعهد بحكم الصعيد إلى أحد بكوات المماليك بدلا من مشايخ العرب الذين كان قد أدى بهم الغرور والاستهانة بالعثمانيين إلى « قلة الاهتمام بالأموال السلطانية والغلال الديوانية وكثرة البواقى التى لا تعد ولا تنحصر ، والتقصير فى ضبط المال والغلال والجبايات الظاهرة وحصول الخسارة الزائدة والظلم المترادف لعامة الرعايا وكافة البرايا » هذا مع اهمال مصالح البلاد وكافة أنواع الاصلاح مما أدى إلى الخراب . ففى أواخر سنة ٩٨٣ هـ . أرسل سليمان باشا منشورا إلى أعيان الصعيد يتضمن الأسباب التى ادت إلى أن يعهد بحكم الصعيد إلى سليمان بك أحمد زعماء المماليك ، وهو فى آخره يوصيه خيرا بمراعاة العدل والاصلاح ارضاء للسلطان وشفقة بالرعية الذين ذاقوا

---

(٢) كان سويلم متخفيا فى خيمة امرأة بدوية فدل عليه بعض الأعراب فقتله المماليك وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح ثم علقوها على باب زويلة فارتفعت الحرب — أما أحمد بك الجزار ففر ثانية الى السلم ، وأما أولاد سويلم فعفا عنهم على بك بعد توسط اسماعيل بك وأبى الذهب وعاشوا كآحاد الناس . الجبرتى جـ١ ص ٣٣٥ ، ٣٤٩

الأمرين من ظلم العرب ، وبعرب هواره حتى يألفوا الحكم فى ثوبه الجديد (١) .

* * *

ولما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وتمهد السبيل لسيادة المماليك وأخذ سنجق جرجا يتجه ببصره إلى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية أكثر من الاهتمام بأمور الصعيد ، وأصبح الوجه القبلى منفى المتمردين والمغضوب عليهم وكان هؤلاء فى حاجة إلى سواعد العرب ومالهم ليستعينوا بهم على منافسيهم بالقاهرة ، بدأ النفوذ يعود تدريجا إلى عرب هواره .

وبدأ هؤلاء يناصرون حزبا على آخر ويهتمون بالأحداث السياسية التى لم تعد تقتصر على القاهرة بل شملت القطر من شماله إلى جنوبه واضحوا بذلك قوة هائله خطيرة ترجح الكفة التى يضمون اليها (٢) .

* * *

وما كاد القرن الثامن عشر الميلادى ينتصف حتى انتهت زعامة عربان الصعيد إلى شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى . وبقدر ما كانت هيبة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الاعجاب بشهامته وتقدير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذه .

وأضحت سلطته مطلقة فيما بين جرجا وأسوان ، وفى مقابل ذلك كان يرسل الميرى بانتظام خلاف ما كان يهديه الى الباشا وشيخ البلد بالقاهرة ، وكشاف الأقاليم التى يحكمها (٣) وبينما كانت بقية القطر ترزح تحت أعباء الظلم والاستبداد

---

(١) نقل هذا على باشا مبارك عن فرمان ذكره عثر عليه فى كتاب لم يقف على اسمه ولا اسم مؤلفه ، الخطط التوفيقية جـ٩ ص ٩٤

(٢) Norden: Vayage D'Egypte . . , T.1 p. 197.

(٣) الجبرتى جـ١ ص ٣٤٣

وتئن من جراح النزاعات ، وتعانى الأرض ضروب الاهمال والبوار كانت مصر العليا الشمالية تعج بالخـــيرات ، وتنعم باوفر قسط من الاهتمام والاستثمار ، ويتمتع أهلها بهدوء شامل وأمن مقيم ، وكل ذلك بفضل عبقرية همام .

وأن الإنسان ليدهش وهو يستمع إلى تغنى الجبرتى بخصال همام الحميدة ، وماجبل عليه من كرم غمر كل من قصدة . ويكفى أن تعرف ان الخـــدم كانوا يهيئون أمر الفطور من طلوع الفجر فلا يفرغون من ذلك الا ضحوة النهار ، ثم يشرعون فى أمر الغذاء من الضحوة الكبرى إلى قريب العصر ، ثم يتدبرون فى أمر العشاء فلا يفرغون من ذلك الا بعد العشاء وهكذا . . . « ولا يكاد المرء يصدق ما أورده الجبرتى عن امواله واملاكه وما ملكت يداه مما يقصر دونه الحصر ، ويخطئه العد ، ولا يمكن أن يتناهى اليه الخيال لولا ماعرف به الجبرتى من الميل إلى الدقة وعدم المبالغة ، ولولا أن الحوادث التى وقعت وروايات بعض الكتاب المعاصرين تؤيد تلك الحقيقة التى فاقت الخيال .

تكلم عنه المهندس جيرار Girard الذى جاء مصر بعد وفاته ، وهو أحد من ساهموا فى كتاب « وصف مصر » فقال « ان كان يصح الحكم على ادارة الشيخ همام على أساس الشهرة التى خلفها ، فأننا نجزم بأن مصر العليا كانت سعيدة فى عهد حكومته ، فلا يزال الأعيان والقضاة والسكان جميعاً ، سواء منهم المسلمون والمسيحيون يبجلون ذكراه ، ويتأسفون لانتهاء عهد الشرطة التى اقامها والرعاية التى كان يوليها للأعمال العامة والزراعة حتى اصبحت زاهرة .

وكان بكوات القاهرة يستغلون ذلك النبل العربى فى نفس همام إلى اقصى حدود الاستغلال ، فكانوا يستجيرون بحماه إذا نفوا إلى الصعيد ، ويستعينون بماله ورجاله إذا عزموا على العودة إلى القاهرة حيث المجد والسلطان . وكان نبله فى كل مره يأبى عليه الا أن يؤويهم ويجيرهم ويمدهم بحاجتهم من المال والرجال والعتاد ، وهذا هو السر فى أننا نقابل ذكر عرب هوارة فى جميع المحاولات

(١) Girard : p. 510.

الجـــدية التى كان يقوم بها بعض البكوات المنفيين بالصعيد لاستعادة نفوذهم بالقاهرة . وعلى هذا الاساس قبل همام سنة ١٧٦٦ (١١٨٠ هـ) أن يوفق بين صالح بك صديقه الحميم حاكم جرجا وبين على بك الذى كانت جميع الدلائل تشير إلى عظمته المستقبلة . فلما نجح فى مسعاه أمدهما بكل مايلزمهما من مال ورجال ، وبعد ان نجح الحليفان سنة ١٧٦٧ م فى دخول القاهرة والقبض على السلطة بعد فرار كشكش بك وخليل ، وما تبع ذلك من محاولة على بك التخلص من صالح بك ، مما أدى إلى قتله بسويقة عصفور ببولاق ، استنكر همام عمله هذا . وفطن إلى أنه لايقيم للعهود أو المواثيق وزناً ، وبدأ يوجس منه خيفة .

أما على بك فانه بعد أن تخلص من صالح بك ، وبعد أن استخلص الوجه البحرى من أيدى عرب اولاد حبيب والهنادى ، عزم على أن يزيل من الوجود شخصية همام الساحرة التى كانت تجتذب ولاء كل من صادفها من الأهالى أو العرب أو المماليك .

* * *

لم يكن همام يطمع فى زيادة مال ، ولم يكن يعمل لتوطيد نفوذه أو توسيع أملاكه ، ولم يكن على بك يخشى منه هذا ، وانما كان يرجو بالقضاء عليه أن يستولى على الوكر الذى تنبت فيه الفتن . أراد أن يخرب الحصن الذى يستجير به المنفيون ، وأن يقضى على المورد الذى يمول منافس شيخ البلد .

ولم يكن همام بالضعيف الذى يجار عليه ، وهو الذى أجار على بك من قبل . ولم يكن بالأعزل الذى ينقصه السلاح أو الأتباع ، بل كان رجاله لايحصيهم العد وسلاحه يزيد على حاجته . ورغم كل هذه الاعتبارات لم يتوان على بك فى ارسال تجريدة بقيادة أبى الذهب لقتال همام بحجة أنه أنكر الاتفاق الذى كان قد عقده مع ابراهيم كخيا سنة ١١٤٩ هو مؤداه التنازل له عن التزام برديس وفرشوط(١)

---

(١) Volney. V.1. p. 117. ، الجبرتى جـ١ ص ١٨١

وما كاد أبو الذهب يقابل طلائع همام حتى اتفق الطرفان على أن يقتصر حكم همام على البلاد الواقعة قبلى برديس وبذا أخرجت منها جرجا عاصمة الصعيد (١) وكان ذلك فى منتصف رجب سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨)

عند ذلك أسرع على بك بتعيين أيوب بك حاكما على جرجا، وفى نفس الوقت عول على أن يستمر هذا الصلح فى تطهير الصعيد من جميع الأمراء والمماليك المنفيين ، فأرسل يشترط على همام أن يطردهم من البلاد التى فى حكمه مقابل اقراره لنصوص الاتفاق — واستشف همام نيات على بك وأيقن فى نفسه أن هذا العمل لن يكون الا خطوة تمهد (لشيخ البلد) بالقاهرة القضاء على (شيخ الصعيد) فجمع المماليك المنفيين ، والفارين ، واللاجئين واخبرهم بما اراد على بك ، وطلب منهم ان يخرجوا إلى اسيوط . ويتحصنوا بها فهى مفتاح الصعيد . ووعد ان يمدهم بالمال والرجال .

ولما زحف هؤلاء على اسيوط وجدوها محصنة ، حولها بوابات مسلحة بناها عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف من اتباع على بك . فلما امتنعت عليهم استعانوا بأحطاب جعلوا الكبريت والزيت فى رؤسها واشعلوها واحرقوا الباب وملكوا مفتاح الصعيد قبل وصول أيوب بك بقليل .

ولم ير أيوب بك من الحكمة أن يصطدم بمن سبقه الى أسيوط فأرسل الى على بك يطلب مددا .

* * *

ورأى على بك أهمية المعركة القادمة وخطورتها ، فالسيادة ستنتهى الى من يكتب له النصر فيها . لذلك جهز نجدة سريعة من المماليك والمغاربة وفرق الحامية على رأسهم خليل بك القاسمى وابراهيم بك بلغيا ومحمد بك أبو شنب وعلى بك الطنطاوى ، وزودهم بالمؤنة والذخيرة ، وأرسل فى أثرهم تجريدة شاملة من

(١) تصادف أن ولد لأبى الذهب ولد فى ذلك الوقت فأعلن همام تنازله عن برديس انعاما للمولود . الجبرتى ج ١ ص ٣٠٧

المماليك ، والمرتزقة من الدلاة والدروز والمتاولة والشوام ، وعلى رأسهم محمد بك أبو الذهب ورضوان بك ، ولما التأم جمعهم تقدموا واصطدم الفريقان خارج أسيوط (١) .

واشتد القتال حتى تقرر النصر لجيش على بك ، وقتل من اعدائه الكثيرون ، وفرت فلول المهزومين الى فرشوط حيث كان همام . ولكن أبا الذهب لجأ إلى الحيلة فراسل ابن عم همام ، وهو أبو عبد الله ، واستماله ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد حتى ركن الى تلك الأمنيه ، وصدق تمويه أبي الذهب وتقاعس وثبط عن القتال وخذل طوائفه . ولما أحس همام بحالة جيشه النفسية وخيانة أقرب الناس اليه مات كمدا قرب اسنا (٨ من شعبان سنة ١١٨٣ هـ — ١٧٦٩ م) وبذلك تقرر النصر النهائى لأبى الدهب .

وتعتبر معركة اسيوط فى نظرنا من احسم المواقع فى تاريخ على بك ، وهى ثانى المعارك الثلاثة الهامه التى اشرنا اليها . وهى التى اكدت له النصر ، فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع انحاء القطر المصرى .

---

(١) ميدان المعركة هوجبانة أسيوط الحاليه . غرب المدينة — الجبرتى ج ١ ص ٣٣٦

الفصل الثانى

انفراد على بك بحكم مصر

فرصة الحرب الروسية العثمانية — بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثمانى — انفراد على بك بالسلطة .

فرصة الحرب الروسية العثمانية ١٧٦٨ — ١٧٧٤

لم يكد على بك يفرغ من توطيد نفوذه فى مصر حتى اشتبكت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا التى عادت الى تحقيق سياستها التقليدية بالتوسع نحو بحر البلطيق غربا والبحر الأبيض جنوبا . وتدخلت فى أزمة العرش البولندى بعد خلوه بوفاة الملك فردريك أغسطس الثالث فى ٥ أكتوبر ١٧٦٣ . وقد أدى هذا التدخل الى أن تعلن الدولة العثمانية الحرب ضدها فى أواخر أكتوبر ١٧٦٨ .

ولكى تشغل الروسيا عدوها عن تكريس قوته لتلك الحرب ، وتعجزه عن التدخل الحاسم فى تلك المسألة ، قامت بدعاية واسعة ضد الدولة العثمانية فى ولاياتها الأوربية والأسيوية ، ونجح الدعاة الروس فى استغلال مساوىء الادارة العثمانية والنعرة الوطنية والدينية والمذهبية ، فبدأ لهيب الفتنة ، وانتظمت روح الثورة ولايات البلقان ، وماجت رومانيا بالثورة ، وتبعتها سواحل الأدرياتيك وتساليا والبلوبونيز والصرب والأفلاق والبغدان والجبل الأسود . ولم تكن الدولة العثمانية فى حاجة الى مايزيد انشغالها إذ كان لديها ماعجزت عن معالجته فى بلاد العرب ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد وأرمينية وطرابيزون . فإذا أضفنا

الى ذلك ثورات أملاكها الأوربية ، وفساد نظمها الداخلية ، ووهن قوتها الحربية دأركنا مدى عجزها عن الكفاح المنتج . حتى لقد اعتبر مؤرخو الترك تلك الحرب بمثابة « فتح جرح فى جسم الدولة فى وقت انتشر فيه القحط فى الممالك الشاهانية وكانت ادارة العسكر اسما بلا جسم (١)

وبينما كانت الدولة العثمانية تنتظر وصول الامدادات الحربية التى طلبتها من ولاياتها ، اسرعت روسيا فهاجمت الحدود العثمانية من جميع النواحى دفعة واحدة من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب . فخاضت جيوشها غمار المعارك على الدانوب ، وفى القرم ، وفى جورجيا ، وبلاد المورة ، بينما انتشرت اساطيلها فى البحرين الأسود والأبيض فهاجمت بلاد الأناضول وسورية وهددت مصر . وضيقت الخناق على البحرية العثمانية التى ارتدت إلى خليج جشمة وقضت على معظم وحداته (٧ يوليه ١٧٦٩) (٢) . وفى ذلك يقول المؤرخ العثمانى رسمى أحمد الكريدى « أرسل الروس سفنهم بطريقة لم يسبق لها نظير من بطرسبرج الواقعة فى نهاية بحر البلطيق الى مضيق سبته ، ومنه الى مياه المورة وبحر الارخبيل وكان هؤلاء فى نظر ارباب التجارب (من العثمانيين) جماعة من الكفار الموسومين بالجهل بمياه البحر الأبيض فتفاءلوا بأنهم سيصابون بمنه تعالى بزوبعة شديدة ويتفرقون . إلا أن الريح هبت بحكم الاستدراج مساعدة لهم فضيقوا الخناق على اسطولنا فى اول هجـــوم فى موضع يدعى جشمه أمام جزيرة ساقز وشتتوا شمله » (٣)

وفى الميادين البرية ذاق العثمانيون من مرارة الهزيمة ماجعل فلولهم ترتد عبر الدانوب ، وتخرج من القرم ، وتجلو عن الافلاق والبغدان وصربيا .

---

(١) جودت ج ٢ ص ٨٨

(٢) De Perceval : Precis de l'histoire de la Guerre. p. 86 & Nazarevski: Histoire de Romanov 1613–1918 : p. 227.

(٣) رسمى الكريدى . خلاصة الاعتبار . الفصل السادس سنة ١١٨٨. مخطوط تركى .

ومن خلال تلك الكوارث الحربية استشف على بك الكبير فى مصر انشغال الدولة العثمانية فى أوربا ، وارتباكها السياسى ، وضعفها الحربى ، وعجزها عن حفظ هيبتها ، فعول على استغلال تلك الفرصة لمصلحته الخاصة (١)

* * *

بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثمانى :

والتخلص من الباشا العثمانى قبل ذلك لم يمكن من مصلحة على بك ، فقد رأينا كيف اتخذه سندا فى كفاحه ضد العناصر المعادية ، ولكن حان الوقت للتخلص من ظل سلطته ، فاستصدر من الديوان أمراً بعزل الباشا . والى ذلك أشار الجبرتى بقوله انه « حصلت قلقلة من جهة والى مصر محمد باشا فانزلوه الى بيت احمد بك كشك وجرشوه فى سابع عشر رجب ١١٨٢ — اكتوبر ١٧٦٨ « وفى يوم الأحد غرة شعبان ، تولى على بك قائمقامية عوضا عن الباشا » (٢) . وقد ظل محمد باشا محجورا عليه حتى توفى فى أوائل سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) (٣) . وظل على بك قائمقام حتى آخر عهده ولم يعد يسمح للباشوات العثمانيين بدخول مصر .

وهناك خبر متواتر أول ما ذكره لوزنيان ١٧٨٣ ملخصه أن بعض منافسى

---

(١) يتبين لنا من وصف الرحالة بروس (Bruce v. 1; p. 39) لأول مقابلة له مع على بك فى يوليه سنة ١٧٦٩ ، مقدار الأهمية التى كان يعلقها البك على انشغال الباب العالى فى حربه مع روسيا قال « وحدثنى البك مباشرة عن حرب الأتراك مع الروس وسألنى عما إذا كنت قد بحثت من قبل — وكان يعتقد أنه عالم بالفلك — ما ستكون عليه نهاية تلك الحرب ، فأجبته أن ضعف الترك بدا واضحا فى جميع المعارك التى خاضوها برا وبحرا . فسألنى أيضا هل ستحرق القسطنطينية أم تسقط ؟ فأجبته لا هذا ولا ذاك ولكن سيعقد صلح بعد أن تسيل دماء كثيرة ولن يكسب أحد الطرفين كثيرا من هذه الحرب . فضرب إلبك كفا على كف وقال بالتركية « لا حول ولا قوة إلا بالله » ثم التفت إلى رزق الذى كان واقفا وقال له « لا شك فى أن ذلك سيكون من قلة حظنا ، ولكن ما قدر يكون أن الله بنا لرؤوف رحيم » .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٨

(٣) الجبرتى جـ ١ ص ٣٣٤

على بك حرضوا الباشا على كتابة رسالة إلى السلطان ضد على بك ، وانتهزوا فرصة الحرب الروسية العثمانية، وكتبوا إلى السلطان أن على بك انما جهز الجيوش التى طلبها الديوان ،لا لنصره السلطان،وانما لعاونة روسيا ، فلما وصلت الرسالة إلى الديوان بالاستانة صادفت ذلك التوتر الذى صحب اعلان الحرب ، فأرسل الديوان أمرا إلى الباشا باعدام على بك (أكتوبر ١٧٦٨) ثم تقص علينا هذه الرواية كيف علم على بك بتلك المؤامرة ، وأنه أرسل مملوكه على بك الطنطاوى على رأس جماعة من أخلص مماليكه فى ملايس الأعراب ،فكمنوا فى طريق الرسل واستخلصوا منهم الفرمان ، ثم قتلوهم ودفنوهم فى رمال الصحراء . . وأمر على بك بجميع الديوان ، وتلى الفرمان واستصدر الأمر بنفى الباشا وتغيرت سياسته نحو الدولة العثمانيه منذ ذلك الحين (١) .

هذا ونشير إلى أن هذه الرسالة المزعومة ليس لها وجود فى السجلات الرسمية بدار المحفوظات العمومية بالقلعة ، ولم يرد خبرها فى مذكرات الرحالة الانجليزى جيمس بروس الذى كان بالقاهرة حينئذ ، وعلى اتصال بعلى بك . وبرغم الاحتمالات العديدة فأنه سواء صح أمر ذلك الفرمان أم ظهر فساده ، فالواضح أن على بك وجد الفرصة الملائمة لتحقيق أغراضه ومحورها انفراده بحكم مصر .

وقد علق المؤرخ شارل « Charles-Roux على الحالة الجديدة بقوله » وقد أدت هذه الحركة فى مصر إلى حالة تكافىء الاستقلال، فتم بذلك تطور بدأ تدريجيا منذ عشرات السنين كان من مظاهره اغتصاب بكوات المماليك المتوالى لأمور الحكم حتى صار حقيقة واقعة . » (٢)

وبعد طرد الباشا لم يبق فى مصر من مظاهر السيادة العثمانية سوى الخطبة والعملة والخزنة السنوية . أما الأولى فقد بقيت كما هى ،وأما الثانية فقد أحدث

---

(١) lusignan : Sect. I . pp. 95–96

(٢) Charles-Roux : Autour d'Uue Route. p. 20

فيها تغييرا طفيفا منذ ١٧٦٩، وأما الخزنة فقد أوقف ارسالها ابتداء من سنة ١٧٦٨. أشار إلى ذلك الجبرتى فى ترجمته الأمير قاسم بك أبى سيف فى وفيات ١٢١٧ هـ. فذكر أنه كان مملوك عثمان بك أبى سيف الذى سافر بالخزنة ومات بالروم وذلك فى سنة ١١٨٠ هـ. « وهى آخر خزنة رأيناها سافرت إلى اسلامبول على الوضع القديم . »(١)

* * *

أغراض على بك من الحركة

ويذكر جمهرة المؤرخين الأوربيين أن غرض على بك من حركته كان الملك والاستقلال منتهزا فرصة انشغال الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، (٢) بل أن قنصل فرنسا السيودى جونفيل M. De Jonville استشف نيات على بك ، فكتب يقول أن غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة .

ويذكر الجبرتى أن على بك « كان يقول لبعض خاصته أن ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الاكراد ، مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة وهم مماليك بنى قلاوون إلى آخرهم كانوا كذلك وهؤلاء العثمانية أخذوها بالتغلب ونفاق أهلها وينوه ويشير بمثل هذا القول بما فى ضميره وسريرته » (٣)

* * *

وقد رد مؤرخو الترك على دعوة على بك بمثل ما أورد جودت قائلا « وكان عندما يسمع أخبار الجراكسة يقول ، هم كانوا مثلنا مماليك فصاروا ملوكا وكان يطلق على نفسه أنه الملك برقوق . وعلى تقدير أنه بالدسيسة التى اكتسبها كان معادلا لبرقوق فلا يصح أن تقاس الدولة القلاوونية بالسلطنة السنية فى شرفها وعظم

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٨

(٢) Hammer : Trad. Hellert. p. 160

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٨١

شوكتها وشأنها . ولم يدرك هذا المجازف ان كثيراً من امثاله غلبت عليهم الشقاوة فعصوا الدولة العليـــة ، ثم وقعوا فى شرك العقاب والجزاء الذى يستحقونه » (١)

* * *

بقى لنا ان نتساءل : هل حصل على بك حقيقة على الاستقلال ؟ كل الأدلة والشواهد والوثائق الرسمية تدل على انه لم يعلن استقلاله او انفصاله عن الدولة العثمانية ، فقد كانت هناك بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، وبقيت هذه الروابط رغم ما كان بينهما من حروب .

ولا يصح لنا أن نرجع بقاء هذه الروابط الى ما ذكره بعض المؤرخين من أن الحرب الروسية التركية فاجأت على بك قبل أن يتم استعداداته ، فأنه نجح فعلا فى جميع مشروعاته . وانما بقاء هذه الروابط يرجع الى أن الحركة لم تكن سوى ثورة أوسع نطاقا وأعمق غورا من سابقاتها . وكان غرضه منها الأنفراد بالحكم فى مصر ولا بأس من بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية .

تولى على بك قائمقام عقب عزل محمد باشا يوم الأحد غرة شعبان ١١٨١ (أكتوبر ١٨٦٨) كما هى العادة ، ولكنه لم يسمح لأى وآل عثمانى بدخول مصر بعد ذلك ، فقد أشار الجبرتى الى أنه « منع ورود الولاة العثمانية(٢) » وعزز ذلك المؤرخ العثمانى جودت بقوله أن على بك « عزل محمد باشا والى مصر وأنزله عن منصبه . . . ولم ترسل الدولة بعده واليا على مصر مدة أربع سنوات(٣) »

غير أن صاحب كتاب « تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية » السيد أحمد بن زينى دحلان وغيره كالشرقاوى يقولون بحضور الوالى العثمانى أحمد باشا

---

(١) جودت ج ١ ص ٣٤٥
(٢) الجبرتى ج ١ ص ٣٨١
(٣) جودت ج ١ ص ٣٤٥

وأنه توفى قبل تولى عمله رسميا (١) . هذا ولم يشر لوزنيان ولابروس، وهما من معاصرى على بك ، الى حضور باشا عثمانى فى عهده منذ ذلك الحين .

* * *

وقد رجعنا فى تحقيق تلك المسالة الى الوثائق الرسمية بدار المحفوظات العمومية بالقلعة فتبين لنا أن جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كانت تصدر بتوقيع باشا مصر أصبحت تصدر باسم «حضرة على بك ميرلوا قائممقام محروسة مصر» ، كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون أى أشارة إلى الباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١ — ١١٨٦ (١٧٦٨ — ١٧٧٢) (٢)

وثمة دراسة لدفاتر « أصول مال اسكلها ومقاطعات . . . » ، « ايرادات مال الكمارك . . . » عن السنوات من ١١٧٤ — ١١٩٠ (١٧٦٠ — ١٧٧٦) . أى منذ تولى على بك شياخة البلد للمرة الأولى حتى بعد وفاته بثلاث سنوات لاحظنا فيها ما يلى :

(ا) أن التزام « مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير الشامى ، كان لباشا مصر يغل إيراده لنفسه . والسجلات من سنة ١١٧٥ إلى ١١٧٩ تنص على انه كان « در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرت وزير مصطفى باشا » .

ثم كان لحمزة باشا حتى سنة ١١٨١ ، فى سنة ١١٨٣ اصبح « درعهدة حضرت وزير افخم محمد باشا محافظ مصر حالا » .

(ب) ولكن ابتداء من سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) اى منذ بدء ثورة على بك لم يعد يذكر اسم الباشا واشير إليه رمزا فقط «در عهدة دستور مكرم مشير مفخم حضرت وزير . » ونشير إلى ان هذا الأمر لم يحدث مطلقا من قبل .

---

(١) أحمد بن زينى دحلان ص ١١١ ، عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين ص ٥

(٢) تقاسيط الالتزام للسنوات من ١١٨١ هـ الى ١١٨٦ هـ محفظة رقم ١ ملفات من ٢٠ — ٣٠ مخزن تركى . دفاتر قيد الفرمانات أرقام ١ ، ج مخزن تركى .

(ح) وابتداء من سنة ١١٨٤ حتى ١١٧٨ اى عند اكتمال الثورة لم يعد يذكر اسم الباشا حتى ولم يشار اليه قطعيا . وهذا يعزز الراى القائل بأن على بك منع قدوم الباشوات العثمانيين .

(د) لم يعاد ذكر الباشا فى الوثائق إلا سنة ١١٩٠ ، وأشير اليه بلقب « حضرت وزير ذو روشن ضمير »[١] .

ونحن لو عللنا تلك الظاهرة باحتمال تدوين دفاتر الالتزام قبل رسو المزاد على ملتزم معين ، فانه لا يعقل أن يتكرر ذلك فى عدة سنوات متتالية ، وفى تلك الفترة بالذات . ونحن لو سلمنا بهذا فان مقاطعة جمرك البهار لم تكن تطرح للمزاد إلا اسما لأنها كانت من حق باشا مصر ، فكل باشا موجود يكون ملتزما لذلك الجمرك وله دخله .

كما يذكر بعض المؤرخين أن على بك كان يلقب نفسه « سلطان مصر وخاقان البحرين » و يذكر بعضهم أن شريف مكة هو الذى منح على بك هذا اللقب فى رمضان ١١٨٣ (١٧٦٩) ، ونحن لا نستبعد الشطر الثانى ، فربما منحه الشريف عبد الله هذا اللقب اعترافا منه بفضل على بك فى إعادته على شرافة مكة ، ولكننا لا نذهب مذهبهم فى اعتبار على بك سلطانا شرعيا أو حتى أنه كان مستقلا استقلالا تاما .

أدلتنا على ذلك عدة أمور ثابتة . أولها أن على بك لم يلقب نفسه فى يوم من الأيام بهذا اللقب. ولم تصادف فيما كتبه المؤرخون المعاصرون أو المحدثون ، سواء منهم المصريون أو العثمانيون أو غيرهم أية اشارة إلى استعمال هذا اللقب[٢] .

بل أن الجبرتى يذكر حادثة لها دلالتها قال «ومما اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان (١١٨٣ هـ — ١١٦٩ م) بجامع الداودية فخطب الشيخ

---

(١) دفاتر التزامات الكمارك ، مال اسكنها ومقاطعات . . . الخ من سنة ١١٧٥ رقم ٣٠/٢٥ إلى سنة ١١٩٠ رقم ٣٠/٥٣ مخزن تركى بدار المحفوظات بالقلعة .

(٢) تحدثوا عنه دائما باسم على بك أو الجن على أو على بك الكبير أو الأمير على المصرى أو بولوت قبان .

عبد ربه ، ودعا للسلطان ، ثم دعا لعلى بيك فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح وقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال نعم ، أنت سلطان وأنا أدعو لك . فاظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى . فقام بعد ذلك متألما من الضرب وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ (١) » .

تدلنا هـذه القصة على تالم على بك واعتباره اتخاذ هذا اللقب بالنسبة له كبيرة من الكبائر رغم ما كانت بينه وبين السلطان العثمانى من نفرة وقطيعة ، وقد ذكر الجبرتى أن على بك كان « لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى والرياسة الكبرى (٢) » وهو يعنى بذلك ما ذكره فى موضع آخر من أنه كان « منفرداً فى سلطنة مصر لا يشاركه مشارك فى رأيه (٣) » . والشاهد الثالث الوثائق الرسمية والنقوش فمنشوره إلى أهل دمشق ١١٧١ ، اتخذ لنفسه فيه اللقب الذى كان يتخذه منذ ١٧٦٨ وهو « قائمقام مصر » . وقد اطلعنا على عدة وثائق رسمية لعهد على بك منها فرمانات ، وتقاسيط التزام ، وأختام ، فلاحظنا أن على بك لم يلقب نفسه بسلطان أبداً . ففى أحد تقاسيط الالتزام الممنوحة بتاريخ ١٧ ربيع ثانى سنة ١١٨٥ نص على أنه بامر « حضرت على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر حالا » .

وجميع هذه التقاسيط من سنة ١١٨٣ الى ١١٨٦ ممهورة بخاتم على بك وهو على شكل زهرة دائرية قطرها حوالى خمس سنتيمترات حفت بكأسها ستة أقسام على شكل ورق الزهر تتضمن نظما مشرقا كله كناية عن النصر والرفعة والعلا يقرأ هكذا :

---

(١) ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم بدارهم وكسوه واستسمحه : الجبرتى جـ ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨٠

(٣) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١

١ — بشاير عز مقبل وسعادة ٢ — ونصر على الاعدا ومجد مؤثل
٣ — لمنصور الحاظ السعادة والعلا ٤ — فلا يخش من كيد فكوكبه على
٥ — فلا زال يرقى فى الكنانة صاعدا ٦ — (غير واضح فى جميع النسخ)

ويتوسط ذلك كله دائرة نقش عليها اسمه « هو علي » « نقشا مزدوجا (١)

ولم نعثر على أى لقب لعلى بك غير ماتقدم ، إلا فى النقش الذى أمر به فى قبة الامام الشافعى فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة والف (١١٨٦ — ١٧٧٢) وجاء فيها عن على بك أنه « المتوكل على الله مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه على الاسم والقدر والجاه الحاكم بأمر الله . (٢) ولا زال هذا النقش موجودا الى يومنا هذا .

أما المسألة الرابعة فهى قاطعة فى نفى مسالة الاستقلال ، تلك هى مسألة النقود ويجمل القول فيها انه فى سنة ١١٨٣ هـ الموافقة ١٧٦٩ م ، بعد أن انفرد على بك بحكم مصر أمر بسك عملة فضية من ذات العشرين ميديا (عشرينية) ، جعل على أحد وجهها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية حينئذ (٣) . وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر سنة ١١٨٣ » مع ملاحظة ان حرف الباء فى (ضرب) استخدم كحرف (ى) لكلمة « على »

التى زيدت فى ذلك النوع من العملة على النحو الآتى : « ضرب على »

---

(١) تقاسيط التزام لسنة ١١٨٥ محفظة رقم ١ ملف ٢٨ ورقة رقم ٥
(٢) اطلعنا على نص النقوش حول رقبة قبة مسجد الإمام الشافعى .
(٣) كانت الطغراء تقرأ هكذا « سلطان محمد مصطفى بن احمد خان عز نصره » .

يستحق الاعتبار هنا ثلاثة أمور أولها أن أحد وجهى العملة خصص لطغراء اسم السلطان العثمانى ولهذا دلالته ، وثانيهما أن على بك أمر بنقش اسمه فى الوجه الآخر اشارة إلى توليه منصب القائمقام ، وبعد أن كانت تلك العبارة تقرأ « ضرب فى مصر » أصبحت فى رسمها الجديد تدل على أنها ضربت بأمر على بك . وثالثها أن على بك أمر بنقش سنة ١١٨٣ هـ اشارة إلى السنة التى ضربت فيها وتخليداً للسنة التى نجح فى أثنائها فى الانفراد بالسلطة .(١)

هذا وليس أدل من ذكر اسم السلطان على أن على بك ، رغم منعه ارسال الخزنة ، وسكه عملة تحمل طابعا مميزا جديدا ، ورغم طرده الباشا ، ومنع غيره من مباشرة سلطتهم الشرعية لم يعلن انفصاله عن الدولة العثمانية .

ولا عبرة لما جاء فى بعض المصادر من أن ذكر ١١٨٣ هـ على العشرينية دون ذكر السنة التى تولى فيها السلطان مصطفى الثالث وهى ١١٧١ (١٧٥٧) يعتبر دليلا على اعلانه الاستقلال ، فانه بعد عامين اثنين أى سنة ١١٨٥ هـ الموافقة لسنة ١٧٧١م أصدر عملة ذهبية أخرى من فئة أربعين ميديا نقش على وجهها طغراء السلطان مصطفى الثالث كالعملة السالفة الذكر ، وعلى الوجه الثانى نقش عبارة ضرب فى مصر ١١٧٤ » وهى سنة تولى السلطان . واستخدمت الباء فى (ضرب) ياء لكلمة (على) كالعملة السالفة أيضاً . ولكنه فى الوقت نفسه زاد فوق كلمة « ضرب » رقم (٨٥) وهو اختصار سنة ١١٨٥ وهى عام سكها على النحو الآتى

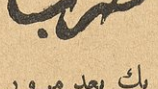

وهكذا نرى أن على بك بعد مرور ما ينوف على سنين من انفراده بالسلطة

---

(١) Deherain p. 136 & Samuel Bernard, pp. 362—367 & Marcel: T. I. p. 255

كان لا يزال يعترف بالسلطان العثمانى ، بل وأثبت سنة توليته وهى ١١٧١هـ بدل ١١٨٣هـ وهى بدأ ثورته . (١)

وفى الوقت الذى قرر فيه على بك عزل الباشا العثمانى وعزم على الانفراد بحكم مصر ، أرسل يخبر صديقه ظاهر حاكم عكا ، وجعل ذلك مقدمه لتحالف حربى منتج . ولما لم يكن السلطان فى حالة تسمح له بتكريس أى مجهود خاص للقضاء على مثل تلك الحركات الثورية ، فانه عهد إلى باشا الشام فى دمشق ببذل كل ما يمكنه للحيلوله دون اتصال جيوش على بك بقوات حليفة ظاهر (٢) .

---

(١) تولى السلطان مصطفى الثالث ١٨٥٧ م (١١٧١هـ) وتوفى ١١٧٤م (١١٨٧ هـ) وصور النقود توجد فى Samuel Bernard, P. 469 (أرقام ١٦ — ١٨ — ٢٠) ، Marcel : Egypte. V. P. 255.

(٢) شمعدانى زاده : مرعى التواريخ حوادث ١١٨٧ ترجمة حمزة .

الباب الثالث

حركة التعديل والاصلاح

الفصل الأول

سياسة على بك الداخلية

الادارة الحكومية والأمن — التزام الأراضى
النقود — السياسة المالية وإدارة الجمارك
المنشئات — الجيش

عندما قبض على بك أزمة على الحكم فى مصر ، كان قد مضى على البلاد قرنان ونصف وهى تعانى شتى ضروب الاهمال : مزقتها المنازعات ، وأقحطها جشع الحكام ، واناب المجتمع ، وخاصة فى القاهرة نوع من الانحلال ، ونشط اللصوص وقطاع الطرق يساهمون فى اكمال الفوضى ويهددون الأمن تهديداً خطيراً . وأيقن على بك أن الضامن الأول لنجاح حركته اعتمادها على أساس متين ثابت فى الداخل ، وانه كلما كان داخل البلاد ينعم فى بحبوحه الأمن كلما اطمأن إلى نجاح مشروعات الخارجية ، فنشط فى هذا السبيل وكان له فى كل ميدان غزوة . أما التعديلات التى قام بها على بك فكان قصده منها تركيز السلطة فى يده أو تمهيد السبيل لذلك ، وسنذكر أهم تلك التعديلات فيما يلى :

الادارة الحكومية والأمن :

ولم تكن بين نواحى الاصلاح المتعددة التى كانت البلاد متعطشة لها ناحية

أولى باهتمامة أكثر من تنظيم الادارة واقرار الأمن . وكان على بك قد قبض على أمور الحكم بنفسه قائمقام الباشا نظريا (١) . وأبقى عبد الله كتخدا محمد باشا المعزول ١٧٦٨ معينا له . وكان كاتبه ومشيره فى تصريف الشئون العربية الشيخ محمد الهلباوى الدمنهورى (٢) . وفى الشئون الرومية (التركية) مصطفى افندى

---

(١) مجموعة قيد الفرمانات رقم ١ مخزن تركى . دار المحفوظات ، وثيقة رقم ٥ ملف ٢٨ صفحة رقم ١ من نفس المخزن .

(٢) أورد الجبرتى (ج ٢ ص ٥٤ — ٥٦) مثالا لقصائد الشيخ محمد الهلباوى فى مدح على بك آثرنا أن ننقل إحداها وفيها إشارة لبعض ما جريات الأمور فى عصر على بك .

أقسم صدقا بالكتاب المجيد ... بأن حامى مصر فرد سعيد
للحكم والعدل غدا راجعا ... ولا تقل ذلك رجم بعيد
ذكراه فى الأقطار قد أنبتت ... جنات واسعات وحب الحصيد
مليك احسان لمن يرتجى ... صاف لورد أحرارهم والعبيد
أغاث ملهوفا أعان الذى ... عانده الدهر بعزم شديد
يصغى إلى المظلوم حتى إذا ... تم مقالا مده ما يريد
كم أوقعت أحكامه ظالما ... فى لجة الذل وحق الوعيد
أمن أهل الفقر من خيفة ... فأصبحوا فى طيب عيش رغيد
أراحهم من كل شركما ... أبعد عنهم كل باغ مريد

* * *

أمسى معاديه شقيا ومن ... والاه بالاخلاص فهو السعيد
لو كان للسيف مضا عزمه ... ما كانت النار تذيب الحديد
أو كان يحكى السهم آراءه ... لم يخطىء الأغراض رامى البعيد
حاز كمالات فلم يحصها ... نطق وقد فاز بوصف حميد
لطفا واسعا فاندى سطوة ... وهمة عليا وقصدا سديد

* * *

أضحى به دين الهدى عاليا ... مؤيدا شرعا مجيداً مفيد
بعزمه مستنصرا قاطعا ... بسيفه آمال باغ عنيد
يا حافظ الوادى الحجازى قد ... دان لك الاقصى فسل ما تريد
أنت مليك العصر لا شك فى ... قولى وقولى ما عليه شهيد
وباسمك الأقطار قد شرفت ... فأنت بين الناس بدر وحيد

الأشقر ، ومنجمه نعمان افندى . أما الادارة المالية فكان يقرم عليها المعلم رزق القبطى « الذى بلغ فى أيامه من العظمة مالم يبلغه قبطى » .

أما الديوانان (العمومى والخصوصى) فقد بقيا كهيئة استشارية للأول ، وتنفيذية للثانى بعد استبعاد بعض أعضائها ، ولكن رأى على بك كان الرأى الأول والأخير . ثم أقام مملوكه محمد بك أبا الذهب رئيسا للشرطة فى القاهرة فدخلت المدينة فى نطاق من الادارة الحازمة (١). وبعدأن اسندت قيادة الحملات الخارجية الى أبى الذهب ابتداء من سنة ١٧٦٩ ، اسند على بك رياسة الشرطة إلى سليم أغا قائد أوجاق اليكيجرية وجعل سليمان كخيا مساعدا له (٢)

ويرى بعض المؤرخين أن الأوجاقات العثمانية قد انتهى أمرها إلى الانحلال عدا أوجاق « المستحفظان » أو اليكيجرية ، عهداليهم أبو الذهب أعمال الشرطة والحفظ (٣) . غير أن دراسة دفاتر التزامات الأراضى فى عهد على بك تدلنا على وجود ملتزمين لبعض القرى من ضباط الأوجاقات العثمانية ومن اتباع هؤلاء الضباط من فرق المستحفظان والعزبان والجاوشان والتفتكجيان والكوكلويابان والمتفرقة والجراكسة (٤) .

ولا شك فى أن وجود هؤلاء قاطع بوجود هذه الأوجاقات ودليل على خطأ رأى المؤرخين السابق الذكر . ولكننا فى نفس الوقت نلاحظ من دراسة « دفتر

= سيرتك الحسنى بها سارت الركبـــــان فى الدنيا فدم فى مزيد
وافتك أعياد تسر الورى شرقا وغربا قربها والبعيد
وألسن الأنس لقد أرخت ذكر على الجاه عيد جديد

(١) Combe : l'Eg. Ottamane. P. 45

(٢) Savary : lettres.. T. 2. P. 228

(٣) مثلهم Cattaui : Histoire des Rapports. p. 24 وغيره .

(٤) دفاتر التزامات الولايات . وجه بحرى سنة ١١٨١ رقم ٧/٢١ وسنة ١١٨٥ رقم ٧/٥٥ وسنة ١١٨٦ رقم ٧/٦١ . وجه قبلى سنة ١١٨٤ رقم ٧/٤٤ وسنة ١١٨٧ رقم ٧/٦٦ مخزن تركى .

أصول مال اسكلها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة ١١٧٥ هـ تابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥ مخزن تركى « أن أوجاق مستحفظان كان يتولى التزام اسكلها اسكندرية ورشيد وتوابعها ، مقاطعة اسكلة بولاق ومصر القديمة وتوابعها ، ومقاطعه اسكلة دمياط وتوابعها ، ومقاطعة اسكله برلس .

وان أوجاق عزبان كان يتولى التزام « مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراكب وسمسارية بذر قرطم وغيره » وان أوجاق جاوشان كان يتولى التزام « مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر . »

ولكن هذه الدفاتر عن السنوات من ١١٨١ الى ١١٨٦ ، وهى الشاملة عصر على بك لم تشر الى اسم ملتزم او هيئه للالتزامات السابقة ، ومعنى هذا احد احتمالين : فاما ان هذه الالتزامات اديرت مباشرة لحساب على بك ، وفى ذلك اشارة الى جلاء الحامية عن ميدان الالتزام تبعا لسياسة اضعافهم . واما ان هذه الدفاتر حررت قبل انتهاء عملية المزاد ، وعلى كل حال فالثابت وجود الأوجاقات بعد ان قام على بك بحركة تطهير واسعة للتخلص من العناصر المعادية بين صفوفها.

وتبع الحفظ نظام « الخفر » أى الحراسة الليلية بمداخل القاهرة . أقام على بك أربعا من البكوات ، كلا بدوره ، فى العادلية ، مصر القديمة ، بولاق ، القبة ، عليهم حفظ الأمن فى تلك الجهات ليلا ، وحماية المدينة من نهب الأعراب « فيركبوا كل يوم فى فجر النهار ، ويدوروا حول القاهرة ، ويتبصروا على العرب القشاطه ، وأولاد الزنا ، ومأذونون بقتل من يقع فى أيديهم من أولاد الحرام[1] » .

وبهذا انتظمت أفراد الشعب جميعا — لا فرق بين صنجق ، أو كاشف ، أو فرد من الشعب ، مصريا كان أو عثمانيا — قواعد حازمة أساسها حفظ الحقوق ، وحرمة التعدى ، وعدم الاخلال بالأمن ؛ حتى حق لعلى بك أن يقول

---

(١) اجابة حسين أفندى عن السؤال السابع — أنظر « مصر عند مفرق الطرق » للأستاذ شفيق غربال بك . مجلة كلية الآداب ص ١٧ (مايو ١٩٣٦) .

« ان غايتى الوحيدة أن يأمن الناس على أموالهم حتى ولو بسطوا بها أيديهم ، وأن يأمنوا حرمة منازلهم ، ولو تركوها مفتحة الأبواب فى أثناء الليل[١] » .

وكان المتبع طوال العهد العثمانى أن يبقى البكوات الصناجق فى صنجقياتهم من ثلاثة أشهر إلى أربعة كل سنة ، والكشاف فى كاشفياتهم لادارتها فى خلال ثمانية أشهر من السنة، أى من يناير إلى أغسطس ، ويمضون بقية العام فى القاهرة كما ذكر الرحالة فانسليب Vansleb ، الذى جاء إلى مصر فى مارس ١٦٧٢ ، وغادرها فى أكتوبر من العام التالى[٢] .

ولكن رغم أن عدد البكوات كان لا يقل عن اثنين وعشرين صنجقا فى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) كما نستدل من دفاتر الجراية[٣] . فأن الرحالة المستكشف بروس Bruce الذى وصل القاهرة فى أول يولية ١٧٦٨ ، وأقام بها عدة أشهر قبل أن يستمر فى رحلته إلى الحبشة وأعالى النيل ، اخبرنا أنه لم يجد بالقاهرة سوى ستة بكوات خلاف على بك[٤] . اتخذهم شيخ البلد معاونين له بالقاهرة ، ولم يعد يسمح لبقية البكوات أو الكشاف بمغادرة صنجقياتهم دون أمر القائمقام .

نصل مما سبق إلى أن الأدارة المحلية أصبحت تشعر بوطأة الحكومة المركزية التى اتسمت بشىء كثير من الحزم والقسوة فى الحق ، ولم تعد كما كانت من قبل مطمعا للبكوات المتنافسين .

الأقسام الأدارية :

ليس فى المصادر المعاصرة التى بأيدينا شيئا ذا غناء يوضح تقسيم مصر الأدارى فى ذلك العهد . انما لدينا مصدران تكلما فى ذلك الموضوع أحدهما

---

(١) Sonuiui : T. 2. P. 133

(٢) Vansleb : P. 27

(٣) دفاتر الجراية والعليق ٥٥ مخزن تركى .

(٤) Bruce (1768) T. 1 Chap. 11. P. 26

الرحالة الانجليزى رتشارد بوكوك Richard Pococke الذى زار مصر فى سبتمبر ١٧٣٧ ، أى قبل ثورة على بك بنحو ثلاثين سنة ، والثانى الفرنسى استيف Estéve مدير الادارة المالية فى أثناء الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ، أى بعد قيام على بك بحركته بنحو ثلاثين سنة .

ورغم أن التعديل قد تناول أكثر من مرة أقسام مصر الادارية من حيث العدد والمساحة ، أو اعتبارها صنجقيات أو كشوفيات ، أو من حيث شغل الصنجقيات بكشاف حسب الظروف السياسية السائدة فى القاهرة فى تلك الأحيان ، فأن اتفاق المصدرين السابقين إلى حد كبير ، وسكوت المصادر المعاصرة لعلى بك عن ذكر حدوث أى تغيير يشجعنا على اعتبار التقسيم الذى ذكراه صالحا لذلك العهد .

أما مدينة القاهرة فكانت مقر حكومة على بك يشرف عليها من الداخل محمد بك أبو الذهب ، ومن يتبعه من رجال الادارة كالوالى « أو زعيم مصر وهو الذى يتبصر فى القاهرة ، وخدمته إزالة الخواطى وهم النساء الفاحشات ، ووقوع أولاد الزنا ، وعليه جرف الخليج الناصرى فى كل سنة » ومنصبه أشبه بمنصب حكمدار البوليس الآن .

كما كان يشرف عليها رجال المستحفظان من ضباط وجنود . ويشرف على مدخل المدينة ليلا « البكوات الخفراء » .

اما الموانى : الأسكندرية ، ابو قير ، دمياط ، رشيد ، السويس فقد بقيت حكوماتها كما هى ، واجرى بها على بك بعض تحصينات ليس لها وجود الآن . كان اخصها بالاسكندرية ودمياط ، ولعله كان يتوقع غزوة بحرية عثمانية كتلك التى جاءت بعد وفاته بعدة سنوات فى عهد مراد بك وإبراهيم بك ١٢٠٠ هـ بقيادة القبطان حسن باشا .

أما باقى القطر فكان مقسما إلى ولايات أو صنجقيات يحكمها بكوات أو صناجق ، وكاشفيات يحكمها مماليك بدرجة كشاف .

أما الولايات فكان عددها خمسة : أربعة فى مصر السفلى وهى الغربية (وعاصمتها المحلة الكبرى) ، المنوفية (وعاصمتها منوف) ، وهما بين فرعى النيل ثم الشرقية (أو المنصورة) شرقا ، البحيرة (عاصمتها دمنهور) . أما الصنجقية الخامسة فكانت جرجا بمصر العليا(١) .

وأما الكاشفيات فكان بعضها تابعا لصنجقية ، كما كانت هناك كاشفيات قائمة بذاتها خارجة عن نفوذ الصناجق . وهذا بيان الكاشفيات :

عددها جميعا أربعة وعشرون كاشفية : ثلاثة بمصر السفلى وهى بلبيس ، وقليوب شرق الدلتا ، ثم الطرانه (التابعة لصنجقية البحيرة) غرب الدلتا . وسبعة بمصر الوسطى وهى اطفيح (شرق النيل) ثم الجيزة والفيوم وبنى سويف والمنيا والاشمونيين ومنفلوط (غرب النيل) وكلها تتبع صنجقية جرجا . وأربع عشر كاشفية بمصر العليا وهى منفلوط وأسيوط وأبو تيج وطما وأخميم (وهذه شرق النيل) ، فرشوط وبرديس وبهجورة وهو وقنا (وهذه شرق النيل) وقوص (شرقا) واسنا (غربا) وابريم (شرقا وغربا) والواح أى الواحات (٢) .

الأمن :

ولم يكن فى استطاعة المصريين أن يتذوقوا نعمة الأمن وهم مهددون بسطو الأعراب ، الذين تفننوا فى طرقهم التلصصية وتهربهم من ايدى الشرطة . لمس خطرهم جميع الرحالة الذين حلوا بمصر ووصموهم بأنهم « اعظم لصوص العالم واساتذة الاسيان فى فن السلب والنهب » . وكانوا يحتالون فى الفرار بأن يهجموا على المدن ليلا هجوما خاطفا وهم عرايا وقد دهنوا أجسامهم بالشحم حتى يصعب القبض عليهم ويسهل فرارهم سباحة فى النهر .

---

(١) دفاتر الجراية والعليق عين ٥٥ مخزن تركى بدار المحفوظات .

(٢) Estève : Memoires PP. 301 & Pocoke : Livre. 1. P. 161 .

واشتهرت بعض القرى بأنها اوكار لأولئك « العرب القشاطه » مثل دجوة وسندنهور وغيرهما .

أراد على بك أن يعالج مشكلتهم التى بقيت شوكة فى جنب الإدارة المصرية، وهددت الأمن منذ بداية العصر العثمانى ، فكافحهم فى الوجه البحرى منذ سنة ١٧٦٠ بتجريد حملة على رأسها أبو الذهب وأيوب بك ، ثم بفضل جهود عبد الله بك صنجق البحيرة وأحمد بك الجزار ثم اسماعيل بك ، حتى قضى على سويلم وغيره من زعماء وشيوخ الحبايبة والهنادى ١٧٦٩ على نحو ما أسلفنا فى موضع سابق (١) .

كما تمكن فى العام التالى ١٧٦٩ من القضاء على سلطة أعراب الصعيد وزعيمهم همام ، وجردهم مما كان بيدهم من نفوذ سياسى وإدارى .

هكذا ذاق المفسدون وقطاع الطرق من العرب وأهل الحوف (شرق الدلتا) « والنشالين والحراميـــة والعيارين . . » بأس الحاكم الجديد « فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام وانكمشوا عن قبائحهم وإيذائهم بحيث أن الشخص كان يسافر ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت فى الغيط أو البرية آمنا مطمئنا لا يرى مكروها أبداً (٢) » .

وأكسب ذلك على بك اللقب التركى الذى اشتهر به وهو « بولوت قپان » أى « القابض على الغيم » أو « اللاحق بأبناء السوء » (٣) .

العـدالة :

وتمكن على بك من تطهير الأداة الحكومية من بعض الشوائب التى تأصلت فيها مثل قبول الرشا (٤) . وعمل على استقلال القضاء « فتتبع المفسدين والذين

---

(١) حوادثهما بالجبرتى جـ ١ ص ٣٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١ .

(٣) lusignan P. 105 وجودت جـ ١ ص ٣٤٢ .

(٤) ذكر الجبرتى بعضا منها كمظالم أولاد سعد خادم ضريح السيد البدوى ، وضمان البغايا والحواطى ... الخ جـ ١ ص ٣٠٦ .

يتداخلون فى القضايا والدعاوى ويتحايلون على أبطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات فعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة ولم يرع فى ذلك أحداً سواء كان متعمما أو فقيها أو قاضيا أو كاتبا . »

ولم يقصر هذا الاهتمام على القاهرة وحدها ، بل شمل « غيرها من البنادر والقرى » يذكر الجبرتى فى حوادث شوال سنة ١١٨١ أن على بك قبض على الشيخ يوسف بن وحيش (وضربه علقة قوية ونفاه إلى بلدة جناح فلم يزل بها إلى أن مات وكان من دهاة العالم وكان كاتبا عند عبد الرحمن كتخذا القازدغلى وله شهرة واسعة فى السعى وقضاء الدعاوى والشكاوى والتحيلات والمراهنات والتلبيسات وغير ذلك . » وفى حوادث رجب سنة ١١٨٢ ذكر أن على بك قبض على «الشيخ أحمد الكتبى المعروف بالسقط وضربه علقة قوية ونفاه إلى قبرص وكان المذكور من دهاة العالم يسعى فى القضايا والدعاوى يحمى الباطل ويبطل الحق بحسن سبكه وتداخله [١] »

وقد حدث فى سنة ١١٧١ هـ (١٧٥٧م) ، أى قبل تولى على بك مشيخة البلد لأول مرة إبثلاث سنوات أن نزل بمصر مطر سالت منه الأودية « وأعقبه الطاعون المسمى بقارب شيحه الذى أخذ المليح والمليحة [٢] » أى سيل أهلك الحرث وطاعون أهلك النسل . ثم حدثت مجاعات فى أثناء عهده بين سنتى ١٧٧٠ و ١٧٧٢ بسبب نقص فيضان النيل فى هذين العامين واضطرار الحكومة فى الوقت نفسه إلى تموين الجيوش الغازية فى بلاد الحجاز والشام .

جابهت حكومة على بك بسبب ذلك أزمة من أزمات التموين الحادة انتهزها بعض التجار فرصة للكسب غير الشريف . عند ذلك نشطت الحكومة ، وألقى العبء على عاتق الوالى موسى أغا ، المحتسب (مفتش الأسواق) وإبراهيم كتخدا

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١ ، ٢٥٩ ، ٣٠٨

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٢٥٠

جدك ومن بعده موسى أغا (١) . فكان المحتسب « يخرج على الخيل وأمامه تابع يحمل ميزان ومثاقيل عيارية ويتبعه عدد من الشرطة يحملون العصى . »

ووقفت الحكومة من هؤلاء التجار موقفا حازما أساسه توفير المواد الغذائية الضرورية لأفراد الشعب بأسعار معقولة ولم تتوان عن أخذ الجشعين أو المطففين بالعقاب الشديد . كما أمرت حكام الأقاليم بتشجيع الفلاحين على استثمار أرضهم لتعويض النقص (٢) .

---

(١) موسى أغا من أتباع على بك عينه فى ذلك المنصب بدلا من الوالى السابق سليم أغا الذى ولاه فرقة المستحفظان — أما قائد المستحفظان السابق عبد الرحمن أغا فقد ولاه على بك قيادة التجريدة الأولى لتأمين طريق الشام ، منتصف رجب ١١٨٤ (١٧٧٠) أنظر الجبرتى ج ٤ ص ٣٠١ ، ٣٠٩

(٢) ذكر التاجر لوزنيان ، من حاشية على بك وصفا للعقوبات التى تذرعت بها الحكومة لمحاربة غش التجار وجشعهم فى ذلك الحين ملخصها : أنه إذا اتهم خباز يبيع خبز ينقص عن الوزن المحدد وضبطه الوالى — الذى يطوف يوميا بالأسواق للتفتيش على المواد الغذائية والموازين والمكاييل — فان كل خبز الفرن يصادر ، ويوزع مجانا على الفقراء ، ثم يسمر الخباز على باب محله من أذنه أو من كلتا أذنيه لمدة اثنى عشر ساعة . وإذا تكرر منه ذلك للمرة الثانية يوزع خبزه ، ثم يجلد بضربه من مائة إلى ثلثمائة جلدة على قدميه أو ظهره ، ثم يلبسونه فوق صدره لوحا مثقلا بالرصاص ، ويطوفونه بشوارع المدينة الرئيسية حتى تخور قواه. وإذا تكرر منه ذلك للمرة الثالثة قطعوا رأسه .

ثم قال أن الجزار الذى يبيع لحما فاسد أو يغش فى وزنه يوزع ما عنده من لحوم صالحة على الفقراء مجانا ثم يربط إلى عمود معرض للشمس المحرقة طول النهار بعد أن تعلق فى أنفه قطعة فاسدة من اللحوم ، ويبقى هكذا حتى يخرج منها دود تسقط على رأسه ، وعليه بعد ذلك أن يدفع غرامة مالية . وإذا تكرر منه ذلك يعاقب بعقوبة بدنية ويدفع غرامة مالية باهظة . أما إذا عاد للمرة الثالثة حكم عليه بالإعدام .

أما النشالون واللصوص فكان جزاؤهم الاعدام دون محاكمة اذا قبض عليهم متلبسين بجرمهم بينما كانوا يشهرون بلصوص المنازل ، فيوضع الواحد منهم عاريا على جمل ، وتوثق رجلاه ببطن الجمل حيث يطاف به فى أهم شوارع المدينة وخلفه الحراس بأيديهم المشموع المحرقة يسلطونها على جلد المجرم فتلهب ظهره وصدره ، حتى إذا ما ذابت الشموع ووصل إلى قرة ميدان (الميدان الأسود) أعدموه بين سخط المتفرجين .. الخ

Insignan : A History of the Revolt of Ali Bey. . . pp. 61—63,

ونحن نرى — على خلاف ما ذهب إليه الرحالة فولنى Volney من أن على بك ركن إلى الدعة فذهب النعيم بريحه وعهد بتصريف أمور الحكم إلى مماليكه المقربين (١) — أنه كان شديد الحرص على أن يتعرف على كل شيء بنفسه ، ويطلع على كل صغيرة وكبيرة حتى يشعر الحكام بعين رقابته ، وأنه كان سمح الصدر ، فتح بابه للجميع حتى يتأكد بنفسه من أن الشعب ينعم بالأمن والعدل اللذين أرادهما له .

وفى ذلك يقول الجبرتى أن على بك « كان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج فى الفهم إلى ترجمان أو أمين يقرأ له الصكوك والوثائق ، بل يقرأها بنفسه كالماء الجارى ولو كان خطها سقيما ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها ثم يمضيها » (٢) .

وقد لاحظ الرحالة الانجليزى بروس Bruce ١٧٦٨م أن على بك كان كثير الاهتمام بأمور حكومته الجديدة ، يصرف أمورها بنفسه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنه انهمك فى ذلك حتى تأثرت قوة بصره إلى حد ما . وأصبح مريضا معودا (٣) .

التزام الأراضى والأموال المقررة :

رغم أن حماس على بك وشدة اهتمامه بالعدل والإصلاح دفعا الكشاف إلى الاهتمام بأمور الزراعة ، من حيث الرى والصرف وإقامة الجسور وحفر الترع والقنوات ثم حمايتها وحماية غلاتها ، وأملاك الفلاحين من عبث البدو فإن

---

(١) Volney : T.1, p. 134.

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١ .

(٣) يقول بروس أنه زار على بك فى القلعة إجابة لطلبه فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء فوجده يقرأ ورقة قربها كثيرا من عينه وكان منهمكا فى القراءة لدرجة أنه لم يشعر بوجود الرحالة بل ونسى أنه طلب منه الحضور Bruce V.1. qp, 40—42.

سياسته فى منح الالتزام وفرض الضرائب لم تكن خالصة لصالح الشعب ، إنما اضطرته إليها الظروف ودفعته إليها دفعا .

فان السياسة التى اتبعها لاضعاف الأوجات العثمانية انتهت بهزالها وضعف نفوذها ولما كان معظم ملتزمى الأراضى قبيل عهده من ضباط تلك الفرق ، فقد نزعا منهم وجعل الالتزام وقفا على مماليكه وأنصاره سواء كانوا من الشعب أو رجال الأوجاقات وهكذا أبقى نظام الالتزام .

أما أهم فروع الالتزامات فكانت التزامات الأراضى والتزامات الجمارك ومتعلقاتها . وقد فضلت أن أذكر أمثلة واقعية مستخرجة من السجلات الرسمية لأغراض سنشير إليها . كما أنى فضلت أن تكون الأمثلة شاملة وذلك بإيراد مثل تاريخه متقدم على عصر على بك ، والثانى فى أواخر عصره حتى تكون المقارنة وافية بالغرض .

أولا — التزامات الأراضى :

(ا) دفتر التزامات ولايات الوجه البحرى عن سنة ١١٧٠ رقم ٦/٢٤ مخزن تركى

« مقاطعة قرية بيشة رزينة وغيره » در عهدة (أى فى عهدة) مراد عبد الله بايع على كوكلويان ٣ ط (٣ قيراط) وبشير عبدالله يك ط ومناو عبدالله ٣ ط و بلال أغا عبدالله ٦ ط وبشير أغا عبدالله ٦ ط وأحمد عبد الله تابع السيد أحمد تفنكجيان ٣ ط بر وجه التزام (أى على وجه التزام) قرية بيشة رزينة .

«غيره» مال مضاف وقف ابراهيم باشا برای مهمات سايرة در راه حج شريف (أى لأجل طريق حج شريف) فى سنة التون ١٢ بحساب بارة ٣٠٠

فى سنة التون	٦٩٦
بحساب بارة	١٧٤٠٠
	٢٠٨٨
	١٩٤٨٨

يكون أقلام ٢ (أى مقاطعتان ماليتان) فى سنة ٧٠٨ التون بحساب بارة .

١٧٧٠٠
٢٠٨٨
٦٤٩٦
١٠٣٩
٢٧٣٢٣
١٠٩٣
٢٨٤١٦ صيفى باره ٢٧٣٢٣ شتوى باره

ويلاحظ أن هذا الدفتر يبين نصيب كل ملتزم من القراريط فى قرية بيشة رزينة التابعة لولاية الشرقية . وقد أشير فى آخر الحساب الختامى إلى مقدار ما يدفع فى كل من الموسمين الصيفى والشتوى . مع ملاحظة أن الألتون يساوى ٢٥ بارة .

(ب) دفتر التزامات «الولايات القبلية عن سنة ١١٧٠ رقم ٦/٢٣ مخزن تركى» مقاطعة قرية اتليدم (مركز ملوى) وكفرها درعهده اسماعيل عبد الله تابع رضوان جوربجى بحق ٣ ط ، وصالح عبد الله ٦ ط ، وحسن عبد الله تابع يوسف جاوش ٢ ط ، وصالح عبد الله تابع مصطفى بك ٢ ط ، وحسن عبد الله تابع كاشف يك ط ونصف ط ، وعلى عبد الله تابع كاشف يك ط ونصف ط ، وأحمد أغا تابع سليمان بحق ٢ ط وأحمد سليمان ٣ ط ومحمد يوسف ولدش يك ط ، وعنبر أغا عبد الله ٢ ط.

فى سنة التون ١١٤ بارة ٨
بحساب بارة ٤٦٠٨
٥٥٢ مضاف
٥١٦٠
١٧٢١ فرط
٦٨٨١
٧٢٥ مضاف
٧١٥٦
٢٨٦ مضاف
٧٤٤٢

عنها التسليمات (أى سبق دفعها من المال الميرى)

٢٤٨٨	بارة	فى ٣ ص (صفر)	١١٧١
٩٣٢	«	فى ٣ جا (جمادى الأولى)	١١٧١
١٨٦٨	«	فى ٢٢ ج (جمادى الآخرة)	١١٧١
٦٢٢	«	فى ٢ ل (شوال)	١١٧١
٣١١	«	فى ٢ ل	
٦٢٢	«	فى ٣ ذا (ذو القعدة)	١١٧١
٦٨٤٤	«		
٥٣٦	«	فى ٧ ذا	١١٧١
٧٣٠٨			

(ج) دفتر التزامات الوجه البحرى سنة ١١٨٥ رقم ٧/٥٥ مخزن تركى

« مقاطعة قرية الغابة (ولاية الشرقية) درعهدة أحمد رضوان شراقوه ٦ ط ، وأيوب عبد الله تابع رضوان شراقوه مستحفظان ٦ ط ، وحسن عبد الله تابع مصطفى ٦ ط وحسن عبد الله تابع على تسلم نصف ط وربع ط ، وابراهيم عبد الله تابع رضوان جاوش مستحظان يك ط ونصف ط ، وعثمان نام وبشير أغا عبد الله بروجه اشتراك ٣ ط وربع ط وثمن ط ، وسرور أغا تابع رضوان جاوش مراد ربع ط وثمن ط بروجه التزام قيد نفده .

فى سنة التون ٢١٨ باره ٢٤

بحساب باره ٥٤٧٤

٦٥٧

١٥٣٢

٣٠٧

٣١٩

٨٢٩٠

٣٣٢ مضاف سنة ١١٧٤

٨٦٢٢ صينى

من مقارنة السجلات الثلاثة السابقة يتضح لنا اشتراك أكثر من ملتزم واحد فى القرية الواحدة ، وثانياً أنه فى أواخر عهد على بك كان هناك بعض ملتزمين للقرى من ضباط الأوجاقات ، وثالثا أن مبلغ الالتزام الأصلى كان ينمو بزيادة عدة مضافات كانت رسمية قبل عهد على بك . ففى المثل الأول كان مبلغ الالتزام الأصلى ١٧,٤٠٠ بارة ، زيد عليه مضاف حتى أصبح ١٩,٤٨٨ بارة ، وفى المثل الثانى كان المبلغ الأصلى ٤,٦٠٨ بارة فظل يزيد حتى كان يصل إلى قدر الأصل مرتين فأصبح ٧,٤٤٢ ، وهكذا الحال فى المبلغ الثالث وهو فى عهد على بك كان أصله ٥,٤٧٤ فأصبح ٨,٦٢٢ باره سنويا .

ولكن الملاحظة التى تهمنا بصفة خاصة أنه بعد المضاف الذى فرض سنة ١١٧٢ لم يقرر مضاف آخر حتى سنة ١١٨٦ وهى آخر عهد على بك وذلك يعد نخراً له

ثانيا : تقاسيط الالتزام

وبهذه المناسبة رأينا أن ننقل صورة تقسيطى التزام أحدهما فى سنة ١١٧٥ (١٧٦١) على عهد مصطفى باشا والثانى سنة ١١٨٥ (١٧٧١) فى عهد على بك وهو مهور بخاتمه الخاص .

١ — وثيقة رقم ٢ ملف رقم ١٩ محفظه ١ مخزن تركى

« مقاطعة قرية منية بدر سلسيل بحق ٢ ط ونصف ط تابع ولاية منصورة در عهده يوسف عبد الله تابع سليمان جاوش قازطاغلى كه حالا بروجه التزام قيد شده عن أول توت الواقع فى ٩ ص (صفر) ١١٧٥ أدات شده كه عن مصالحة سليمان شراقوه مستحفظان ملتزم قرية مزبورة بحق ٥ ط عن التزامن ٢ ط ونصف ط بمزبور بروجه مصالحه داده وقيد شده مزبورة بابيورلدى شريف حضرت وزير روشن ضمير صدر أعظم سابق مصطفى باشا محافظ محروسة مصر حالا . المؤرخ در بالاى قائمـــة مزاد الواقع فى ٢٣ ذى ١١٨٥ بأمر حضرت وزير دام إجلاله »

قربه مزبوره بحق ٢ ونصف ط
قطعة ١ فى سنة التون . . . .
بحساب باره ١٠٥٣ قديم
١٢٧ مضاف
٤٨ فرط
٤٩ مضاف
١٢٧٧
٥١ مضاف درسنه ١١٧٤
١٣٢٨ شتوى

سنكه ملتزم مزبورة سن أشبويه يكه ديربلان تقسيط ديوانى موجبنجة قرية مزبورة بحق ايكى قيراط مذكورك مصالحة سندن التزامكه ديربلوب كركوركه متصرف أولوب اوزركه اداسى لازم كان مال ميرى وقت وزمانيله ديوانه ادا وتسلم ايليوب ظلم وتعديدن بغايت احتراز اوزره اولاشن ،

« خاتم الباشا » تحريراً فى التاريخ المزبور ٢٣ ذى الحجة ١١٧٥

والشطر الأخير من التقسيط هو النصيحة التقليدية التى يوجهها الباشا للمتزمين وتعريبها

« أنت أيها الملتزم المذكور ، أنه بموجب هذا التقسيط الديوانى المعطى لك ، قد أصبحت القرية المذكورة فى التزامك بحق قيراطين ونصف قيراط من مصلحة المذكور ، فبناء عليه تصرف فيها ، وعليك أن تؤدى وتسلم المال الميرى المفروض عليك فى وقته مع التحرز من الظلم والتعدى » .

ب — محفظة رقم ١ ملف رقم ٢٨ وثيقة رقم ٥٠ .

« مقاطعة قرية منشأة دهشور بحق ٢ ط تابع ولايت جيزة در عهده أحمد جلبى ولدش كه حالا بروجه التزام قيد شدة عن أول توت الواقع فى ١٩ جا (جمادى الأولى) سنة ١١٨٤ ادات شدة كى عن فراغ يوسف عبد الله تابع على

ولدش ملتزم قرية مزبورة بحق ١٩ ط به حصة اسن بمزبور ٢ ط فراغت گرده وقيد شده برمودة بابيورلدى شريف حضرت على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر حالا المؤرخ دربالاى عرضحال فارغ المزبور الواقع فى ١٧ ذى (ربيع ثانى) سنة ١١٨٥ .

بأمر حضرت قائمقام بك دام عزه .

قرية مزبورة بحق ٢ ط قطعة ١ فى سنة التون .

بحساب بارة	٢٤٨١٥	قديم
	٢٩٧	مضاف
	٩٢٦	فرط
	١٤٨	مضاف
	١٥٤	مضاف سابق
	١٦٠	« سنة ١١٧٤
	٤١٦٦	موقوف الى زمان صيفى

ويتلو ذلك النصيحة التقليدية السابقة مع زيادة نص « رعايا وبراياتك حفظ وحماية سيله مشغول ومقيد أولوب » أى « وأن تكون منشغلا ومقيدا بحفظ وحماية الرعايا والبرايا » .

يتضح لنا من دراسة التقسيطين السابقين وهما مثلان من آلاف التقاسيط ما يأتى :

١ — أن على بك أبقى نظام الالتزام السابق لعصره دون أى تغيير .

٢ — وأنه أجلى عناصر الحامية عن ميدان التزام الأراضى الى درجة ما ، ولم يعد يسمح بذلك إلا لمن والاه منهم وتأكد من اخلاصه .

٣ — أن آخر « مضاف » على أراضى الالتزام كان فى سنة ١١٧٤ أى فى أول عصر على بك ، ولم تزد عليه أية رسوم أخرى شرعية حتى نهاية عصره

خلافا لما ذهب اليه المؤرخون من أن حاجته الشديدة الى المال جعلته يثقل كاهل الفلاح بعدة ضرائب ، وأن « المضافات » أصبحت شرعية فى عهده . (١)

ولكى يضمن على بك أن يتمتع الفلاح بشىء من العدل وتتمكن الحكومة من تحرى الدقة فى تحديد رسوم الالتزام ، قام بعدة اصلاحات فى مقياس النيل جنوبى جزيرة الروضة (٢)

غير أن سياسة على بك فى جمع المال لم تكن قائمة على أساس اقتصادى عادل ، فعند ما كان يشعر بحاجته الى المال كما حدث ١٧٧٠ (١١٨٤ هـ) وقت تجهيز حملات الشام كان يتغلب على العقبة المالية باحدى الطرق الآتية :

أولها : مصادرة أموال من يشك فى ثرائهم من غير مريديه ، كما فعل فى تلك المناسبة فطلب حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجى وباش قلفة واسماعيل أغا الزعيم وآخرين وصادرهم فى نحو أربعمائة كيس (٣) .

ومنها فرض قدر من المال على أهل الذمة من اليهود والأقباط (٤) ، وزيادة مقدار الضرائب على أفراد الشعب فيخبرنا الجبرتى مثلا أنه ، عمل دراهم على القرى وعمل على كل بلد مائة ريال وثلاثة ريال حق طريق ، ولم يبال بما لحق الناس من شدة جعلتهم يضجون بالشكوى ، طالما كانت زيادة ضرائب مال الكشوفيه تتبعها زيادة ميرى مال الكشوفية الذى يدفعه الكشاف للخزانة

---

(١) lancret : PP. 255—250 & Cirard PP. 585—588 & Combe : PP. 96—17

(٢) على باشا مبارك . الخطط التوفيقية . ج ١٨ ص ١٩

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٥١ — وقلفة تحريف العربية خليفة وهو الوكيل أو معلم الصنعة أو الكاتب ذو مرتبة رئيسية . وباش قلفة معناها هنا ضابط حسابات أفندية الروزنامة ، يقيد جميع ايراد مصر ومصروفاتها ، ويحتفظ بسجل مال الكشوفية ، ويعطى سندا إلى الملتزمين عند ما يدفعون الميرى — والزعيم أى والى القاهرة وهو رئيس شرطتها ، ولكنه تحت رياسة أغا اليكچرية .

(٤) فرض على الأقباط ١٠٠,٠٠٠ ريال ، وعلى اليهود ٤٠,٠٠٠ قبضت بسرعة .

العامة (١) . ومنها أيضا أنه كان يأمر رزق بسك عمله جديدة يوزعها على مماليكه(٢) .

هذا وينبغى أن نشير الى عدم وجود تعارض بين فرض دراهم على القرى وبين عدم فرض مضافات جديدة ، فالمضاف كان يفرض على الملتزم ، وهذا يجبيه من الفلاحين فى كل موسم (الصيفى والشتوى) فهو عبء ثابت ليس له مبرر ، وقد وضحنا أن على بك عدل عن هذا السبيل .

أما الدراهم التى كانت تفرض على القرى فكانت حسب الحاجة ، فهى ليست دائمة ، كما أنها كانت تفرد على جميع أهل القرية : فلاحين وتجارا ومن إليهم فيقل نصيب الفرد ويخف العبء . وقد فضل على بك هذا الأمر على ذاك .

النقود المصرية والعملة الأجنبية المتداولة فى مصر :

استمر سك العملة فى دار ضرب النقود بالقلعة فى أثناء العصر العثمانى ، وكانت تسك اما من الذهب أو الفضة أو النحاس ، فى سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة .

أما النقود الذهبية فكانت المحبوب (أو السكوان) وقيمته ١٨٠ نصف فضة واجزاؤه الزرمحبوب أو النصفيه ، ثم ربع المحبوب او الربعية والزنجيرلى وقيمته ٢٠٠ نصف فضة تقريبا ، الفندقلى (او المجر المصرى) وقيمته ٢٥٠ نصف فضة تقريبا .

وكانت أقل النقود الفضية قيمة : البارة (٣) . (بالتركية ويسميها المصريون مصرية) مقدارها نصف فضة وهى الميدى (تحريف مؤيدى) . ومضاعفاتها ذات الخمس بارات (يسميها الترك بشلك والمصريون خمساويه) وذات العشرة بارات

---

(١) ينبغى أن نفرق بين مال الكشوفية وهى نفقات الادارة المحلية ، وميرى مال الكشوفية وهو ما يدفعه الكشاف للحكومة .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٣١٣

(٣) شاع فى عهد على بك تسمية الميدى بالبارة .

(أو نلك) وذات الخمس عشرة بارة (أونبشلك ، بالتركية ويسميها المصريون نصف صلدى) والقطعة ذات العشرين بارة (يارم قرش بالتركية أو نصف قرش بالعربية أو عشرينية) وذات الثلاثين بارة (وهى الصلدى) . ثم القطعة ذات الأربعين بارة وهى القرش أو الأصلانى (١)

أما النقود النحاسية فهى أجزاء البارة مثل الجديد ويساوى ربع بارة والمقصوص ويساوى ٨ جدد والمرادى ويساوى ١٢ جديدا ، والاخشا ويساوى ١٦ جديدا (٢).

ومنذ سنة ٩٢٣ هـ الموافقة ١٥١٧ م ، وهذه النقود يجدد سكها كلما تولى عرش السلطنة سلطان جديد ، فتسك باسمه . ولما كانت دار الضرب تحت إشراف الباشا العثمانى ، وهو الذى يصدر الاذن بسك العملة الجديدة سنحت الفرصة للجشعين من الباشوات بتزييفها ، أما عن طريق غش السبيكة ، أو عن طريق إنقاص سمك القطعة ذاتها . وتكرر ذلك كثيرا لدرجه أفقدت العملة ثقة الشعب المصرى ، فكان يطمئن فى الصفقات الكبرى إلى التعامل بالعملة الأجنبية المتداولة فى مصر أكثر من اطمئنانه إلى العملة المحلية .

وكان أكثر هذه النقود تداولا سكوانى البندقية أو البندقى ، دوقات المجر وهولندة (واشتهرت باسم بوكلب إشارة إلى الأسد المنقوش عليها) وهى من الذهب ، ثم العملة الأسبانية الفضية من جميع الفئات وخاصه التالير ، وهى الريالات الأسبانية وواحدها أبو طاقة (باتاك) .

وكانت القيمة السائرة لهذه النقود فى مصر تتغير من وقت إلى آخر ، ولكنها على كل حال كانت أزيد من قيمتها السائرة فى الخارج ، وليس لدينا بيان عن قيمتها فى عهد على بك (٣) .

---

(١) كانت المبالغ الكبيرة تقدر بالأكياس ، والكيس المصرى قدره ٢٥,٠٠٠ ميدى أو نصف فضة أو بارة ولم تكن النقود الذهبية شائعة الاستعمال إلا للتهادى .

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ١٤٧

(٣) كانت القيمة الاسمية لسيكوانى البندقية ودوقات المجر وهولندة فى مصر أزيد بخمس بارات من قيمتها الحقيقية . Iusignan, PP. 57—60

والتعديل الذى أحدثه على بك فى العملة المحلية تناول عيار سبيكتها ونقشها، فأنه أراد أن يعيد الثقة إلى تلك العملة ، فأعاد سك معظم القطع النحاسية (الجديد ومضاعفاته) ، والفضية (البارة ومضاعفاتها) — وزاد عيار السبيكة بزيادة مقدار المعدن الأساسى فيها بمقدار الثلث تقريبا .

وعلى أحد وجهيها أبقى نقش اسم السلطان « سلطان محمد مصطفى بن أحمد خان عز نصره » بالطغراء أما الوجه الثانى فقد سجل عليه اسمه بطريقة بارعة مستخدما لذلك حرف الباء فى كلمة « ضرب » بدل حرف الياء وهو الحرف الأخير من اسمه فأصبحت تكتب هكذا ضرب ع — غير أننا نلاحظ أن

السنة التى ضربت على قطع الفئات المختلفة كانت تختلف من فئة إلى أخرى : فمثلا على قطعة العشرينية (٢٠ بارة) نقش سنة ١١٨٣ هـ (١٧٦٨م) سنة ضربها وهى السنة التى تولى فيها قائمقام — وبعد عامين أى فى سنة ١١٨٥هـ (١٧٧١م) أصدر قطعا من ذات الأربعين ميديا (القرش) ونقش عليها عام ١١٧١ هـ على

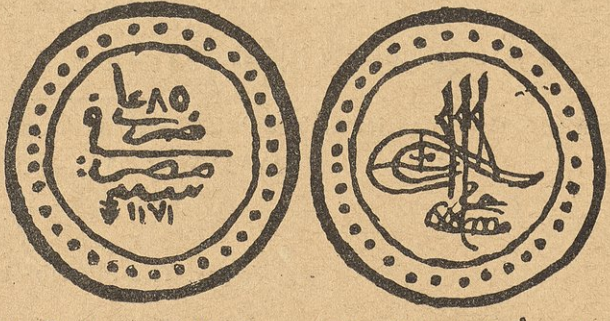

آنه عام ضربها مع أنه فى الواقع سنة تولى مصطفى الثالث عرش السلطنة ، وفى الوقت نفسه نقش رقم — ٨٥ — اختصار سنة ١١٨٥ فوق كلمة ضرب ٨٥ ع

وهى السنة التى ضرب فيها تلك العملة . (١)

والاضطراب الذى نلاحظه فى التاريخ المنقوش على العمـــله مرجعه إلى الاضطراب الذى صادف على بك فى تحديد مركـزه بأزاء السلطان العثمانى . وقد ناقشنا تلك المسألة فى الباب السابق .

ذكر الجبرتى أن النقود التى ضربها على بك كانت « قروش مفرد وبجوز وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف وخمسة أنصاف ونصف قرش ، وكان أكثرها نحاسا وعليها علامة على بك . (٢)

وقد ذكر أيضا فى حوادث سنة ١٢٣٥ هـ أن أول من أحدث ذلك النوع من القروش « على بك القازدغلى بعد الثمانين ومائة وألف ، عندما استفحل أمره وأكثر من العساكر والغلمان وأظهر العصيان على الدولة » . (٣)

وعند ما أمر أبو الذهب فى سنة ١٧٧٢ هـ (١١٨٦) ، بعد فرار على بك بابطال العملة المضروبة باسمه فقدت تلك العملة حوالى ٢٠ ٪ من قيمتها ، انتهز التجار الأجانب تلك الفرصة فصار يجمعها بعضهم ويرسلها إلى مرسيليا حيث كانوا يحولونها إلى سبائك ، وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة » (٤)

أما دار ضرب النقود فى القلعة فقد جعلها على بك تحت اشراف المعلم رزق (٥) . وكان يرمى من وراء ذلك إلى ثلاثة أغراض . أولها الحصول على

---

(١) Samuel Bernard : Des monnaies Arabes. PP. 363—367 & Marcel : P. 255 وصورها ص ٤٦٩ برقم ١٦ و ١٨ و ٢٠

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٣٧١

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ٣١٣

(٤) Volney. T. 2 PP, 116—117

(٥) كان يدير دار الضرب أغا يعينه ديوان الاستانة فيسك العملة بأمر الباشا كلما تولى سلطان جديد أو احتاجت مصر إلى عملة جديدة — وكان يدفع عن ذلك ميرى للدولة وعوائد للباشا والكتخدا ومرتبات لعمال الدار — ولكن يتقوى المماليك ، وعدم تسديدهم مال الميرى كاملا والعوائد المقررة للباشا تنازلت الدولة للباشا عن الاشراف على دار الضرب ليستعين بالربح الناتج من ذلك على تغطية مصروفاته — ثم باع الباشوات الربح مقدما لمشايخ البلد ، حتى قام على بك بحركته فاستأثر بأرباحها .

الأرباح الناتجة من سك العملة ، إذ كان صهر العمـلة الأجنبية وإعادة سكها أنصاف فضة (بارات) يعطى ربحا صافيا قدره ٣٠٪ [١] — والغرض الثانى ضمان عيارها . أما الغرض الأخير فكان إبرازها فى نقش جديد يدل على معنى انفراده بالسلطة ، وجعل دار الضرب تحت إشرافه مكنه من سك أى مبلغ يحتاجه منها .

السياسة المالية وإدارة الجمارك .

العامل الأساسى الذى وجه على بك فى سياسته المالية كان حاجته الملحة إلى المال للصرف على الحرب والأعمال الداخلية من تجريدات وجوامك عمال الحكومة . أما أهم القواعد التى أقام عليها تلك السياسة فكانت ثلاثه :

أولها الاستيلاء على عوائد الباشا وأوقاف الدولة والخزنة ، ثم تشجيع الأجانب على الهجرة إلى مصر مع الاستعانة بالعناصر الملائمة منهم وخاصة السوريين ، ثم تربيح التجارة .

وكان أول مابدأ على بك أن منع إرسال « الخزنة » السنوية إلى الاستانة ابتداء من سنة ١٧٦٩ وفى خلال أعوام ١٧٧٠ ، ١٧٧٢ ، فحصل بذلك على مبالغ لايستهان بها [٢] . يعنى ذلك أنه حصل على نحو ١٧٦٦ كيسا مصريا يساوى ٤٤ر١٥٠ر٠٠٠ بارة بمتوسط ٤٤١ ½ كيسا فى السنة [٣] .

---

(١) كان يحصلون على معادن السبيكة من ثلاثة مصادر: إما باعادة سك عملة قديمة أو باعادة سك عملة أجنبية أو بشراء تبر الذهب والفضة .

(٢) فى سنة ١٧٦٨ (١١٨١) أرسل على بك آخر خزنة إلى الاستانة عن سنة ١١٨٠ وكان أمير الخزنة عثمان بك أبو سيف وقد توفى بالأناضول قبل عودته (٢٨ شعبان ١١٨١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٨

(٣) الخزنة أو الخزينة فى الاصطلاح العثمانى مقدار ما يبقى مما يجىء بمصر بعد انفاق كل ما قرر السلطان انفاقه وبعد النفقات المستجدة — وكانت تتكون من مال الأراضى الزراعية وميرى الوظائف ورسوم الجمارك والجوالى . ولم يكن مقدارها ثابتا بل تعرض كثيرا للزيادة والنقص فمثلا كانت فى سنة ١٠٤٩ (١٦٨٣) أى ضعف العدد الذى ذكرناه أى حوالى ٩٤١ كيسا ، فى سنة ١٠٩١ (١٦٨٠) كانت حوالى ١٤٧,٥٨٨ جنيها مصريا تقريبا الخ أنظر الأمير عمر طوسون . مالية مصر ١٠٨ — ١١٥

ثم وضع يده على موارد الباشا المالية من ايرادات وعوائد أخصها مال جمرك البهار وعوائد على دخل دواوين (جمارك) الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر العتيقة ، وعوائد أمين البحرين وأمين الخردة وحلوان التزام البلاد التى يتوفى عنها أصحابها . كما أنه أدار دار الضرب لحسابه مباشرة (١) وتنظر على أوقاف دار السعادة .

ذكر الجبرتى فى حوادث ١٢٠٠ أن محمد باشا والى مصر عمل ديوانا فى شهر ذى القعدة « وخلع على مصطفى أغا ... وقلده وكيل دار السعادة كاستاذ استاذه وكانت شاغرة من أيام على بك »

« (وفيه) أيضا سمحوا فى جمرك البهار والسلخانة لباب البكيجرية كما كان قديما وكان ذلك مرفوعا عنهم من أيام على بك . » (٢)

ولجأ على بك الى التشديد فى جمع الضرائب المقررة من ميرى وعوائد مختلفة ثم فرض بعض الرسوم الجديدة .

ومن بين الرسوم التى استحدثها على بك رسوم « دفن الأموات » تدفع عند أبواب المدافن (٣) .

ثم أنه كان يضغط على الأغنياء عن طريق المصادرات أو فرض المغارم ، كما فعل مع يوسف لينى معلم دواوين الاسكندرية (جمارك الأسكندرية ورشيد وأبو قير) واسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق . فقد قبض على الأخير وصادره فى ٤٠ ألف محبوب وضربه حتى مات . وكان يفرض على القبط واليهود عموما آلاف الريالات (٤) .

---

(١) جمرك البهار للبضائع الواردة الى السويس وهو فى الطريق بين القاهرة والسويس ، وأمين البحرين هو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة ، وأمين الخردة هو المشرف على جميع الرسوم المفروضة على الملاهى .. الخ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١١٧ ، ١٢٠

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٥١

(٤) الريال = ٩٠ فضة أو بارة تقريبا وقد بلغ ١٦٠ فضة قبل الاحتلال الفرنسى .

ذكر الجبرتى أنه صادر كثيراً من التجار وغيرهم وأنه « هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء — بدء — ظهوره واقتدى به من بعده »

أما مع الأجانب فقد اتبع سياسة القروض الاجبارية ، يردها احيانا ويحتفظ بها غالبا . ولكن المغارم التى كان يفرضها من سبقه من أصحاب النفوذ بالقاهره ويضج منها التجار الفرنسيون خصوصا والأجانب عموما لم تعد تشغل بال هؤلاء قرر ذلك القنصل الفرنسى داميرات D'Amirat إذ كتب فى ٣ ديسمبر ١٧٧٠ يقول عن قرض طلبه على بك قدره مائة كيس « ويخيل لى أن غرض البك من ذلك لم يكن بحال من الأحوال تكبيد الجالية أى خسارة لأنه يحميها ويرعاها[١] »

ثم أنا نلاحظ أن الدفتر دار وهو رئيس الديوان الدفترى ، والرزنامجى رئيس ديوان الروزنامة ، وهما رأس الادارة المالية ، لم يكن لهما من الشهرة او النفوذ فى عهد على بك قدر ما كان للمعلم رزق القبطى الذى شغل الى جانب على بك مركز المستشار المالى بفضل معلوماته المالية والفلكية . وأصبح رزق موضع تكريم واحترام ومهاداة الجميع .

اشار الى ذلك قنصل فرنسا بقوله « ولدينا البراهين الأكيدة على انه من بين بطانة البك يستحوذ المعلم رزق — كاتبه الأول — على القسط الأوفى من ثقته وله التأثير الأكبر فى تسيير دقة الأمور[٢] .

أما إدارة الدواوين (الجمارك) فقد صادفت تغييرا هاما . كان بمصر أربعة منها ، وهى جمرك الاسكندرية ويتبعه جمرك رشيد وأبوقير للتجارة القادمة من أوربا وجمرك دمياط للتجارة الآتية من الشام ، وجمرك بولاق للبضائع ، الآتية من الوجه البحرى ويتبعه جمرك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد ، والرابع جمرك

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٠٩

(٢) Masson : His. du Commarce ... V. 111 P. 307

(٣) ذكرها Deherain : V. 5 P. 81

البهار (شرقى القاهرة فى طريق السويس) للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر.

وكان إيراد الجمارك الثلاثة الأولى يعطى « موجبات » لفرقة اليكيجرية أما إيراد جمرك البهار فكان من حق الباشا ، كما كانت رسوم الدواوين تباع عن طريق ديوان الروزنامة إلى الملتزمين ، وهؤلاء يعهدون بادارة كل منها إلى مدير باسم « جمركى أو أمين الجمرك أو معلم الديوان . »

والتغيير الذى أحدثه على بك كان فى الفئة التى تتولى إدارة الجمارك إذ كان هؤلاء من اليهود ثبتت أقدامهم فى تلك المراكز بما اكتسبوه من خبرة بمضى الزمن ، ولكنهم تغالوا فى فرض رسوم غير محتملة على التجار الاجانب انفردوا بها لحسابهم الخاص .

ولما كانت سياسة على بك المالية تقوم من ناحية على ترويج التجارة ، فقد قبض على معلم دواوين الاسكندرية يوسف ليفى ، ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى وصادر أموالهما وأعدمهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود ، وعهد بالأشراف على ادارتهـــا إلى رجال من السوريين المسيحيين الكاثوليك . وكان السوريون قد تسرب بعضهم بالهجرة إلى مصر يزاولون التجارة بعد أن شجعهم حزم على بك وعدله وتسامحه الدينى .

وكان أول هؤلاء السوريين من معلمى الجمارك «المعلم ميخائيل فرحات ثم المعلم ميخائيل الجمل ثم المعلم يوسف بيطار .

يذكر لنا الخورى بولس قرالى أن معلم دواوين مصر السورى كان يعين بنى جلدته لجباية المكوس الجمركية ، كما كان يشترى لحسابه التجارة الواردة إلى مصر ثم يوزعها بالجملة على التجار بواسطة عملاء من السوريين ، وأن الحكومة كانت تضع سلطتها تحت تصرفهم ، ومن هنا نشأت أهمية هذا المركز من الناحيتين الاقتصادية والادارية « وقد سمح هذا المركز للسوريين ، الذين جاءوا إلى مصر قليلين ضعفاء أن يتمكنوا منها فى وقت قصير ويتخذوا لهم فيها مركزا محترما عاليا . وتكاثروا حتى بلغ عددهم فى أواخر حكم على بك فى القاهرة وحدها نحو ثلاثة آلاف شخص. »

ثم توسعوا فى التجارة الداخلية وبعض فروع التجارة الخارجية « واستقلوا بها ولم تستطع الجالية الأفرنجية مع ما كان لها من النفوذ ، ولا اليهودية مع ما كان لها من الدهاء أن تستردها منهم (١) . » وهكذا نجد بواكير الهجرات السورية إلى مصر فى عهد على بك الكبير وبتشجيعه .

ويغلب على الظن أن على بك لم يتبع سياسة الالتزام فيما يختص بالجمارك بل ادارها لحسابه هو فحصل بذلك على ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين مليونا من البارات كل سنة (وقد رأينا أن نذكر فيما يلى ثلاثة أمثلة لالتزام الجمارك مستخرجة من السجلات الرسمية لذلك العهد .

(ا) الأول فى سنة ١١٧٥ أى فى أول عهد على بك بشياخة البلد

(ب) والثانى ستة ١١٨١ (١٧٦٧) قبيل انفراده بالحكم

(ج) والثالث سنة ١١٨٥ (١٧٧١) فى أواخر عهده

وقد استخرجناها من الدفاتر الثلاث الاتية على التوالى :

(ا) دفتر أصول مال اسكلها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة ١١٧٥ تابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥

(ب) دفتر يتضمن مال إيرادات الجمارك يخص المحاسبة سنة ١١٨١ رقم ٣٠/٣٤

(ج) دفتر عن إيرادات مال الجمارك سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٥

* * *

١ — مقاطعة اسكلهاء اسكندرية ورشيد وتوابعها مع تعريف مراكب ورسم جلود بقرى وجاموس بندر رشيد

(ا) أى عن سنة ١١٧٥ درعهده (أى فى عهده) مصطفى كتخدا مستحفظان ملتزم بود (بنفسه) ٥ر٤٠٥ر٧٠٥ باره سنويا

---

(١) بولس قرالى . السوريون فى مصر ج ١ ص ٨٣ — ٨٥

(ب) أى عن سنة ١١٨١ - در عهده (لم يذكر) ٦٦٨ر٤٠٤ر٥ بارة سنويا

(ج) « « « ١١٨٥ - « « (لم يذكر) ٦٦٨ر٤٠٤ر٥ « «

٢ — مقاطعة اسكله بولاق ومصر قديم وتوابعها

(ا) در عهده مصطفى كتخدا مستحفظان باش اختيار ملتزم بود

٣١٦ر٥١٦ر٣ باره سنويا

(ب) در عهده مصطفى كتخدا (لم يذكر) ٤٣٦ر٥١٩ر٣ « «

(ج) « « « « (لم يذكر) ٥٣٠ر٥٦٤ر١ « «

٤ — مقاطعة اسكله دمياط وتوابعها

(ا) در عهده مصطفى كتخدا باش اختيار مستحفظان ملتزم بود

٣٥٦ر٥٠٤ر١ «

(ب) در عهده مصطفى كتخدا باش (لم يذكر) ٥٣٠ر٥٦٤ر١ « «

(ج) « « « « (لم يذكر) ٥٣٠ر٥٦٤ر١ « «

٤ — مقاطعة اسكله برللس

١ — در عهده محمد وسليمان عبد الله تابعا اسماعيل ١٢ ط وعبد الله تابع عبد الله جوربجى مستحفظان ٦ ط ومحمد سعيد تابع عبد الله ٣ ط ومحمد بدوى تابع عبد الله ٣ ملتزمين بود ٣٨٣ر١٣٨ باره سنويا

(ب) در عهده مصطفى عبد الله تابع محمد ٨ ط ومحرم عبد الله تابع محمد ٤ ط وعثمان عبد الله تابع محمد ٨ ط ونعمان محمد تابع محمد ٤ ط ١٤١ر٤١٢ بارة سنويا

(ج) در عهده ..... (لم يذكر) ٤٤١ر٤١٠ بارة سنويا .

٥ — مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير الشامى .

(ا) در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير مصطفى باشا

٩٢٤١ر٤٢ر٤ بارة سنويا

(ب) در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير أفخم محمد باشا محافظ مصر حالا

(ج) « « .... (لم يذكر) « « « «

٦ — مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراكب وسمسارية بذر قرطم وغيره .

(ا) در عهده حسن كتخدا عزبان باش اختيار مشهدى ٦٣٤ر٤٣٢ بارة سنويا

(ب) « .... (لم يذكر) ٨٣٧ر٣٠٠ « «

(ج) « .... (لم يذكر) ٨٣٧ر٣٠٠ « «

٧ — مقاطعة خردة وتوابعها مع بيت المال عام وتاج بازاراسب (أى سوق بيع الخيل) .

(ا) در عهده حسن كتخداباش اختيار عزبان مشهدى ٦٨١ر٦٣٧ بارة سنويا

(ب) « .. .. (لم يذكر) ٦٨١ر٦٣٧ « «

(ج) « ..... « ٦٨١ر٦٣٧ « «

٨ — مقاطعة كيالة أورز بياض در بندر دمياط

(وردت فقط بدفتر سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٤) در عهده مصطفى نام عزبان ٢ ط وعلى نام ٢ ط واسماعيل عبد الله تابع كاتب يك ط ويلال أغا عبدالله يك ط وعبد الله جلبى ولدش ٢ ط وعلى عبد الله تابع حاج على سقا يك ط وأحمد حسن ٤ ط وبشير عبد الله تابع محمد شراقوه أحمد ٢ ط وكورجى تابع أحمد ٢ ط والياس أغا تابع ابراهيم عبد الله أباظه ٢ ط وسليمن عبد الله شراقوه عزبان تابع على بك مير الحاج سابقا ٣ ط وبلال أغا تابع عثمان ٢ ط ،

١٥٤ر٤٩٠ بارة سنويا

٩ — مقاطعة حمام خاصة دراندرون (معسكر) قلعة مصر .

(ا) در عهده عبد الحليم أحمد ط ٧ وسيد أحمد محمد ط ٣ وعلى بن عبد الله تابع سليمان جلبى ط ٧ وحسن جلبى وحسين جلبى يروجه اشتراك ٤ ط

وثلثاى ط ومحمد محمد جاوشان قافطنجى ٢ ط وثلث ط ملتزمين بود ٦٨٥ , ١٢ باره سنويا .

(ب) در عهدة عبد الحليم أحمد ٧ ط وسيد أحمد محمد ٣ ط وحسن جلبى ٢ ط وثلث ط ومحمد محمد جاوشان قافطنجى ٢ ط وثلث ط وعمر ولد ش وأحمد ولدش على بروجه اشتراك ٧ ط ومحمد ولد ش وحسين جلبى ٢ ط وثلث ط ١٢,٦٨٥ باره سنويا

(ج) در عهدة محمد محمد جاوشان قافطنجى وجوهر أغا تابع محمد جوربجى تفنكجيان نجده لى . ١٢,٦٤٥ باره سنويا

١٠ — مقاطعة بحيرة سمك دربندر دمياط .

(ا) در عهده محمد أغا اغاء قلعة دمياط ٤٤,٧٨٣ باره سنويا

(ب) « عثمان اغا اغاء « « ٤٤,٧٨٣ « «

(ج) « . . . . (لم يذكر) ٤٤,٧٨٣ « «

١١ — مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر .

(ا) درعهده محمد أغا امين احتساب ١٩٧,٩٧٣ باره سنويا

(ب) « اسماعيل اغا أغاء جاوشان أمين احتساب « « «

(ج) « . . . . (لم يذكر) « « «

١٢ — مقاطعة مال حماية اورزميرى عن جانب امين دمياط وملتزمين فارسكور

(ا) در عهده خليل بك ميراللوا قازطاغلى دفتردار مصر حالا ٥٤٠٨٠ باره سنويا

(ب) « شيخ عبد الله ١٠٤٠ «

(ج) « . . . . (لم يذكر) « «

١٤ — مقاطعة مال حماية كتابت كمرك اسكلها بولاق .

(ا) درعهده اسحق ويوسف باشكاتب ملتزمين ١٠٤٠ باره سنويا

(ب) « « « « « « «

(ج) در عهدة . . . . (لم يذكر) ١٠٤٠ بارة سنويا

١٥ — مقاطعة مباشرت كتابت عشور أصناف بهار

(ا) درعهده قاضى موسى محمد يوسف التزام ٤٠٥,٦٠٢ باره سنويا

(ب) « على نام ولد ش ٦ ط وحسن موسى ولد ش ٦ ط وعبده مصطفى ومصطفى دياب نكدلى ويوسف باقر وحسن محرم بروجه اشتراك ٤٠٥,٦٠٣ باره سنويا

(ج) در عهده . . . . (لم يذكر) ٣٠٥,٦٠٣ باره سنويا

* * *

وما يمكن استخلاصه من هذه السجلات يتناول موضوعات كثيرة . أما ما يخص الجمارك منها فهو ما يلاحظ من عدم وجود ملتزمين لسنة ١١٨٥ ، ومعنى ذلك أن على بك أدار الجمارك لحسابه الخاص واستولى على أموالها فحصل على ما يزيد على ثلاثة وعشرين مليونا من البارات سنويا ابتداء من سنة ١١٨٢ (١٧٦٨) . ويدخل فى ذلك أيضا حرمان اوجاقات الحامية من أهم موارد ثروتهم ونفوذهم بمنعهم من التزام الجمارك كما حرم على العناصر غير المرغوب فيها منهم التزام الأراضى من قبل .

هذا ولا تفوتنا ملاحظة هامة وهى أن (مقاطعة مال حماية كتابت كمرك اسكلها بولاق) كانت لليهود حتى نكل بهم على بك واستبدل بهم المسيحيين من السوريين ، وبذا جاء حساب سنة ١١٨٥ خلوا منهم كما هو مبين بالمثبت السابق .

كما نلاحظ أن مقاطعة اسكله برللس نزعت من المستحفظان وأعطيت للاهالى ، وأن على بك كان يدفع بأتباعه الى نواحى النشاط الحكومى المختلفه كما فعل عند ما اشرك تابعه سليمن عبدالله شراقوه عزبان فى التزام مقاطعة كمالة ارز بياض بندر دمياط وباشراكه فى اوجاق عزبان أيضا ، وكما فعل فى اول عهده بداود اليهودى وهو من خدامه اذ استصدر فرمانا من الباشا بتعيينه كاتبا بالضربخانة ، وذلك قبل طرده اليهود من الجمارك (١)

(١) فرمان باشوى بتاريخ ١٤ رمضان ١١٧٥ — دفتر قيد الفرمانات الصادرة من الباب العالى لمحروسة مصر . رقم ١ ص ١٤٢ مخزن تركى .

المنشئات :

لم يشتهر عهد على بك بالانشاءات المعمارية ، إذ كان رغم قصره مليئا بالأعمال الحربية التى لم تعط البك فرصة للاهتمام بتلك الناحية . ومع ذلك فقد أثرت عنه أربع منشئات .

ارتبط أولها بوعدوعده ونذرنذره . فإن على بك عندما ابعد الى النوسات أقام ببلدة نوسا الغيط (مركز أجا أعمال مديرية الدقهلية) [1] ، وكان يتردد عليه فى عزلته أحد مشايخ البلدة وهو (سيدى مجاهد) وكان عبدا صالحا يتبرك به على بك ويشكو اليه أمره فكان مجاهد يدعو له ويصبره . فلما استقر على بك فى شياخة البلد حضر خصيصا لمقابلة الشيخ مجاهد وقال له « لك منى ماتريد فقد قضى الله حاجتى ورجعت الى الحكم » . فأجابه هذا بأن لامطلب له عنده سوى اتمام بناء مسجد السيد البدوى ، وأن يكون للشيخ مقاما خاصا وحجرة خاصة بالمسجد — أما النذر فقد نذره عندما كان بالقاهرة ١٧٦٨ وكان ابو الذهب مقيما على حصار خليل بك بمسجد السيد احمد البدوى بطنطا ، نذر عند ذلك أن يقوم بعمارة المسجد لو كتب الله له النصر على منافسيه ، فلما نال بغيته عهد الى المعلم حسن عبد المعطى « باجراء عمارة المسجد ، فجدد قبة الضريح والمنارتين العظيمتين والميضاة الكبيرة وكراسى الراحة » . كما أنه وفى بعهده للشيخ مجاهد فأفرد له ضريحا ولا يزال يطلق على إحدى حجر المسجد اسم « سيدى مجاهد »

ثم أنه فرش المسجد بالحصر المنوفى ، وأضاءه بقناديل الزيت الطيب والشموع وأنشأ الى جواره صهاريج الماء ، ورتب عمالا مخصوصين للنظافة فى داخله وخارجه كما رتب النقباء لخدمة المجاورين .

وفى عهده بدأ مسجد السيد احمد البدوى يتحول الى مدرسة إسلامية على نمط الأزهر وذلك عند مارتب عدة من الفقهاء والمدرسين ، وأمه الطلاب والمجاورون

---

(١) نفى على بك ١١٧١ هـ الى النوسات فى عهد الصابونجى ، أبعد إليها ومنح حكمها فى عهد حسين بك كشكش ١١٨٠ هـ — ١٧٦٦ م .

وجعل لهم (خبزا وجرايات وحساء يصرف لهم يوميا) وعهد بالقيام على أموره إلى شيخ لقبه « شيخ الجامع الأحمدى ».

ثم أنشأ فى مواجهة الجامع سبيلا فوقه مكتب للصبية ، كما أنشأ قيسارية عظيمة أصبحت مركزاً تجاريا محليا وأطلق عليها اسم الغورية لنزول تجار غورية القاهرة بها للتجارة .

ثم أوقف على كل ذلك وقفيتين: الأولى بتاريخ (١٠ شعبان) وتشمل أراضى زراعية من قرى القوصية بولاية الأشمونين تغل ٧١٨٫٩٧٥ أردبا من القمح سنويا . وأما الوقفية الثانية فتاريخها (١٨ ذو القعدة ١١٨٥) وتشمل حوالى ١٧٫٠٠٠ فدانا بنواجى , طنطا وبلتاج » ، هذا عدا العقارات المبينة من «وكايل وقيسارية وصهايج وغيرها » كان يبلغ صافى ريعها السنوى حوالى ٨٤٨٫٥٢٥ نصف فضه .

وجعل كل ذلك وقفا على « الخلفاء » بمقام السيد أحمد البدوى ، وخدمة المقام ، والعلماء ، والقاطنين به ، والمجاورين بالمسجد المشار إليه ، والعواجز ، والأيتام بالمكتب ، والمجاورين بالمكتب ، والفقراء ، وأرباب الأشاير المنسوبين للطريقة الأحمدية » وغير ذلك « خيرات وقربات ومبرات . »[1]

هذا ونصوص الوقفيتين واضحة . ودراسة تلك النصوص تبين لنا النظم التى وضعها على بك لحياة الطلاب وسير الدراسة فى الجامع الأحمدى وفى المكتب : أما المجاورون بالجامع الأحمدى فكان عددهم سبعمائة يقطنون بمسجد السيد أحمد البدوى ، ويتعاطون جراية يومية مقدارها (ست أرغفة خبز قرصة) للمجاور الواحد ، و(فول نابت) بعد صلاة الصبح (وشوربة بر) تزيد فى رمضان فيدخل فى تجهيزها (الأرز واللحم والمسلى والبصل والحمص والمصلح)[2] .

---

(١) حجتا وقف على بك الكبير بتاريخ ١٠ شعبان ١١٨٣ ، القعدة ١١٨٥ بوزارة الأوقاف « قسم الأوقاف الأهلية » .

(٢) وقفية سنة ١١٨٣ ، سنة ١١٨٥ بوزارة الأوقاف بالقاهرة .

كما خصص مبلغ (٨٥٫٠٠٠ نصف فضة) أى ما يعادل (٣٥٠ جنيها مصريا) تقريبا « يصرف سنويا فى ثمن كساوى تشترى لكافة العلماء والمجاورين والعميان والأيتام بالمسجد المرقوم من بفته وزعابيط وقماش أبيض كل شخص بما يليق (١)

أما الدراسة فكانت — كما كان الحال فى جميع معاهد العلم فى مصر العثمانية — دينية ولغوية . الغرض منها تفهم الدين وحسن أداء العبادات ، وتشمل علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد والنحو والميقات . وقد خصص فى وقفية (١١٨٣) مائة أردب من القمح « يصرف مرتبا فى كل سنة لعشرة أنفار علماء من علماء المسلمين يتعاطون فى كل يوم بالمسجد المشار إليه قراءة عشرة دروس من الحديث الشريف والفقه والنحو والتوحيد » .

كما خصص وقفية (١١٨٥) مبلغ ٢١٦٠ نصف فضه (أى حوالى ٧٢ جنيها مصريا) « يصرف سنويا فى معلوم رجل عالم من علماء الإسلام ، العاملين بكتاب الله تعالى . التابعين لسنة نبيه سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يقرأ فى المسجد المذكور درسا من القرآن العظيم لتعليم السادة المجاورين بالمسجد المرقوم وأهالى الناحية المرقومة — طنطا » .

ومبلغ ٧٢٠ نصف فضه « يصرف سنويا فى معلوم رجل معيد مقرىء للدرس المرقوم » كما خصص مبلغ (٢١٦٠ نصف فضه) ، يصرف سنويا فى معلوم رجل عالم من علماء المسلمين المحدثين يقرأ بالمسجد المرقوم فى كل يوم درسا من حديث البخارى للسادة المجاورين بالمسجد المذكور وغيرهم من أهالى الناحية المذكورة » ومبلغ (٧٢٠ نصف فضة) « يصرف سنويا فى معلوم رجل معيد للدرس المذكور يكون فيه أهلية لذلك » .

أما علم الميقات فقد خصص له فى وقفية (١١٨٥) مبلغ ٣٦٠٠ نصف فضه « يصرف سنويا فى معلوم رجلين عالمين بعلم الميقات يعرّفان الأوقات ليلا ونهارا

---

(١) وقفية ١١٨٥

بالمسجد المرقوم ، زيادة عن المعلوم بالوقف الأصلى » (أى وقفية ١١٨٣ وقدره خمسة أرادب من القمح كل سنة) .

أما أداء العبادات فى المساجد فقد وضع لها نظاما جعل المسجد مركزا لنشاط دينى عظيم ، إذ رتب للمسجد إماما شافعيا ، وإماما مستعجلا للصلوات الخمس ، وخطيبا فى أيام الجمع والأعياد ، ومرقيا للخطيب المذكور ، وأربعة مستخدمين بالدكة أيام الجمع والأعياد ، وميقاتيين ، وأربعة وعشرين نفرا حسان الأصوات يؤذنون بمنارتى المسجد فى الأوقات الخمس ويعملون السحريات بالتهليل والتسبيح فى كل ليلة . هذا عدا أثنى عشر بوابا لأبواب المسجد الداخلية والخارجية ، وغيرهم من الكناسين والفراشين والوقادين والسقايين وخدمة المقام والنقباء .

وزيادة على ذلك فقد رتب نظاما لقراءة القرآن بالمسجد فجعل جراية يومية من الخبز والفول النابت لمائة قارىء كل ليلة سبت واثنين بالمقام[1] . وجعل لهم نقيبا وخداما . كما رتب ثلاثين قارئا يتلون القرآن كاملا كل يوم مرة بعد صلاة الفجر وأخرى بعد العصر ويختمون قراءتهم بالتهليل والتكبير والدعاء للواقف . وأقام عليهم شيخا يقوم بالدعاء وجمع المصاحف بعد القراءة — هذا عدا أربعين مقرئا يقرأون (سورة الأنعام) مجتمعين تجاه المقام كل يوم قبل الفجر ويختمون القراءة بالدعاء . كما رتب نظيرهم لقراءة (سورة يسن) بعد صلاة العصر على النسق السابق . ولكل جماعة من هؤلاء القراء شيخ ونقباء لخدمتهم .

وفى شهر رمضان يزيد على من تقدم أربعون قارئا يتلون القرآن كاملا فى كل ليلة ويختمون القراءة بالدعاء . ثم تخير جماعة من القراء الحسنى الأصوات يقرأون فى آخر كل ليلة من رمضان ، حتى طلوع الفجر ، ما تيسر من القرآن والمدائح النبوية ، ويعلنون الأذان مع طلوع الفجر .

---

(١) وقفية ١١٨٣

أما المكتب فقد فرشه بالحصر المنوفى وركب له الساتر ورتب فيه « خمسين يتيما قاصرين عن درجة البلوغ » لتعلم حروف الهجاء والكتابة والقرآن العظيم وقراءة الحزب الشريف فى كل يوم والدعاء لمولانا الواقف فى مثل ذلك على العادة عند انصرافهم من المكتب . . . » واقام عليهم فقيها وعريفين . وجعل لهم جراية يومية من الخبز — كما قرر لكل صبى بالمكتب « جبة صوف واحدة ونصف مقطع قماش وطاقية وشد ومركوب » ثمنها ١٠٠ نصف فضه تمنح له فى شهر رمضان من كل سنة .

أما الفقيه فكان يصرف له بفته محلاوى ومقطع قماش أبيض وشاش بلدى ثمنها ٢٠٠ نصف فضه مرة كل سنه . كما كان يصرف لكل عريف « جبة صوف ومقطع قماش أبيض » ثمنها ١٥٠ نصف فضه[1] .

* * *

ولعل من الطريف أن نتبين الآن مدى تنفيذ شروط ما أوقفه على بك فى عامى ١١٨٣ — ١١٨٥ . فقد أصبح المعهد الأحمدى مستقلا عن مسجد السيد أحمد البدوى ، ويضم عددا ضخما من الطلاب والمجاورين . ولكن المعهد لا يتمتع بريع الوقفيتين كاملا ومعظمه يضم إلى دخل المعاهد الدينية . كما أن تعاطى الجراية صار نقدا نظرا للظروف الحاضرة ، وامتنع عمل الحساء فى شهر رمضان أيضا .

ولم يعد يتعاطى الجراية سوى الفقهاء بالمكتب ، وبعض المجاورين بالمعهد وبعض العلماء والقراء بالمسجد . أما المكتب فيضم حوالى ٤٠ صبيا يتلقون دروسهم كأسلافهم . ويقوم الآن عشرة قراء كل ليلة أحد طول العام بقراءة ما تيسر من القرآن .

وفى شهر رمضان يتولى القراءة عشرة قراء قبل الفجر ، ومثلهم بعد العصر ويأخذ كل مقرىء ثلاثين قرشا فقط طول شهر رمضان .

---

(١) وقفية ١١٨٣

تتبين لنا مما سلف النشأة الأولى للمعهد الأحمدى الذى كان ولا يزال ، ثانى المعاهد الدينية فى مصر قدما وشهرة بعد الأزهر . ولكن بقى لنا أن نبحث عن سر اهتمام على بك بذلك المسجد وهل جاء تلبية لنزعة إصلاح علمى ؟

الواضح هنا أن الدافع الروحى كان أظهر فى عمله هذا من نزعة الاصلاح العلمى — وان كنا لانستطيع أن ننفى العامل الأخير تماما — فمنشئات على بك العلمية لم تتعد عمارة المسجد الأحمدى وتنظيم الدراسة فيه وفى المكتب المجاور له ، أما نشر التعليم فى بقية مدن القطر أوحتى فى القاهرة فلا نكاد نعلم عنها شيئا

حقا يخبرنا الجبرتى عن ظهور بعض حكام اهتموا بالناحية العلمية فى ذلك العهد ، مثل عبد الرحمن كخيا « أبو العمائر والخيرات فى مصر والشام والروم » لكثرة ما بناه من المساجد والزوايا والمكاتب وهى أماكن للعبادة والعلم فى نفس الوقت ، ومثل أبى الذهب الذى بنى مسجدا ومدرسة وألحق بها مكتبة كانت تعتبر من أعظم المكتبات فى مصر العثمانية ، وأوقف عليها أوقافا طائلة ورتب لها الأئمة والمدرسين والعلماء ، إلا أنه يخبرنا عن إهمال أمورها سريعا وذهاب أوقافها إلى غير ما أوقفت له(١) .

فالاهتمام بالعلم فى ذلك الزمن كان اهتماما شخصيا محدودا تغلب عليه الناحية الروحية — واهتمام على بك كان من هذا النوع — إلا أن فضله لاينكر فى وضع أساس المعهد الأحمدى المشهور فى أيامنا هذه .

* * *

وثانى منشئات على بك العمارة التى أجراها بمسجد الامام الشافعى بالقاهرة(٢)

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ١٦٨ ، ٤١٩ ، ج ٢ ص ٥ — ٨

(٢) قدم الامام الشافعى الى مصر سنة ١٩٩ هـ وقيل ٢٠١ هـ (٨١٦ م) وتوفى ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، وكان صلاح الدين الأيوبى يجله فبنى تربة له سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ، وجاء الملك الكامل بن العادل الأيوبى فبنى قبة على قبر الامام ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) الى جوار المدرسة الصلاحية ، حتى جاء قايتباى سنة ٨٨٥ (١٤٨٠) فجدد رخامها ونقوشها ، ثم أصلحها الغورى . وقام عبد الرحمن كتخدا بتجديد المدرسة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢) ومن بعده على بك . أما بناء المسجد الحالى فيرجع الى عهد توفيق باشا ١٣٠٩ (١٨٩١ م) .

إذ أمر بتجديد خشب القبة — وكان منذ القرن الخامس الهجرى على عهد الملك الكامل الأيوبى — ثم كساه بالحديد المسبوك ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد ، وطلاها بالألوان الزاهية أغلبها اللون الذهبى على أرضية خضراء ، وجميع النقوش الموجودة بالقبة الرئيسية الحالية عدا الكتابات الأندلسية عملت بأمر على بك الذى لاينكر فضله فى المحافظة على الكتابة الأصلية بالقبة من أعلا .

وقد ضمن النقوش برقبه القبة تاريخا شعريا منظوما مكتوبا بالخط النسخ الجميل يبدأ بالبسملة وبعض آيات من القرآن ذكر بعدها النص الآتى :

أمر بتجديد هذه القبة المباركة على التخصيص وتشييد أفنان وضعها بفنون النقش والترصيص عزيز مصر وحاكمها ، من ثبت احكامه فى أقاليمها ومعالمها ، المتوكل على الله ، مولانا القائم فى الرعية بما يحبه ويرضاه ، على الاسم والقدر والجاه ، الحاكم بأمر الله ، أيد الله بالنصر لوائه ، وخلد عزه وبقائه ، وخذل أضداده وأعدائه ، وبلغه قصده ورجائه ، أنه الملك اللطيف ببركة صاحب هذا المقام الشريف وذلك فى افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف من الهجرة أدام الله عزه ونصره » (١١٨٦ هـ — ١٧٧٢)

هذا عدا بعض إصلاحات أخرى بمتعلقات المسجد ، مثل ما فعل بالميضاة التى كان قد بناها عبد الرحمن كتخدا فأنه هدمها وبنى أخرى مستطيلة متسعة ، حولها حنفيات الماء وكراسى الراحة المتسعة .

* * *

وكانت العمارة الثالثة قصره بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى بالقاهرة فى المكان الذى تشغله دار الأوبرا الملكية . ولا يزال الشارع القريب منها يسمى باسم شارع سيدى عبد الحق السنباطى . وكان القصر يطل على بركة الأزبكية ، الحق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسه مستولدته ، وقد ذكر على هامش وقفيتها بتاريخ غاية شعبان سنة ١٢٨٠ هـ

ما يشير إلى أن هـذا السكن « صار فى تواجر وانتفاع اسماعيل باشا والى مصر حالا[١] »!؟

أما الرابعة فمنشئاته المتعددة قرب شاطىء النيل ببولاق قريبا من وكالة الحطب تحت ربع الخرنوب ، وهى عبارة عن قيسارية عظيمة ببابين أحدهما شمالى (بحرى) والآخر جنوبى (قبلى) . وخان عظيم تعلوه مساكن من الجهتين بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطىء النيل ويتوسط الجميع مسجد .

وكانت متينة الأساس بنيت على خنازير كالمنارات ، وجعل أساسها من المونة والدبش والأحجار ، وكان ذلك فى سنة ١١٨٥ (١٧٧١) ، وانتهى العمل فيها بعد وفاة على بك[٢] .

أما التحصينات التى كان قد أقامها بالاسكندرية وغيرها من الثغور ، فلم يبق منها أثر . هذا ويروى بعض المؤرخين أن على بك بعد أن أصلح مقياس الروضة رنا ببصره إلى الجيزة وفكر فى فتح الهرم الأكبر[٣] . أكبر الظن ليحصل على ما عساه يكون بداخله من كنوز موفورة . كما طمع أن يخلد اسمه بشق قناة تصل البحرين الأبيض والأحمر ولكن انشقاق أبى الذهب عليه لم يسمح له بتحقيق هذه الأمانى .

* * *

الجيش

والتغير الذى أحدثه على بك فى الهيئة الحربية كان تغييراً طفيفا ، ولكنه لم يعد يعتمد اعتماداً كبيراً على الأوجاقات العثمانية كهيئة حربية ابتداء من سنة ١٧٦٩ .

---

(١) حجة وقف الست نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء مستولدة الأمير على بك الكبير رقم ٦٧ ج ١ أهلى بوزارة الأوقاف .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٣٨٢ — ٣٨٣

(٣) Lusignan ; P. 39

وقد أشرنا من قبل إلى أنه فى سبيل تدعيم مركزه أراد أن يقضى على نفوذ الأوجاقات العثمانية ، حتى يأمن جانبها ويقبض بذلك على عصب الديوان . واتبع فى سبيل ذلك عدة طرق كان أخصها اهلاك بعضهم فى الحروب الداخلية كما فعل عندما وجه الفرق لقتال كشكش بك قرب سمنود ، ومنها نفى كبار ضباطها ومصادرة أموال غيرهم أو اعدامهم (١) ، ومنها أيضا منع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضى . ولما كان معظم رجالها من التجار والصناع والملتزمين ، التحقوا بها بقصد حمايتهم أو تنفيذ بعض أغراضهم الخاصة مستغلين انتمائهم لها ، ولما كان استقرار الأمن وسيادة العدل فى عصر على بك يحولان دون تحقيق تلك الأغراض غير الشرعية فقد انفصل عن الفرق معظم رجالها(٢) .

ونحن إذ نقرر هنا أن على بك اتبع مختلف الأساليب لأضعاف الحامية العثمانية ، لا يمكننا أن نجزم بأنها ألغت أو حلت فى عهده كما يدعى المؤرخون فان وثائق العصر تدلنا على أنه ، وإن لم تكن الأوجاقات فى عهده هيئات قوية منظمة ، فانها كانت موجودة على كل حال . وقد ثبت لنا من دارسة دفاتر الجراية والعليق سنة ١١٧٤ ، أن أغوات فرق الكوكلويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان والعزبان كانوا يتقاضون جراية وعليقا على النحو الآتى :(٣)

« جماعت أغايان ٥ بلوك »

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٥٩ ، ٣٠٨

(٢) ذكر الرحالة بيرى Perry Part 3 P. 155 عدد الأوجاقات حوالى سنة ١٧٤٠ : من ٦ — ٧ آلاف يكيجريان ، ٣ — ٤ آلاف عزبان ، ألف متفرقة ، ألف جاوشان ، ٥٠٠ لكل من الفرق الثلاثة الأخرى ولعدم وجود الدفاتر الخاصة بهم فى عصر على بك . لا يمكننا ذكر بيان مفصل عن عددهم فى عهده .

(٣) دفتر جراية وعلق خدمة الديوان سنة ١١٧٤ رقم ٥٥/٦٢ مخزن تركى ص ٤

١ — اغاء كوكلويان ح ١٣ ط ١٤ — ش اردب ٢٩ ط ٢١ (أى ١٣ اردب حنطه و ١٤ قيراط ٢٩ اردب شعير و ٢١ قيراطا)

٢ — إغاء تفنكچيان ح ١٣ ط ١٤

ش اردب ٢٩ ط ٢١

٣ — اغاء جراكسه ح ٨

ش اردب ١٢

٤ — اغاء مستحفظان ح ٨

ش اردب ١٢

٥ — اغاء عزبان ح ١٠

س اردب ١٠ — كل ثلاثة شهور

ثم أن دفاتر « مرتبات دباغ خانة لسنة ١١٨٥ تشير إلى وجود فرقة جاوشان مرتباتها وجرايتها على النحو الآتى (١)

« مسموح مرتب خانة جاوشان »

فى يوم عدد ٦ فية باره ٣٢٠

فى شهر « ٩٦٠٠

فى سنة « ١١٥٢٠٠

جلود عدد ١٨٠ منها جاموس ١٣٥ أنوار عددها ٤٥ اسقاط ١٨٠ كما أن دفاتر الجراية والعليق لسنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢) تشير إلى وجود أمراء الجراكسة وفرقة عزبان .(٢)

* * *

(١) دفتر مسموح مذكورين مع مرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة سنة ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٣ مخزن تركى .

(٢) دفتر جراية اسيان جماعت كشيدة ديوان واجب ماه جمادين ١١٨٦ رقم ٥٥/١٢٦ مخزن تركى ، دفتر جراية جماعت واجب ماه محرم وصفر سنة ١١٨٦ رقم ٥٥/١٣٤

هذا وقد عثرنا على دفاتر مرتبات عساكر القلاع كاملة فى العصر السابق لعلى بك وفى أثناء عصره ، وبالمقارنة بينهما وجدنا أن على بك ترك كل شىء على ما كان عليه ، فلم يغير فى عدد الحراس أو أشخاصهم أو رواتبهم أو نظام دفع تلك الرواتب .

كما أنه لم يزد عدد القلاع . وهذا لا يتعارض مع قول الجبرتى بأنه حصنها وخاصة قلعتى الاسكندرية ودمياط .

والاختلاف الوحيد الذى لاحظناه يعنى تعديلا هاما مقصودا وهو احلال حامية من المستحفظان محل حامية العزبان التى كانت مختصة بحراسة ترسانة اسكندرية وقد نص فى الدفتر على ذلك التغيير نصا صريحا . وهذا يعنى بلا شك وثوق على بك من اوجاق مستحفظان وشكه فى إخلاص العزبان .

وفيما يلى ثبت بهذه القلاع وعدد حراسها ومرتباتهم فى عامى ١١٨١ هـ نقلا عن « دفتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحروسة مصر ١١٧١ رقم ٥٥/١١٦ مخزن تركى » . وفى عام ١١٨٥ نقلا عن « دفتر أرقام قلاع در توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٢ مخزن تركى » .

١ — قلعة اسكندرية

	سنة	العدد	المرتب اليومى	
(ا)	١١٨١	٤٥٤	١٩٩٨	عثمانى (العثمانى ½ بارة)
(ب)	١١٨٥	٤٥٥	١٩٩٦	»

٢ — جماعة ترسانة عزبان اسكندرية ومتفرقة ترسانة عزبان

	سنة	العدد	المرتب السنوى	
(ا)	١١٨١	٣٣٣	١٦٥٨	عثمانى نقره (النقرة ½ عثمانى)
(ب) جماعة ترسانة مسحفظان اسكندرية امد عن عزبان (أى بدلا من عزبان)				
	١١٨٥	١٣٨	١٤٨٤	نقرة ٤

٣ — جماعة مردان قلعة برج مصطفى باشا .

	العدد		المرتب اليومى	
(ا)	١١٨١	٩٧	٢٧١	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٩٧	٢٧١	»

٤ — جماعة مردان قلعة ركن اسكندرية

(ا)		٢١٦	٧٤٤	»
(ب)		٢١٧	٧٤٤	»

٥ — جماعة مردان قلعة أبو قير

(ا)		١٤٣	٦٤٩	»
(ب)		١٤٣	٦٤٩	»

٦ — جماعة مردان قلعة رشيد

(ا)		٢٠٣	٤٤٥	»
(ب)		٢٠٥	٤٤٥	»

٧ — جماعت مردان قلعة صارى أحمد

(ا)		١٢١	٣٠٣	»
(ب)		١٢١	٣٠٢	»

٨ — جماعت مردان قلعة البرلس :

(ا)		٢٠٠	٤٥٩	عثمانى
(ب)		٢٠٠	٤٥٩	»

٩ — جماعت مردان قلعة دمياط :

(ا)	١١٨١	١٠٩	٤٢٠	»
(ب)	١١٨٥	١٠٩	٣٢٠	»

١٠ — جماعت مردان قلعة عبد الصمد :

(ا)		٨٢	٣٧٤	»
(ب)		٨١	٣٨٤	»

١١ — جماعت مردان قلعة التينه :

	العدد	المرتب اليومى	
(ا)	١٢٢	٤٥٠	عثمانى
(ب)	١٢٢	٤٥٠	»

١٢ — جماعت مردان قلعة عريش :

(ا)	١٦٥	١١٤٠	»
(ب)	١٦٣	١١٤٠	»

١٣ — جماعت مردان قلعة خان يونس (فى الطريق إلى الشام)

(ا)	١٤٣	١٣٨٠	»
(ب)	١٣٩	١٢٧٠	»

١٤ — جماعت مردان قلعة قرين :

(ا)	٣٥	١٤٧	»
(ب)	٣٥	١٤٧	»

١٥ — جماعت مردان قلعة عجرود (فى الطريق بين القاهرة والسويس)

(ا)	٥١	١٣١	»
(ب)	٥٦	١٣١	»

١٦ — جماعت مردان قلعة السويس :

(ا)	١١٨١ ٥٣	١٧٠	»
(ب)	١١٨٥ ٥٣	١٧٠	»

١٧ — جماعت مردان قلعة طور مبارك :

(ا)	٢١	١٤٣	»
(ب)	٢١	١٤٣	»

١٨ — جماعت مردان قلعة مويلح :

(ا)	٥٤	٣٢٨	»

	العدد	المرتب اليومى	
(ب)	٥٤	٣٢٨	عثمانى

١٩ — جماعت مردان قلعة قصير الشامى :

(ا)	٦٧	٦٠٢	»
(ب)	٦٧	٦٠٢	»

٢٠ — جماعت مردان قلعة أسوان :

(ا)	٨٨	٧٨٣	»
(ب)	٨٨	٧٨٣	»

٢١ — جماعت مردان قلعت ابريم :

(ا)	٥٥	٣٨٥	»
(ب)	٥٦	٣٨٥	»

٢٢ — جماعت مردان قلعة ساى (فى الطريق بين قنا والقصير)

(ا)	٩١	٦٧٢	»
(ب)	٩٣	٦٧٢	»

* * *

وفى نفس الوقت كان على بك يكون جيشا كبيراً يعده لحركات الداخل ضد المنافسين والاعراب ، ولمشروعات الخارج من فتوح وإمدادات .

وقد كون جيشه الجديد من قسمين : الأول قوامه الفرق المملوكية الراكبة ، عدتها حوالى ستة آلاف مملوك مدرب عدا تابعيهم من الخدم وغيرهم للتشهيل وخدمة الخيول . أما القسم الثانى فكان من المرتزقة منقسم إلى فرق متجانسة : منهم الأتراك والشوام والمغاربة والمتاولة والدروز والعرب الحضارمة والعرب اليمانية والأحباش والدلاة ، لايقلون فى مجموعهم عن الإثنى عشر ألفا (١) .

أما السلاح فكان لا يتعدى السيف ، والغدارة ، « القرابينة » ، والرماح مع بعض البنادق العتيقة الطراز ، ومدافع الحصار الصغيرة الحجم .

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١ ، ج ٤ ص ٣١٣

وأما عن حركة تسيير الجيوش وإدارة دفة المعركة فلم تكن تتسم بشيء كثير من النظام . ولكن نظام التموين الحربى كان وافيا بالغرض منه . ويظهر أن على بك وحد زى بماليكه، فقد كتب الجبرتى يقول أن على بك ألبس سراجينه قواويق فتلى (بالفاء) من جوخ أصفر تمييزا لهم عن غيرهم من سراجين أمرائه[١] .

ورغم ما تقدم فاننا نلمس فى عهد على بك اتجاها جديدا فى الفن الحربى المصرى هو الاهتمام بفنون الحصار والمدفعية وخاصة مدافع الحصار ، كما تبينت أهمية الأسطول البحرى فى العمليات المشتركة بين البر البحر . يظهر ذلك فى حصار يافا ، كما يظهر فى رغبة على بك فى التحالف مع روسيا والحاحه فى طلب مدافع الحصار وضباط أكفاء لاستعمالها ، مما سيكون له أثر ينمو على طول الزمن فى العصور التالية على نحو ما سنبينه فى موضعه .

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١

الفصل الثانى

مسألة التجارة والطريق البرى

تجارة مصر الخارجية — مسالك التجارة — نشاط الفرنسيين — محاولات الانجليز — احياء الطريق البرى فى عهد على بك الكبير .

التنافس الدولى على مسالك التجارة بين الشرق والغرب يبدأ مع كشف طريق رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨ . والمحاولات التى تمت فى عهد على بك ١٧٧٠ م وما بعدها حلقة فذة من حلقات ذلك التنافس ، تختم مرحلة طويلة وتبدأ مرحلة أخرى حاسمة .

تجارة مصر الخارجية

إن موقع مصر الجغرافى فى قلب الدنيا القديمة وسط افريقية وأوربا وآسيا ، التى تمثل مراكز الانتاج والصناعة والاستهلاك ، ووقوعها فى أضيق بقعة بين البحرين الأبيض والأحمر جعلاها محطا هاما للتجارة الخارجية ، ترد إليها برا وبحراً .

فوردت إليها بضائع الهند والشرق الأقصى من أقمشة حريرية وكافور وجواهر وتوابل وعقاقير وأعشاب طبية وعطور وشيلان حريرية وبعض مساحيق الصباغة والافاوية — ومن بلاد العرب ورد بن اليمن، الذى اكتسب شهرة عالية ، والحناء والبخور — وأرسلت فارس اللالىء والسجاجيد عن طريق البحر الأحمر .

ومن الحبشة عن طريق سنار ومحاذاة النيل ومن السودان بطريق القوافل من دارفور إلى الواحة الخارجة فأسيوط وردت إلى مصر خبراتها من تبروسن

فيل وريش نعام وأبنوس ومسك وصموغ وجلود غير مدبوغة وآلاف العبيد السود والببغاءات . كما وردت قوافل من بلاد المغرب ومراكش والسنغال عبر الصحراء تحمل البلح وبعض المصنوعات الجلدية والصوفية إلى مصر .

ومن سوريه جاءت قوافل دمشق تحمل الأقمشة الحريرية والزيوت والفواكه ، ووصلت سفنها إلى دمياط تحمل الأخشاب والفواكه ، طازجة ومجففة ، والطباق . كما وصلت الاسكندرية سفن العثمانيين تحمل الملابس والأسلحة والفراء والرقيق الأبيض والزيوت والصابون وبعض أنواع الآثار القشرية .

وكانت لمصر تجارة نشيطة مع أوربا فاستوردت من فرنسا المنسوجات الدقيقة والجوخ والمصنوعات المعدنية والأسلحة . ومن ايطاليا وبخاصة البندقية وليفورنة : الملابس المطرزة والمرايا والبللور والزجاج . ومن ألمانيا استوردت الخزف والمصنوعات المعدنية وبخاصة الحديدية والزجاجية والورق وبعض الأدوية .

وكانت مصر تصدر معظم ما تستورده من الشرق إلى أوربا ، وتزيد عليه بعض مصنوعاتها ، كما كانت تصدر بعض هذه المنتجات الزراعية وواردات أوربا إلى السودان وجدة والهند .

أما أهم المنتجات التى أشرنا إليها فكانت : الأرز والقمح والبقول الجافة والقطن والسكر والنطرون وملح البارود وخيوط الغزل ، وبعض المنسوجات التيلية ، التى كانت تصنع بدمياط وتروج فى البندقية ولجهورن ومرسيليا ، وبعض الأقمشة السميكة التى كانت تروج فى فرنسا وايطاليا واليونان وسوريا والأناضول . ويلاحظ أن الأرز وملح البارود كان يباح تصديرهما إلى بلاد الدوله العثمانية فقط . وأن الميزان التجارى بين مصر والهند كان فى غير صالح مصر ، أى أن قيمة الواردات من الهند كانت أكبر من قيمة المصدر لها من مصر ، وهذا بخلاف الحال مع أوربا والدولة العثمانية . وهكذا استطاعت السوق المصرية أن تظفر بكميات كبيرة من العملة الأجنبية .

فالصادرات المصرية إلى فرنسا مثلا فى سنة ١٧٨٤ كانت قيمتها ثلاثة ملايين من الفرنكات تقابلها واردات قيمتها مليونا ونصف من الفرنكات (١) ، وكان الفرق يدفع عملة أجنبية أسبانية أو هولندية أو من البندقية .

* * *

مسالك التجارة بين الشرق والغرب :

الناظر إلى مصور للدنيا القديمة يلاحظ أول طريق للقوافل يحمل خيرات الشرق عبر آسيا الوسطى إلى فارس ثم الأناضول ، حيث الأسواق التى توزع منها المتاجر إلى سائر الأنحاء . ثم هو يلاحظ الذراعين اللذين تمدهما آسيا نحو أوربا ، وهما الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ففى أولهما كانت تسير السفن فى شط العرب حتى البصرة ثم فى نهر الفرات ، ومنـــه بالقوافل إلى حلب فالاسكندرونة وأزمير .

وحتى سنة ١٤٩٨ كان الطريق الثالث ، وهو طريق البحر الأحمر ومصر ، ينفرد بأهمية من الدرجة الأولى ، فتنقل البضائع من سورات أو بمباى بالهند ، وتدور السفن حول بلاد العرب ثم تدخل البحر الأحمر حتى السويس ، فتنقل بالقوافل إلى القاهرة فالاسكندرية ، ثم تتولى نقلها إلى أوربا سفن البندقية وجنوة ومرسيليا . وكانت مصر تجنى من مرور التجارة فى أراضيها أرباحا طائلة .

وصادف القرن الخامس عشر عدة عوامل أثرت فى أهمية تلك الطرق تأثيرا رئيسيا . فقد حدث فى سنة ١٤٩٨ أن تمكن البرتغالى فاسكودا جاما Vasco Dagama من الوصول إلى الهند عن طريق رابع استحدثه بدورانه حول ساحل افريقية — الغربى فالجنوبى فالشرقى — وهو الطريق الذى صار يعرف منذ ذلك الحين بطريق « رأس الرجاء الصالح » . وتحولت معظم تجارة الشرق إلى هذا الطريق ،

---

(١) Volney T. 1 P.P. 198—201

وأثر ذلك على بقية الطرق تأثيرا سيئا وبخاصة الطريق المصرى .

وعبثا حاولت مصر الاحتفاظ بنشاطها التجارى مع الهند ، حتى تمكنت البرتغال من القضاء على ذلك النشاط خارج البحر الأحمر بتحطيمها سفن الأسطول المصرى تجاه جزيرة ديو الهندية ١٥٠٩ . وأدت هذه الهزيمة إلى أمرين هامين : أولهما القضاء النهائى على أمل مصر حينئذ فى امتلاك أسطول تجارى يصل إلى الهند ، وثانيهما خروج التجارة من يد البنادقة وأهل جنوه ومرسيليا فى البحر الأبيض إلى يد البرتغاليين فى المحيطين الأطلسى والهندى .

ثم حلت سنة ١٥١٧ مع الفتح العثمانى لمصر وحاول السلطان سليم تشجيع تجارة مصر الخارجية فجدد معاهدتها التجارية مع جمهورية البندقية فى فبراير سنة ١٥١٧ . ولكن دون فائدة جدية ، إذ كانت معظم خيرات الشرق قد أخذت طريقها إلى رأس الرجاء . — ثم أخذ نجم أسبانيا فى الظهور حتى تمكنت سنة ١٥٨٤ من السيطرة على البرتغال وانشأت عمارة بحرية جبارة بعزم تحطيم الأسطول الانجليزى الفتى . ولكن انجلترا تمكنت من تحطيم الأرمادا الاسبانية سنة ١٥٨٨ ، وقضت نهائيا على أحلام الأسبان بالسيطرة على البحار . ونلاحظ أن هذه الضربة التى أصابت أسبانيا عززت النكسة التى انتابت الطريق المصرى بعد انكسار السفن المصرية فى معركة ديو البحرية . ذلك ان انجلترا تحمست للطريق الجديد وبذلت غاية جهدها فى تمهيده وذلك بترقية سفنها وآلاتها .

ويأتى القرن السابع عشر فنجد النشاط التجارى فى البحر الأبيض محدودا لقلة النشاط التجارى فى البحر الأحمر . وعلى العكس من ذلك نشاهد تحمس الانجليز لطريق راس الرجاء مع محاولتهم نزع مستعمرة الراس من هولنده[١] . يقابل ذلك تحمس الفرنسيين للطريق المصرى . والحوادث التى دارت حول هذا

---

(١) Charles - Roux : Le Projet Français p.p. XII, IX. & Masson : His - du Comm. . . au XVIII sieelc. p.p. 559-560.

الموضوع من أوائل القرن السادس عشر حتى قيام على بك بثورته مظهر من مظاهر التنافس بين الدولتين .

* * *

نشاط الفرنسيين فى مصر :

وان كان نشاط الفرنسيين فى مصر تغلب عليه الصبغة التجارية ، إلا أنه لا يخلو من ناحية سياسية . ونحن يسهل علينا تتبع هذا النشاط إذا درسنا جهود الرجال الفرنسيين المسئولين فى وزارات الخارجية والبحرية ، وفى السفارة الفرنسية بالاستانة . ثم مقترحات القناصل والتجار الفرنسيين بالقاهرة .

ذلك لأن فشل فرنسا فى منافسة الهولنديين والانجليز فى المحيطين الأطلسى والهندى دفعها إلى التفكير فى تحويل تجارة الشرق إلى طريق آخر غير طريق رأس الرجاء وظهر فى وزارة الخارجية الفرنسية اتجاهان : أما الاتجاه الأول فنعنى به استخدام الطريق المصرى .

ولكن أساس تفكير الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل لم يكن تشجيع التجارة ، انما كان أساسه قائما على القضاء على طريق رأس الرجاء ، وبالتالى على نفوذ هولنده وانجلترا . ففكر الوزير الفرنسى كلبير Kolbert مثلا فى ان « هولنده يمكن قهرها عن طريق مصر بسهولة أكثر من قهرها فى أملاكها ، وبذلك يمكن تجريدها دون صعوبة مما يسبب ازدهارها ، أعنى خيرات الشرق[١] » .

وتبع ذلك اهتمام الحكومة بأمور الجالية الفرنسية بالقاهرة وكلهم من التجار ، ووكلت بذلك الغرفة التجارية بمرسيليا ، فصدرت مراسيم ملكية بتاريخ ٢١ اكتوبر سنة ١٦٨٥ تحرم مغادرة فرنسا للاتجار فى اللفنت إلا بتصريح من الغرفة .

---

(١) Charles - Roux : Le Projet Français . . . p. XIX.

وفى سنة ١٧٠٠ حددت السن الأدنى لمن اراد الهجرة للتجارة بخمسة وعشرين عاما ، وفى سنة ١٧٣١ حددت مدة الأقامة فى الخارج بعشر سنوات فقط زيدت فى عام ١٧٤٨ إلى خمسة عشر عاما . ولكن الحكومة الفرنسية لم تكن تشجع فكرة تكوين اسر فرنسية بالقاهرة بل على العكس حرمت هجرة الفرنسيات من زوجات التجار وغيرهن بقانون ١١ اغسطس سنة ١٧١٦ وعززته بقانون ٢٠ يولية سنة ١٧٢٦[١] .

وكان طبيعيا أن يتشيع التجار الفرنسيون بالقاهرة لفكرة إحياء الطريق البرى المصرى فغمروا وزارة الخارجية الفرنسية بمقترحاتهم فى هذا الموضوع ؛ واليهم يرجع كل الفضل فى اهتمام الحكومة الفرنسية بهذه المسألة . بل أن جميع المقترحات الهامة التى نفذ معظمها فيما بعد أنما جاءت من ناحيتهم .

فنى ١٦٥٩ اقترح جاك ساڤارى Jacques Savary على الوزير كلبير تمهيد الطريق البرى ، وذلك باستئذان الباب العالى فى حفر قناة السويس إلى دمياط . وقام كلبير بدراسة شاملة لتجارة الهند والدول التى قامت بنقلها ، وتبين أن تلك التجارة كانت سببا فى قوة تلك الدول المادية والحربية ، فقدم مقترحات إلى « مجلس التجارة Conceil du Commerce » ١٦٦٤ احتفظ فيها لمصر بدور رئيسى فى مشروعه لانعاش التجارة . والتمس من الملك لويس الرابع عشر Louis XIV تأسيس شركتين تجاريتين أحداهما تكمل الأخرى : شركة الهند الشرقية الفرنسية لنقل المتاجر من الهند حتى مصر ، والثانية شركة اللڤنت لنقلها من مصر إلى أوربا [٢] .

وكانت العوائق التى حالت دون تمام الاستفادة من الطريق المصرى تتخلص

---

(١) Deherain, Chap. II. p.p. 177 - 179.

(٢) تأسست فعلا شركة فرنسية باسم « شركة الهند الشرقية » ١٦٦٤ ولكنها توقفت عن العمل وألغى امتيازها ١٦٦٩ بسبب عدم تحقق تكوين شركة اللڤنت .
Charles - Roux le Projet Fr. pp. XIII - XIV.

فى احتكار العثمانيين للملاحة فى البحر الأحمر من جده إلى السويس ، بدعوى أن مرور السفن الأوربية يدنس حرمة البلاد المقدسة الإسلامية ، ويهدد سلامتها . كما أن « بحر السويس » كان مكرسا للحج إلى مكة . وثغره هو ميناء المدينتين اللتين يشع منهما نور الهدى وشريعة الرسول... مكة المكرمة والمدينة المنورة » لذلك كان « السماح لهذه السفن بالملاحة أو مساعدتها وعدم منعها خيانة للدين والسلطان والمسلمين قاطبة ، عقابه الخزى فى الدنيا والآخرة (١) .»

ومما كان يدفع السلطان إلى عدم الموافقة على تلك الفكرة معارضة باشا جدة وشريف مكة وأصحاب السفن من تجار المسلمين ، كما كان التجار المصريون ومعظمهم من ضباط البكيجرية أو العزب أو من فى حمايتهم يعارضون فى انتقال التجارة إلى يد الأجانب ، رغم ما كانت تلك التجارة ستدره عليهم من أرباح طائلة لأن الترك كما قال دى ماييه يحبون حاضرهم أكثر من مستقبلهم . وعندهم « بيضة اليوم خير من دجاجة الغد . (٢) »

كما أن السلطان عندما رأى كثرة اهتمام الفرنسيين والانجليز بتمهيد هذا الطريق المباشر اعتقدانهم « انما يتكبدون المشاق بالسفر برا وبحرا ، ويصورون المصورات للبلاد التى يمرون فيها . حتى إذا حان الوقت المناسب استخدموها فى فتح تلك البلاد كما فعلوا فى الهند وغيرها . » (٣)

أما العقبة الكبرى فكانت عدم ثبات أحوال مصر ، وضعف النفوذ العثمانى بها ، مع استبداد بكوات المماليك وعدم اعتبارهم للتجار الأجانب أو أية هيئة أخرى . وفكر الفرنسيون فى التغلب على العقبة الأولى باستخدام الطريق المصرى بعد الاستعاضة عن مرحلة « جدة — السويس » بالمرور من الحبشة

---

(١) من ترجمة فرمان سلطانى ذكره الضابط الانجليزى هنرى روك .

Rooke : Travels... pp. 215 - 222.

De Maillet. pp. 201 - 202. (٢)

Rooke, Travels.... p. 218. (٣)

ومنها برا إلى مصر ، وعلى هذا الأساس أرسل الوزير بون شارتران Pont Chartrain سفيره المسيو لى نواردى رول Le Noir du Roule إلى نجاشى الحبشة .

ولكن قنصل فرنسا فى مصر المسيو دى مايه Beniot de Maillet بين العقبات التى تحول دون تذليل طريق الحبشة وفضل عليه الطريق المصرى وضمن مذكراته ١٦٩٧ — ١٦٩٨ « مشروعا لربط تجارة أوربا مع تجارة آسيا عن طريق البحر الأحمر .» "Projet pour la jonction du Commerce de L' Europe avec celui de L'Asie par le moyen de la Mer Rouge."

ولكنه فى نفس الوقت أشار بصراحة إلى « الخطر الذى ستتعرض له مصر من حفر القناة ، وذلك من جانب الدول الأوربية التى تهمها تجارة الهند (١) »

وبسبب ذلك الفشل السياسى وتلك العقبات التى لا يمكن تجاهلها فكر الفرنسيون فى الاتجاه الثانى وهو يرمى إلى إحياء طريق التجارة القديم الذى يبدأ من الخليج الفارسى إلى الفرات ثم حلب فالاسكندرونة أو أزمير . وتشيع الرجال المسئولون لهذا الرأى ، ووجهت بعثات إلى فارس نفسها لدراسة المشروع ومباحثة شاه العجم ، كان أهمها بعثة جان بابتست فابر Jean Baptiste Fabre بين ١٧٠٢ — ١٧٠٤ ، ثم بعثة المستشرق أوتر Otter سنة ١٧٣٤ ، وأخيرا عندما وجه سفير فرنسا فى تركيا أحد القناصل وهو الماركيز دى فيلينيف le Marquis de Villeneuve إلى البصرة ١٧٣٨ بقصد توثيق الروابط مع فارس . (٢)

* * *

هكذ بدأ القرن الثامن عشر واهتمام الحكومة الفرنسية عوجه إلى فارس

---

(١) De Maillet : Description de L'Eg, pp. 200 - 202.

(٢) Charles - Roux ; Le Projet, Français. . . p. XIX. & Masos n ; pp. 560 — 561.

والخليج الفارسى أكثر من مصر والبحر الأحمر ولكن جدت فى خلال ذلك القرن عدة عوامل قلبت هذا الاتجاه ، وجعلت مصر والطريق المصرى فى المقدمة ، وموضع تفكير الحكومة الفرنسية الجدى ومثار اهتمام جميع الهيئات الرسمية وغير الرسمية .

أهم هذه الاعتبارات تدهور الدولة العثمانية ونشوء فكرة تقسيمها . ورغبة فرنسا فى الاحتياط والاستعداد لذلك إذا قدر حدوثه . والاعتبار الثانى توسع الانجليز فى الهند وتفكير فرنسا جديا فى القضاء على نفوذهم وتجارتهم ، والاستيلاء على ممتلكاتهم فى الهند لو أمكن ذلك .

كل هذا جعلهم يفكرون فى أقصر الطرق الموصلة إلى الهند وهى مصر . وأصبحنا نصادف فى جميع التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية الفرنسية تقريبا الاشارة إلى أهمية هذا الطريق وضرورة الاستفادة منه . ولكن تقارير شتى وصلت إلى الحكومة الفرنسية من قناصلها وسفرائها وكلها تجمع على استحالة الاستفادة من هذا الطريق ما دامت مصر تابعة للدولة العثمانية .

فى تعليمات حكومة الملك لويس الخامس عشر المبلغة إلى المستشرق «اوتر» قبل سفره إلى فارس سنة ١٧٣٤ يؤكدون انه « إذا لم يكن الترك أصحاب السيطرة على البحر الأحمر ، لأصبح هذا البحر بكل تأكيد احسن طريق لتجارة الهند » بل وفكروا فى الاستعاضة به عن طريق الخليج الفارسى ، وطلبوا من اوتر ان يبحث « عما إذا كان هذا الطريق يصلح لنقل تجارة فارس بدل طريق ازمير وحلب[1] » .

وبعد خمس سنوات عاد الشفالية جونا Le Chevalier Jauna مستشار الامبراطورة مارى تريز النمساوية Marie-Thèrèse من رحلته بمصر فكتب من فينا بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٧٣٩ يقترح على فرنسا فتح مصر وفلسطين وجزيرة قبرص »

---

(١) Masson His. du Commerce au XVIII Siecle p. 561.

فتملك ناصية العالم وتتحكم فى تجارة الهند ، وذكر أنه وضع أساس ذلك الاقتراح فى القاهرة بالاشتراك مع القنصل دى مابيه (١) .

واقترح المسيو دارجنسون D'Argenson فى مذكراته سنة ١٧٤٠ ، قبل أن يصبح وزيرا ، القيام بحملة صليبية دولية لفتح مصر ، وحفر قناة تديرها هيئة دولية فقال «فى المشروع الصليبى الذى اقترحته سنحصل على مزايا تجارية ، دون مصروفات باهظة . فمثلا يمكن عمل قناة للتجارة بين بحر اللفنت والبحر الأحمر ، على أن تكون هذه القناة ملكا لجميع الدول المسيحية » .

وفى سنة ١٧٤٧ أصبح الشفالية جونا « مراقبا عاما للتجارة» فى المستعمرات النمساوية ، وحينئذ قدم للامبراطورة كتابه « تاريخ عام لممالك قبرص وبيت المقدس وأرمينية ومصر» وألحق به فصلا عن «احوال مصر الحاضرة ومباحث فى طرق فتح مصر وقبرص » . وقد اكد فيه أنه يستحيل حفر القناة ، او احياء طريق البحر الأحمر ما دامت مصر لتركيا .

وفى سنة ١٧٥١ عاد القس فورمنت L'Abbé Fourmont من رحلته فى مصر (٢) . وقال ان حفر قناة تصل السويس بالبحر الأبيض مشروع فى حيز الإمكان ويجعل مصر مستودعا لثروة الشرق ، ولكن يجب لنجاح ذلك المشروع ان تكون مصر فى غير يد الدولة العثمانية .

ثم ان القنصل الفرنسى فى القاهرة المسيو دى ليرنكورت De Lironcourt اشار إلى استحالة المشروع ما دامت حكومة مصر على ما هى عليه من فوضى واضطراب وعدم استقرار ، وكان قد زار الأستانة فى يناير سنة ١٧٥١ وعثر فى سجلات السفارة الفرنسية هناك على ابحاث عن فكرة وصل البحرين ، ونقل متاجر الهند عن طريق البحر الأحمر ، فلما عاد إلى القاهرة كتب إلى وزارة

---

(١) كان دى مابيه قد توفى فى العام السابق ١٧٣٨ بمرسيليا فى سن الثمانين .

(٢) أمضى فى رحلته ثلاث سنوات وكان غرضه الأساسى دراسة الآثار فى أيام القنصل دى ليرنكورت .

الخارجية الفرنسية تقريراً بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٧٥١ قال فيه : « أن احترامى للوزراء اللذين تشيعوا لتلك الفكرة ، واعتقدوا أنها عملية أو ممكنة ، يقتضى أن أبين الأسباب التى جعلتنى أحكم باستحالتها . . . . . فان شكوك أهل مصر ، ومعتقداتهم الباطلة وهمجيتهم ، مضافة إلى طغيان الحكومة وجبروتها وعدم أستقرارها ومساوئها ، كل ذلك يحيط المشروع بسياج من الاستحالة ويلقى عليه ظلا من السخرية . . .[١] » .

وفى تقرير آخر أشار إلى المغارم الفادحة التى كان يدفعها التجار لأولى الأمر فى مصر ، والاذلال الذى كانوا يلاقونه منهم قال : « ويجدر بى الا أخفى عن معاليك أن الأقلية من التجار الفرنسيين هم الذين أسعدهم الحظ بالعودة من مصر إلى فرنسا دون أن يكونوا قد جلدوا . . .[٢] » .

* * *

والجدير بالذكر أن نظرة التجار الفرنسيين بالقاهرة كانت عملية وتلائم الحالة الموجودة بمصر فعلا بدرجة أكثر من نظرة الوزراء الفرنسيين وسفرائهم بالأستانة .

فى سنة ١٧٦٥ تقدم تاجر فرنسى بالقاهرة من أهل مرسيليا اسمه مينار Meynard. إلى وزير البحرية الدوق براسلان Duc Praslin باقتراح عملى أوحاه إليه الهدوء الذى ساد مصر فى عهد شياخة على بك وأساسه الاستفادة من الطريق المصرى ، وذلك بالاتفاق مع السلطات المصرية دون أى اعتبار لحكومة الباب العالى بعد أن انفردت مصر بتدبير شئونها بنفسها إلى حد كبير .

كما اقترح فى الوقت عينه أن تتولى السفن الأوربية — لا العثمانية — نقل المتاجر إلى السويس فقال : أن نقل المتاجر من جده إلى السويس يشغل فى الوقت الحاضر من خمسة عشر إلى عشرين سفينة تجارية تتراوح حمولتها بين

---

(١) Masson His. du Com. Au XVIII s. pp. 362 - 363.

(٣) Deheraiu ; T. V. Chap. 2 p, 187.

تسعمائة وألف طن ، ولكنها رديئة البناء سيئة التجهيز والقيادة لدرجة أنه زيادة على أنها لا تقوم فى السنة إلا بسفرة واحدة فأنها قد لا تصل احيانا إلا للطور ، إذا لم تكن ريح الجنوب من القوة بحيث تدفع بها إلى السويس فتبقى هناك انتظارا لموسم الخماسين التالى . وهذا ما حدث هذا العام وحدث ثلاث مرات على الأقل فى خلال السنوات العشرة الماضية » .

ولم يكد التاجر مينار يقدم اقتراحه حتى اضطر على بك إلى الفرار من القاهرة على أثر انقلاب مارس سنة ١٧٦٦ المفاجىء . فرد عليه الوزير عن طريق القنصل داميرات D'Amirat بأن مشروعه لا يمكن السير فيه ما دامت حكومة القاهرة غير مستقرة . وفى سنة ١٧٦٧ بعد عودة على بك إلى شياخة البلد تقدم المثرى الفرنسى سيماندى Seymandi من تجار مرسيليا بالقاهرة باقتراح مماثل وما طلت الغرفه التجارية بمرسيليا فى الرد ، وأخيرا رفضت الاقتراح نهائيا بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنه ١٧٦٩ (١) .

والمهم فى أمر الاقتراحين السالفين الحل الذى عرض لأول مرة وأساسه الاتفاق مع السلطات المصرية مباشرة تفاديا لمعارضة الباب العالى السابقة . ولكن كان يحول دون الاستفادة منهما عدم ثبات حكومة القاهرة . ولهذا بقيت الحكومة الفرنسية فى انتظار حكومة مصريه ثابته مستقرة يمكن الاتفاق معها اتفاقا دائما .

* * *

محاولات الانجليز :

وكان الانجليز فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر متحمسين جدا لطريق رأس الرجاء ، وخاصة منذ أن أسسوا « شركة الهند الشرقية الانجليزية »

---

(١) Massou ; pp. 563 — 564.

سنة ١٦٠٠ ، والمكاتب التجارية فى سورات عام ١٦١٢ ، ومدراس عام ١٦٣٩ وبمباى عام ١٦٦١ ، وكلكتا عام ١٦٩٠ . وتبع ذلك اهمالهم طريق البحر الأحمر . ولم يوجهوا اهتماما جديا إلى التجار الانجليز القلائل الموجودين بمصر ، بل لم تكن لهم قنصلية بالقاهرة إلا فى سنوات ١٦٣٠ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٦ ، ١٦٧١[١]

ولكن فى أواخر القرن السابع عشر لفت نظرهم نشاط الفرنسيين التجارى فى مصر ، ومقدار الأرباح التى افادوها من استخدام الطريق المصرى فعولوا على الاستفادة منه أيضا . وعزموا على تأسيس قنصلية دائمة لهم . فاقاموا التاجر الانجليزى فليت وود Fleet Wood قنصلا فى سنة ١٦٩٦ . وبفضل هداياه للباشا ورجال الجمارك حصل على اعتماده رسميا فى القاهرة . وبذلك جد فى مصر ميدان لتصادم الفريقين المتنافسين : الانجليز والفرنسيين .

فقد نشط قنصل فرنسا المسيو دى مايبه يحرض الباشا على عدم اعتماد فليت وود الانجليزى . وفى نفس الوقت حاول السفير الفرنسى فى الاستانة المسيو كاستنيير دى شاتونيف Castagnères de Chateauneuf ، أن يغرى السلطان مصطفى الثانى بعدم الموافقة . ولكن انتهاء الظروف الحرجة التى كانت تواجه الدولة العثمانية فى نزاعها مع الامبراطور ليوبلد Léopold II. « على أساس عقد معاهدة كارلوفتز Carlowitz عام ١٦٩٨ بفضل وساطة اللورد پاجت Lord Paget سفير انجلترا فى الاستانة ، دعا السلطان إلى استصدار « خط شريف » عام ١٦٩٨ يقرر للتجار الانجليز نفس الامتيازات التى سبق منحها للفرنسيين عام ١٦٨٦ ، ومن بينها جعل الرسوم الجمركية على البضائع الانجليزية الواردة من السويس إلى الاسكندرية ٣ ٪ .

ووردت الأوامر السلطانية إلى القاهرة بذلك ، فكتب دى مايبه تقريرا بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٦٩٨ يقول فيه : « عين المسيو فليت وود قنصلا للجالية

---

(١) Charles - Roux; Autour d'Une Route p. 129.

(الانجليزية) . ولقد بذلت أغاية جهدى للحيلولة دون ذلك الاستقرار ، ولكن لم يكن من الممكن اغراء الباشا برفض هذه الأوامر فى وقت كانت الدولة العثمانية تعترف فيه بفضل الانجليز فى جلب السلام مع الأمبراطور (ليوبلد الثانى[١]) .

ورغم أن قنصل انجلترا فى القاهرة كان له مركز يساوى مركز القنصل الفرنسى ، ويتمتع بمثل امتيازاته ، فإن نشاط الانجليز التجارى عن الطريق المصرى كان محدودا ، ويكاد يكون مقصورا على استيراد البن اليمنى من مخا والأقمشة ، التى كانت أقل جودة من الأقمشة الفرنسية وان كانت أثبت منها ألوانا . أى يتلخص فى الاستيراد من مصر والتصدير إليها ، ولم تستعمل البحر الأحمر كطريق للتجارة . ويظهر أن شدة المنافسة التجارية مع فرنسا كان له دخل فى هذا الموضوع لأن نشوب حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠١ وما سببته من عراقيل للتجارة الفرنسية حد من نشاط الفرنسيين وزاد من نشاط الانجليز التجارى فى مصر ولكن لمدة قصيرة جدا ، كما أن صلح أترخت Utrecht الذى أنهى تلك الحرب ١٧١٤ قلل من ذلك النشاط تدريجيا حتى أن دى ماييه عند ما عاد إلى مصر ١٧١٩ مفتشا عاما لا ساكل اللفنت قرر أن « الجالية البريطانيه بمصر فى ذلك الحين لم تكن تزيد على ثلاثه أشخاص يعيشون فى بذخ ونعيم دون عمل كبير[٢] ثم أخذ عددهم يتضائل حتى توفى آخر تاجر انجليزى ١٧٥٢ . ولم يبق بمصر سوى القنصل الانجليزى وهذا طلب اعفاءه من منصبه ١٧٦٦ . واقفلت القنصلية أبوابها ، واضمحل النشاط الانجليزى تماما بمصر . وساعد على ذلك انشغال انجلترا فى حرب السنين للسبع ١٧٥٦ — ١٧٦٣ ونشاط القرصان الفرنسيين فى البحر الأبيض فى خلال تلك المدة .

ولكن معاهدة باريس ١٧٦٣ كانت نقطة تحول فى نظرة انجلترا إلى الطريق

---

(١) Charles - Roux ; Autour d'une Route p. 9.

(٢) Charles - Roux ; Autour d'une Route, p. 16.

المصرى ، فإن تلك المعاهدة اطلقت يد انجلترا فى الهند و بدأ مستقبل الامبراطورية الهندية يتقرر بصفة جدية ، وأخذت انجلترا تفكر فى أصلح الطرق للوصول إلى الهند ، لا من الناحية التجارية ، وإنما من الناحية الاستعمارية ، أعنى أقصر الطرق وأصلحها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود أن أمكن بين الهند وانجلترا . ولم يكن هناك طريق يفوق الطريق المصرى أهمية من هذه الوجهة . فقد كانت الرحلة من مدراس إلى لندن بالطريق المصرى تستغرق حوالى ثلاثة وستين يوما أى ربع مدة الرحلة عن طريق الرأس تقريبا .

ولذا بدأ انجليز يهتمون بطريق البحر الأحمر ، وكثرت أبحاثهم فى هذه الناحية و بدأت تظهر مقترحات انجليزية وكلها تحض على وجوب الاستفادة من موقع مصر الجغرافى كحلقة وسط أقصر طريق بين انجلترا والأمبراطورية الهندية ، مثال ذلك ما أورده الضابط الانجليزى هنرى روك بقوله « ومن العجيب أن الطريق بين لندن ومدراس لا يستغرق سوى ثلاثة وستين يوما فلا يصح اهماله أن ظهر أن استعماله ممكن . ولكن على كل حال لا أنصح باستخدامه كطريق عادى للمسافرين بل لنقل الرسائل على سفن خفيفة » ثم اقترح على شركة الهند الشرقية حلا مماثلا للحل الذى اقترحه التجار الفرنسيون وسبقت الاشارة إليه ، وهو الاتفاق مع السلطات المصرية وتقديم هدايا سنوية لاولى الأمر فى مصر (١)

والشك فى امكان استخدام هذا الطريق كان لوجود نفس العقبات التى كانت تحول دون استفادة الفرنسيين منه على الوجه الأكمل ، وأولها تحريم الباب العالى على أى سفينة تابعة لدولة أجنبية أو أبناء الغير أن يصلوا إلى السويس ولا للانجليز أو سفن غيرهم ، أن تتجاوز جده إلى الشمال .

وقد فكر الانجليز لتذليل تلك العقبة فى نفس الحل الذى فيه فكر الفرنسيون وهو المرور من الحبشة بدل مرحلة جدة — السويس . وهذا هو أحد أغراض

---

(١) Rooks ; Travels. . . p. 178.

رحلات جيمس بروس الانجليزى James Bruce سنة ١٧٦٨ وبراون Browne ١٧٩٢ . وغيرهما .

وقد كتب براون (١٧٩٢ — ١٧٩٨) فصلا عن أهمية موقع مصر الجغرافى بعنوان Observatirns on the Situation of Egypt to Commercial Advantages. ضمنه اقتراحا بحفر قوانين : أولاهما تصل البحرين الأبيض والأحمر مباشرة . والثانية تصل البحر الأحمر بالنيل، ثم أنه أشار فى ختام ذلك الفصل إلى ما سبق أن تطلع إليه الفرنسيون من ضرورة استقرار أحوال مصر حتى يمكن الافادة من ذلك الطريق قال « ولو أن هذه الأمة دخلت فى حوزة دولة متحضرة لامكنها جنى الثمار التى يهيؤها لها مركزها التجارى (١) . »

هكذا بقى الفريقان : الفرنسيون والانجليز يترقبون فرصة استقرار أحوال مصر ، ولم يطل انتظارهم كثيرا .

* * *

احياء الطريق البرى المصرى فى عهد على بك الكبير

عندما تولى على بك شياخة البلد للمرة الأولى سلك نحو الأجانب عموما والفرنسيين خصوصا نفس السياسة التى كان يتبعها أسلافه وهى سياسة الشدة وعدم الاعتبار مع محاولة ابتزاز الأموال منهم على قدر المستطاع . أشار إلى ذلك مبعوث السفارة الفرنسية إلى مصر ١٧٥٨ المسيو مازوليه Mazoillier ، فكتب إلى وزير الخارجية الفرنسية يبين سوء حال التجار الفرنسية وتحرج مركزهم من كثرة المغارم والهدايا الاجبارية التى يقدمونها للقابضين على السلطة فى مصر وأشار إلى امكان تفادى الضرر متى وجد منافس لمن فرض تلك المغارم إلى أن يقول « أما إذا كان هذا الذى فرض إرادته كبير الزعماء جميعا ، وصاحب الأمر والنهى فى مصر كعلى بك مثلا ، فإنه يكون أشد جرأة وأبلغ ضررا

(٢) Browne ; Travels in Africa, Egypt p.p. 135.

وأكثر امعانا فى البطش بالمسيحيين عموما (١) . » كما قرر القنصل الفرنسى دى جونيفيل سنة ١٧٥٧ بأن على بك « من ألد أعدائنا باعتراف الجميع (٢) »

واستمر على بك فى اتباع تلك السياسة الغاشمة حتى ١٧٦٨ ، عندما انفرد بالحكم وأمن جانب منافسيه ، فاننا نلمس تغييرا جوهريا ، إن لم يكن كليا ، فى علاقته بالتجار الأجانب وإذا بالقنصل الفرنسى داميرات يقرر فى ٣ ديسمبر سنة ١٧٧٠ أن على بك يرعى التجار الفرنسيين ويحميهم (٣) .

وأمر على بك باتباع نفس السياسة الجديدة فى سورية نفسها فى خلال المدة التى دخلت فيها تحت الحكم المصرى . وحتى فى أثناء الأزمة الحرجة التى صادفته بعد فراره من مصر ١٧٧٢ لم يخرج عن تلك السياسة وكتب قنصل فرنسا فى صيدا الشفالييه دى تولين فى منتصف ١٧٧٢ يقرر أن الجاليات الفرنسية فى جميع اسا كل سورية وفلسطين « لم تتمتع بمثل ما تتمتع به الآن من عطف الهيئة الحاكمة » وختم تقريره بقوله أنه على يقين من أن المؤسسات الفرنسية فى هذه الأنحاء مقبلة على عصر يسوده الهدوء فى ظل الحكم الجديد (٤) .

ويرجع بعض الفضل فى ذلك إلى الشاب اللبق كارلو روستى Carlo-Rossetti أحد تجار البندقية بمصر ، أسعده الحظ بمعرفة على بك فى الوقت الذى كان يعمل فيه للاستئثار بالسلطة . ولمس فيه على بك كفاءة الرجل الذى يمكن الاعتماد عليه ، فاتخذه معينا ومشيرا . وكان لروستى أكبر الأثر فى توجيه على بك فى مشروعاته لتنظيم التجارة وكثير من شئون السياسة الخارجية . (٥)

---

(١) Deherain V.5 ChaP. 11 p. 186.

(٢) Deherian V·5 p. 161.

(٣) Masson ; p. 307.

(٤) Charles - Roux ; Les Echèllas. . 98.

(١) تمكن كارلو روستى ، بفضل لباقته وذكائه ، من أن يشغل مركزا ممتازا فى نفس على بك ومن جاء بعده من مشايخ البلد — وفى الوقت الذى كان فيه الرحالة براون بمصر ١٧٩٢ حصل روستى على منصب قنصل عام للنمسا فى مصر وفى نفس الوقت حصل من مراد =

وكان من نتيجة ذلك أن اهتم على بك بمسألة التجارة « منذ شعر بمبلغ ما يمكن أن تفيده مصر من ازدهار التجارة فيها وكان غرضه فتحها لشعوب العالم . وجعلها مستودعا لتجارة أوربا والهند (١) » .

ثم هيأ على بك الجو الصالح لازدهار التجارة فضرب على أيدى قطاع الطرق، ووطد الأمن ، وسهر على اقامة العدل ، وأصبح الطريق بين السويس والقاهرة فالاسكندرية آمنا للتجار .

واقترح عليه روستى عقد معاهدة تجاريه مع البندقية ، ولكن اعتذرت هذه الجمهورية عن المساهمة فى احياء النشاط التجارى القديم ، لأنها كانت فى دور انحلال بطىء . ثم عرض نفس الأمر على روسيا ولم يفز بطائل على نحو ماسنذكره فى موضعه .

وفى تلك الأثناء حضر إلى مصر الرحالة جيمس بروس الانجليزى فى يونية عام ١٧٦٨ ، وقابل على بك وتناقش معه فى أمور كثرة ، أهمها الحرب الروسية التركية ، والمشروعات التجارية التى كان روستى قد اقترحها على البك ، واخصها فتح الطريق المصرى المباشر لتجارة الهند المصدرة إلى أوربا طمعا فى الأرباح الوفيرة المضمونة(٢) .

= بك على امتياز يخول له استغلال النطرون بمنطقة الطرانة (مركز أبو المطامير بمديرية البحيرة الآن) وكان يصدره إلى أوربا . وقد عهد روستى فى استثمار هذا المشروع إلى ابن اخته السنيور فيرارى Signore Ferrari وزوده ببعض الحرس من سلافونيا لاضطراب الأمن فى تلك الجهات على عهده وقد نزل براون ضيفا عليه .

(١) Savary ; Lettres. . T. 2 p. 228.

(٢) كان بروس قنصلا لانجلترا فى بلاد المغرب ، اعتزل منصبه ، وزار الأناضول فالشام فمصر ١٦٧٨ فى طريقه إلى الحبشة لكشف منابع النيل . وكان له حظ مقابلة على بك أكثر من مرة ، ونزل جده فى أوائل ١٧٦٩ حيث رجاه بعض التجار الانجليز أن يباحث على بك بشأن السماح للسفن الانجليزية بالوصول إلى السويس فوعد بذلك بعد عودته من الحبشة . ولكنه لم يعد إلى مصر إلا بعد ثلاث سنوات ونصف كان على بك فى أثنائها قد أعاد احياء الطريق البرى ثم انتهى عهده ، فلما جاء بروس إلى مصر ثانية فى ١٧٧٣ قابل أبا ذهب فأحسن لقائه وعقد معه اتفاقية تجارية .

ولما درس ذلك المشروع بالقاهرة وجد على بك من الضرورى أن يفتح الحجاز ، ويستولى على جده لتصبح محطا وسطا للسفن الأوربية الآتية من الهند ومستودعا لتجارتها . وكانت حملة الحجاز عام ١٧٦٩ ضرورية لنجاح مشروعه التجارى .

* * *

والغرض الاقتصادى من حملة الحجاز كان واضحا . أشار إليه جميع الرحالة الذين تكلموا فى هذا الموضوع . ففى عام ١٧٧٧ ذكر اروين Irwin أن على بك الشهير أنما أراد بفتح بلاد العرب أن يضمن لمصر ، التى استأثر بحكومتها ، تجارة البحر الأحمر وسواحل الهند(١) .

وأكد هذا الأمر التاجر روستى للرحالة ڤولنى الذى قرر أن « غرض على بك انما كان جعل جده مستودعا لتجارة الهند(٢) » .

فلما أصبح على بك صاحب الكلمة فى مصر والحجاز جعل جدة تحت ادارة مملوكه حسن بك الجداوى مباشرة . وعهد بإدارة جمرك جدة إلى أحد اخوة روستى ويدعى بلثازار Balthasar ، ثم بقيت الخطوة النهائية لاتمام المشروع وهى الاتفاق مع شركة أوربية لنقل المتاجر من الهند إلى أوربا عن طريق البحر الأحمر ، الذى أصبح بحيرة مصريه ، ومصر التى أصبحت تصرف أمورها حكومة مستقرة يرأسها رجل رشيد .

أما فرنسا فلم تدرك أن الفرصة التى كانت تترقبها قد سنحت منذ تولى على بك حكم مصر فرفضت مقترحات التاجر مينار Meynard ١٧٦٥ ثم مقترحات التاجر سيماندى Seymandi كما أسلفنا وانتهى بها الأمر إلى إلغاء إمتياز شركة الهند الفرنسية . وإذا بوزير البحرية براسلان Praslin يشجع التجار الفرنسيين على اتباع طريق فارس ، ويقضى على اهتمامهم بمشروعات البحر الاحمر .

---

(١) Irwin ; Voyage p. 96.

(٢) Volney V. 1. p. 118.

وأصبح الفرنسيون فى ١٧٧٠ أبعد ما يكونوا عن التفكير فى تحقيق مشروعاتهم القديمة فى مصر (١) .

ورغم أن موقف على بك (قائمقام مصر) من المشروع الذى تردد ذكره فى تقارير القنصل الانجليزى جون مرى John Murray من الاسكندرية — بتواريخ ١٣ نوفمبر ١٧٦٨ ، ٢ مارس ١٧٦٩ ، أول يوليه ١٧٦٩ ، ٣ يوليه ١٧٧٠ — كان يسمح للانجليز بتحقيق مشروعهم التجارى . إلا أن تلك الثورة التى قام بها لم تكن تتفق مع موقفهم التقليدى وهو عدم الرغبة فى تقسيم الدولة أو المساهمة فى اضعافها أو تشجيع أحد هذين الأمرين (٢) .

ولكن استقرار حكومة مصر فى عهد على بك ، ونجاح حملة الحجاز فى تنظيم جمرك جدة تحت إدارة مصرية جديدة لفت أنظار التجار الانجليز فى جدة إلى سنوح الفرصة . فكتب احدهم من جدة إلى على بك ١٧٧٠ يقترح عليه « فتح طريق تجارى مباشر » بين الهند وميناء السويس . وكان ذلك أقصى أمانى على بك فكتب فى ١٧٧١ إلى حاكم البنغال الانجليزى يعرض عليه الأمر ، ويطلب منه أن يعاونه فى تحقيقه ويعده بكل مساعدة ممكنة من جهته . ولم يلبث أن تكونت فى كلكتا شركة انجليزية صغيرة للمتاجرة مع مصر ، ولما تولى حاكم البنغال الجديد وارن هيستنجس Warren Hastings ، رحب بتلك الخطوة وبدأت بعض السفن التجاريه رحلتها من الهند إلى السويس .

أشار إلى ذلك القنصل الفرنسى داميرات بقوله « لقد عقد اتفاق بين البك وتجار من الانجليز تابعين لشركة الهنـــد الانجليزية ، وظهر العلم البريطانى فى السويس (٣) . »

وذكر سافارى أن « على بك عند ما تأكد من سلامة القوافل ، وصلت إلى السويس بعض السفن الانجليزية محملة بأقمشة البنغال ، لاقت رواجا وربحا وفيرا »

---

(١) Masson, p. p. 565 — 566.

(٢) Charles-Roux ; Autour d'une Route pp. 22 — 25.

(٣) Charles-Roux ; Autour d'une Route pp. 217.

وقد أشار إلى ذلك فرمان سلطانى ذكره الانجليزى هنرى روك جاء فيه «وفى عهد على بك جاءت إلى السويس سفينة انجليزية صغيرة أو سفينتان تحمل الهدايا من شخص غير معروف للبك المذكور ، بحجة تفريغ بضائعها» (١)

وشروط الاتفاقية التى أشرنا اليها لانعلم عنها شيئا ، ولكنها على كل حال حددت رسوما جمركية مخفضة ،وتعهد من على بك بحماية التجار الانجليز ومتاجرهم ويظهر أن العمل بهذه الاتفاقية استمر حتى فرار على بك من مصر سنة ١٧٧٢ — فإن بروس عندما عاد من الحبشة فى ١٠ يناير ١٧٧٣ عقد مع أبى الذهب اتفاقا جديدا بتاريخ ١٥ ذى القعدة ١١٨٦ (فبراير ١٧٧٣) كان كتجديد للاتفاق السابق ، تعهد فيه أبو الذهب بتخفيض الرسوم الجمركية إلى ٨ ٪ وقرض ٥٠ ريالا أسبانيا رسم ميناء لكل سفينة . ومنح التجار الانجليز حق المتاجرة فى السويس أو القاهرة مع حمايتهم وحماية أموالهم . ثم تأكدت تلك الاتفاقية فى ٧مارس ١٧٧٥ بعقد « معاهدة ملاحة وتجارة بين بك مصر العليا والسفلى (ووران هيستنجس) حاكم البنغال من قبل الأمة البريطانية (٢) . »

ولم يغفل على بك أمر القناة فقد فكر فيها كما يقول المسيو لوى دى لوجييه الذى كتب من مدريد بتاريخ ٧ديسمبر ١٧٧٤ يقترح حفر قناة ويقول،ويؤكدون أن على بك فكر فى انفاذ ذلك الأمر منذ عامين ولو قدر له البقا. فى مصر . . . لأتم حفرها (٣) . »

هكذا هيأ على بك الفرصة لفتح الطريق البرى ،بل ونجح فى تنفيذه آخر عهده بمصر .

وكل هذه الاصلاحات والمشروعات الحيوية لم تشغل على بك عن المضى فى ثورته ، وتوفير منطقه امان لها .ودفعه ذلك إلى القيام بحملات خارجية فى بلاد العرب . وسورية وفلسطين . وهذا ما سنبحثه فى الباب التالى .

---

(١) Rooke Travels. . . p. 217.

(٢) Masson ; p. 569.

(٣) Charles-Roux ; le projet Français. P,F.

الباب الرابع

الحملات الخارجية

الفصل الأول

حملة الحجاز

بلاد العرب تحت حكم العثمانيين — مقدمات الحملة المصريه — تجهيز الحمله — سير الحمله وعوامل نجاحها .

لازالت مكة منذ عام الفتح مركزا لاحداث جمة . ولكونها مهبط الرسالة ، ومركز الأرض المقدسة ، وقلب الحجاز النابض أصبحت قبلة الانظار فى العالم الإسلامى كله . وكان ولاؤها فى نظر الحكام المسلمين لازما ، وبالطبع كان احتلالها الزم فى نظر من كان يعمل لسيادة الأمم الإسلامية .

بلاد العرب تحت حكم العثمانيين :

فلما عظم مركز السلطان سليم بفتوحاته التى توجها بمصر صاحبة السيطرة والنفوذ على مكة فى ذلك الحين اسرع شريفها بركات بارسال ابنه وشريكه فى الولاية الشريفة أبى نمى لتقديم الولاء للسلطان الظافر بمصر فاقرهما فى الولاية ، وأمر بقتل حسين الكردى صاحب جدة من قبل الغورى . ومنذ ذلك الحين أصبح تعيين شريف مكة بيد السلطان العثمانى . (١)

(١) الاشراف حكام مكة يدعون الانتساب إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء . وأول من ملكها منهم الاشراف الموسويون ثم السليمانيون ثم الهواشم ، احمد بن زينى دحلان: خلاصة الكلام ص ١٦ ، ص ٥٠ .

وكما تهدد نفوذ العثمانيين فى مصر وغيرها من الولايات العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر تهدد سلطان الدولة العثمانية فى جميع انحاء الجزيرة العربية ، حتى إذا ماانتصف ذلك القرن ، وكان على بك الكبير فى مصر يعمل للانفراد بالسلطة ، أصدر الرحالة كارستن نيبور Carsten Niebuhr مذكرات قيمة يصف مشاهداته فى بلادالعرب ، ويعلق فيها على مدى تبعية اقسامها الساسية المختلفة للسلطنة العثمانية . وأشار فى تعليقه الى ان اليمن وحضرموت وعمان والحساونجد ، وبقية بلاد العرب ماعدا الحجاز ، قد خرجت تماما من يد السلطان واصبحت تحت حكم ولاة شبه مستقلين . انعدمت وحدتهم ولم تكن بينهم أية روابط سياسية اللهم إلا نزاعهم المستمر .

وتكلم نيبور عن بلاد الحجاز فقال : « وكان السلطان يدعى ملكية هذه الولاية الكبيرة ، وان كان أهلها لايعترفون بدعواه هذه . ولم يكن هناك من يمكن اعتباره تابعا للسلطان سوى شريف مكة . أما بقية الحجاز فكان تحت حكم مشايخ مستقلين » (١) .

وكانت جميع الولايات العثمانية تدفع للدولة جزية سنوية ماعدا مكة فقد انفردت بنظام خاص ، إذ كانت الدولة هى التى ترسل لها كل سنة مقدارا محددا من المال قررته على مصر (٢) .

أما العلاقة التى كانت تربط شرافة مكة بالدولة فلم تكن تتعدى مايأتى :

كان فى استطاعة السلطان أن يأمر باشا سورية بعزل شريف مكة فى المدة القصيرة التى يبقى فيها الحجاج بمكة ويولى غيره من نفس الأسرة . كما كان يعين باشا تركيا بجدة ، ولكن هذا كان يضطر الى الفرار أحيانا ، ولايستطيع العودة إلى

---

(١) Niebuhr : Description de l'Arabic. p. 172 — 170.

(٢) استمرت مصر العثمانية ترسل المحمل المصرى كل سنة تحت اشراف أمير الحج المملوكى كما ترسل المبالغ المقررة والأموال والغلال الموقوفة على الحرمين وأهل مكة والمدينة ، واعتبر ذلك جزءا من ملتزمات مصر السنوية كالخزنة تماما .

جدة إلا مع وفد الحج السنوى . وكان السلطان يحتفظ بحرس عثمانى فى مكة والمدينة وينبع ، كما كان للدولة محاط حراسة بجوار الآبار ، على طول الطريق بين مصروسورية ومكة لحماية القوافل ،ولكن لم يكن لتلك الحاميات أى سلطان على القرى أو المدن المجاورة .

وقد علق الرحالة على بقاء تلك العلاقة قائلا «وما كان عرب الحجاز ليتقاعسوا ن طرد الترك ، لولا المبلغ السنوى الذى يناله كل مقيم فى مكة ، وأقارب محمد صلى الله عليه وسلم فى الحجاز ، بصفتهم سدنة الكعبة ، وما كان يصدر من مراكب القمح والأرز وغيرها باسم السلطان من السويس والقصير إلى ينبع وجده ثم مكة والمدينة فى موسم الحج ، ولولا ما كان يدره قدوم المحملين الشامى والمصرى على الأرض المقدسة من خيرات وعلى الأخص هدايا تأمين الطريق للاعراب »[١]

ومنذ أن استقر الحكم العثمانى بمصر ،وامارة مكة تعانى تنافسا ليس له نظير. ولم يكن ذلك راجعا فقط الى ما اشتهر به العرب من حب التنافس على الرياسة ، ولكنه يرجع أيضا الى ماصادفه أولئك المتنافسون من تشجيع أصحاب السلطان فى الخارج ، إذ كانت أمور مكة ابدا موضع تدخل حكام مصر والشام واليمن، وفيها كان يتصادم نفوذ أولئك جميعا . فكان لكل منهم منافس يناصره وفى انتصاره وتوليه الشرافة انتصار ضمنى لوليه الذى ساعده وسيادة لنفوذه ،وربما كان هذا من بين الأسباب التى جعلت كلا من الشام واليمن يحقدان على مصر انفرادها بارسال محمل سنوى فشاركاها ذلك الشرف [٢] .

وفى رأينا أن المنازعات المحلية بين الأشراف بمكة كانت تمثل فى الواقع تنافسا خارجيا بين مصر والشام واليمن . وقد تعودت مصر ان يكون لها الفوز فى

---

(١) Niebuhr p. 302 — 303.

(٢) بدأ ارسال المحمل الشامى ويلقب أحيانا بالروى عقب الفتح العثمانى ٩٢٣ هـ ثم أعقبه المحمل اليمنى ٩٦٣ هـ .

تلك الحلية ، ساعدها على ذلك عدة عوامل لايصح اغفالها جعلت لها مركزا ممتازا لايضاهيه مركز بلد آخر فى بلاد العرب حتى الآن .

فاذا قدرنا أهمية سعى آلاف الحجاج المصريين الى مكه كل عام مع المحمل المصرى ، يبذلون المال والزاد لأهل الحرمين ، وجلهم من الفقراء ، ومئات الحجيج من بلاد المغرب وغيرها الذين يصطحبون الحجاج المصريين لمكه فى موسم الحج ، لتبين لنا أهمية مركز مصر هناك . إذ أن الحجاج ، لمكه خصوصا والحجاز عموما ، كالغيث للأرض المنزرعة وقد غاض عنها الماء . فهم حياة أهلها وداعية النشاط والرخاء فيها . ومصر بما لها من ثروة ، ومابها من خيرات كانت اقدر من غيرها على التأثير فى حياة الحجاز الاقتصادية .

ورغم مئات الأميال العديدة التى تفصل القاهرة عن مكه نجد أن الحاجز الوحيد الذى يفصل بين القطر المصرى وبلاد العرب لايتعدى البحر الأحمر الضيق ، الذى لم يكن فى ذلك الوقت سوى بحيرة ضيقة المخرج من جهة الجنوب . ولذا كانت كل موجه من احداث الحجاز السياسية يتردد صداها فى مصر ، ويظهر مداها فى ولاية مكة . ولم يكن يستنكف الشريف منهم ان يفر الى صاحب النفوذ بمصر يسأله العون لاسترجاع الشرافة أو اغتصابها من صاحبها .

ولما كانت الدولة العثمانية ، وهى صاحبة السيادة الشرعية على البلاد ، فى حال لاتسمح لها بالتدخل فى أمور شرافة مكه ، لكثرة مابلغ بها التدهور من ضعف والاضمحلال من عجز ، فقد كان والى الشام يناصر قضيتها هناك ضد تدخل بكوات مصر ، الذين كانوا قد استبدوا بالسلطة فى مصر العثمانية ، وراحوا يتدخلون فى شئون مكه اعتمادا على أنهم أقرب اليها من السلطان ، واكثر اتصالا بها منه وتهمهم أحوالها لما بين البلدين من علاقات لايمكن فصمها .

وما كان السلطان ، رغم مابه من وهن ، ليحفل بالاحتفاظ بتلك الجهات الفقيرة السحيقة لولا أنها حافلة باغنى الذكريات الدينيه ، ولا سيما اشتمالها على الحرمين الشريفين اللذين كان يفخر بحمايتهما ، ويتخذ من ذلك ذريعة للاحتفاظ

بما فى دولته من ولايات اسلامية ، ولهذا السبب عينة ، ولئلا يستأثر بذلك الشرف صناجق مصر من دونه اضطر الى التدخل اكثر من مرة عن طريق باشا الشام (١) .

* * *

مقدمات الحملة المصرية :

وعند ماحلت ١١٦٥ هـ (١٧٥١ م) كان قد توالى على شرافة مكة أربعون شريفا من آل عون ، وهم فخذ من الهواشم . وفى تلك السنة بدأت ولاية الشريف مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد . ومنذ فاتحة عهده بدأت سلسلة المنازعات التى أدت الى الحملة المصرية على بلاد الحجاز

فما كاد الشريف مساعد بن سعيد يلبس الخلعة السلطانية (يوم الجمعة ثانى ربيع الثانى ١١٦٥) حتى اقبل الاشراف والعرب لمبايعته . ولم يتأخر عن ذلك سوى السادة الاشراف من آل بركات ، فانهم بايعوا سرا ابن أخيه الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد . ورغم أن هذا الأخير كان قد بايع عمه إلا أنه اغتر بآل بركات ،فجمع من العرب جمعا ملك به الطايف ، وتقدم بريد مكة ، ولكنه هزم فى اكثر من موقعة وأخيرا طلب الصلح ، ثم توفى سنة ١١٦٩ ، ١٧٥٥ (٢)

وقد أدى ذلك النصر الحربى والسياسى الى تقوى مركز الشريف مساعد ، الذى صفا أمامه الجو فلم يعد يحفل بأمير الحج المصرى حسين بك كشكش الذى وصل فى موسم الحج ١١٧١ (١٧٥٧ م) . وشعر أمير الحج بذلك ففكر فى أن يسند شرافة مكة الى وال آخر يكون أطوع منه قيادا . وشجعه بعض الاشراف على ذلك ، ورشحوا لهذا المنصب الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد ، وهو ابن المنافس السابق « فالبسوه خلعة بدون فرمان سلطانى فى الحادى والعشرين من ذى الحجة »

---

(١) Niebuhr ; p. 392. ومحمد سعيد فرائضى زاده ، كلشن معارف ج ٢ ص ١٤٨٥.

(٢) ابن دحلان . خلاصة الكلام ص ١٩٥ — ١٩٦ .

واشتبك الطرفان فى قتال شديد ، وكادت تدور الدائرة على صنيعة حسين بك كشكش لولا أنه طلب الصلح بعد شهر واحد فى أوائل المحرم ١١٧٢ (١٧٥٨) وعاد كشكش إلى مصر بعد أن استعاد صداقة مساعد .

وفى موسم الحج التالى رد أمير الحج الشامى عبدالله باشا تحية كشكش بأحسن منها ، فعزل مساعدا وولى اخاه الشريف جعفر بن سعيد . ولما انتهى موسم الحج ورجع عبد الله باشا ، نجح مساعد ١١٧٣ (١٧٥٩ م) فى أن يتنازل له أخوه جعفر عن الشرافة فى مقابل مبلغ من المال يبذله له سنويا حتى توفى جعفر ١١٧٨ هـ (١٧٦٤ م) .

ولم يعدم الشريف مساعد طامعا آخر فى الولاية ، فما كاد جعفر يتنازل عنها حتى انشق عليه اخوه احمد بن سعيد ١١٧٤ هـ (١٧٦٠ م) فأوقع به مساعد فى معركه طلب على اثرها الصلح فتم له ذلك .

ثم تهدد عرش الشريف مساعد للمرة الخامسة [١] ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) عندما وقعت النفرة بينه وبين الشريف احمد بن عبد الكريم من آل بركات ، فانتصر له آل بركات ، واجمعوا أمرهم على ان يختاروا من بينهم واحدا منهم هو الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بدلا من مساعد .

ثم جمعوا ما استطاعوا من الرجال ، وبذلوا ما أمكنهم من الأموال ، وبدأوا يحاصرون جدة وهى أهم مركز تموين لشريف مكة ، كما انها تتحكم فى أهم الطرق المؤدية الى مكة . فأرسل مساعد من أحرق معسكرات عدوه . فتراجعوا عنها دون ان يفوزوا ببغيتهم [٢] .

ولما كان القوم مصممين على الفوز بأى ثمن أسرع الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات إلى مصر يطلب معونة على بك [٣] .

---

(١) ابن دحلان ، ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) قيل أنهم لما عسكروا خارج جده فى أكواخ من القش رماهم أهلها بنشاشيب ، جعلوا الكبريت الموقد فى رؤوسها كالرياش فاحترقت وقيل أن مساعد أرسل من حرقها .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٣٥٠ .

وكان على بك فى ذلك الوقت مشغولا بتثبيت مركزه فطيب خاطر الشريف عبد الله ووعده بالمساعدة فعاد من حيث أتى .

وأوصى على بك أمير الحج محمدا أبا الذهب ١١٨٣ (١٧٦٩م) أن يدرس تلك المسألة فى بلاد الحجاز نفسها ، فيدرس موقف الشريف مساعد سرا حتى لا يثير شكوكه ، ويتحسس نيات العرب ، ومدى القوى اللازمة لانفاذ الحملة ونجاحها حتى إذا جد الجد وحان وقت العمل لم يبق سوى التنفيذ الموفق .

ولما حل موسم الحج أسرع الشريف عبد الله ينفر العرب إلى جانبه اعتمادا منه على وعد على بك . فأوجس خيفة مساعد ، وأسر ما فى نفسه إلى أمير الحج الشامى الوزير عثمان باشا الصادق ، ورجاه أن يبقى فى مكة حتى يرحل عنها أمير الحج المصرى . وبينما كان عبد الله ينتظر عون ابى الذهب كان هذا يلبس الخلعة السنوية للشريف مساعد تغريرا به . ولما انقضى الحج لم يكن ابو الذهب فى حاجة إلى من يستحثه على الرحيل ، فعـــاد إلى مصر وانهى إلى استاذه على بك كل ما كانت الحملة المنتظرة فى حاجة إليه . أما الشريف عبد الله بن حسين فكان فى مركز لا يسمح له بالتراجع ، فأثار حربا ضد مساعد . لم يوفق فيها . فطلب الصلح ، ثم أسرع إلى على بك بمصر يلح عليه فى طلب المعونة للمرة الثانيـــة ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) .

* * *

وفى أبان ذلك كان على بك قد خلص له أمر مصر وانفرد بالسلطة فيها فاتخذ تلك الحادثة سببا مباشراً للحملة التى كان غرضها الظاهرى مساعدة الشريف عبد الله. بينما كان غرضه الحقيقى منها تعيين شريف لمكة يخلص لمصلحته ، ويضمن بطاعته ولاء ذلك الجزء الهام من الدولة الاسلامية . إذا أن وجود شريف فى مكة من صنائع الدولة العثمانية كان مثارا لمتاعب جمة قد تؤدى الى فساد أمر الحج ، وسخط الحجاج من مصر والشرق ، وتضعف من مركزه فى مصر اذا اقترن وجوده فى الحكم بتلك المتاعب . فتعيين شريف من صنائعه كان عاملا أساسيا فى

نظره يضمن به هدوء الأحوال . ويدخل فى أغراضه أيضا الشهرة التى يجوزها بحمايته للحرمين الشريفين وما كان سيفيده من نفوذ فى مصر ، وهيبة فى بلاد المغرب والسودان وبلاد الشام وما يليها بتأمين الحج للمسلمين .

ولم تكن تلك الاطماع السياسية غايته الوحيدة ، بل كان يرمى من وراء ذلك كله الى مشروع اقتصادى خطير شجعه عليه التاجر البندقى « كارلو روستى » ، وهو ان يؤمن الشواطىء الشرقية للبحر الأحمر فيصبح فى قبضته ممرا أمينا لتجارة الشرق فى طريقها الى مصر ، ثم يجعل من جدة ، الميناء التجارى ذات الشهرة الواسعة حينئذ ، مستودعا وسطا لتجارة الهند والشرق الأقصى يساعد ميناء السويس التى كانت ستقوم فى هذا المشروع بتجارة المرور ويتبع ذلك ضعف الاقبال على استعمال الطريق الذى استحدثه فاسكو داجاما واحدث انقلابا خطيرا فى طرق النقل البحرى بين الشرق والغرب ، وأثر تأثيرا سيئا فى المالية المصرية . ولعل اكبر دليل على صدق ماذهبنا اليه أن الحملة المصرية بعد أن أمنت طريق الحج واقامت الشريف عبد الله الموالى لعلى بك جلت عن الحجاز جميعه ، ولم تحتفظ سوى بحكم جدة حيث عينت حسن بك الجداوى صنجقا ، وابقت معه حامية صغيرة ، كما اهتمت بتنظيم الجمرك كما سنذكر ذلك فى موضعه .

ذكر الجبرتى فى معرض الكلام عن حوادث سنة ١١٨٤ هـ ١٧٦٩ م رواية تحتاج إلى تصحيح قال « فيها (أى فى ١١٨٤ هـ) ورد على على بك الشريف عبد الله من اشراف مكة وكان من أمره انه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف احمد اخى الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب عليه الشريف احمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب إلى ملك الروم واستنجد به فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه وحضر إلى مصر بتلك المكاتبات فى السنة الماضية . . . . » (١)

---

(١) الجبرتى ج ١ — ص ٣٥٠ . وقد اعتمد عليه ديهران Deherain فى تلك الرواية الخاطئة .

وإيراد المسألة على تلك الصورة يحتمل اخطاء تاريخية : اولها انه جعل وفاة الشريف مساعد فى ١١٨٣ والواقع ان الشريف مساعد توفى فى يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم سنة اربع وثمانية ومائة والف وكانت ولايته تسع عشر سنة إلا ثلاثة أشهر (١)

ثم عاد فذكر انه وقع بين الشريف عبد الله وابن عمه الشريف احمد اخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد ، فاستنجد عبد الله بملك الروم الذى اوصى به على بك .

وهذه الرواية تحتمل غموضا يؤدى إلى الخطأ ، فقد وقع تنافس حقا على إمارة مكة بين الشريفين احمد وعبد الله ، ولكنه ليس عبد الله الذى يقصده ، فان هذا تولى الشرافة فعلا ولم يحضر إلى مصر ، وإنما الذى استعان بعلى بك هو ابن عمه عبد الله بن حسين من آل بركات .

ومجمل ماحدث انه بعد عودة المحمل المصرى صحبة ابى الذهب عام ١١٨٣ هـ تم انتصار الشريف مساعد على عبد الله بن حسين فرهذا عقب الصلح الى على بك يستنجده للمرة الثانية . وبينما كان على بك يعد الحملة توفى الشريف مساعد قبل وصول الحمله المصرية إلى بلاب العرب فى المحرم ١١٨٤ هـ (١٧٦٩ م) . وكان قد عقد البيعة لأخيه الشريف عبد الله بن سعيد . فما كاد عبدالله هذا يتولى الشرافة حتى نازعه أخوه الشريف احمد بن سعيد وقال . أنا لها ، انا لها . فنزل له عن الشرافة وقلده اياها ١١٨٤ . وهكذا قدر ان تأتى الحمله المصرية لخلع الشريف مساعد فلا تجده فتضطر فيما بعد إلى خلع الشريف احمد (٢) .

وقد انفرد الجبرتى بذكره ان الشريف عبد الله استنجد بملك الروم فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه (٣) . ومع استبعادنا ذلك من

---

(١) ابن دحلان ص ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) ابن دحلان ص ٣٠٢ ، شمعدانى زاده مرعى التواريخ حوادث سنة ١١٨٧ .

(٣) الجبرتى جـ١ ص ٣٥٠ .

عبد الله ، نعجب كيف ان السلطان العثمانى بعث إلى على بك بمثل هذا الرجاء فى أواخر ١١٨٣هـ (١٧٦٩) او أوائل ١١٨٣ (١٧٦٩) وهى السنة التى وضحت فيها اطماعه وتواياه . فهل كان يريد ذلك ان يغريه على ان يقذف بنفسه وجيشه فى بلاد العرب لينهكه ويقضى على قوته كما طلب ذلك من محمد على فيما بعد ، ام ان الجبرتى اورد ذلك مجرد الايراد دون تثبيت . نحن نرجح ذلك وان كنا لانستبعد تلك الرواية .

* * *

تجهيز الحملة المصرية :

اهتم على بك اهتماما خاصا بتجهيز الحملة فأتم استعداداتها ، ووفرلها ماتحتاجه من ذخيرة وعتاد ومؤن ، ثم اشرف بنفسه على إعداد فرق الجيش . كما اختار بنفسه قوادها فاحسن الاختيار . يقول الجبرتى فى ذلك ان على بك « أمر بتجهيز الذخائر والاقامات وعمل البقسماط الكثير حتى ملئوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور البرانية وبيوت الأمراء المنافى الحالية ، ثم عبوا ذلك وارسل مع باقى الاحتياجات واللوازم من الدقيق والسمن والزيت والعسل والسكر والأجبان فى البر والبحر واستكتب اصناف العساكر — اتراكا ومغاربة وشواما ومتاولة ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك (١) : الى ان يقول « وخرجت التجريدة فى شهر صفر بعد دخول الحجاج فى تجمل زائد ومهيا عظيم وسارى عسكرها محمد بك ابو الذهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك (٢) وذكر صاحب خلاصة الكلام انه كان بالحملة ثلاثة صناجق وثلاثة آلاف من العسكر وثلاثون مدفعا (٣) .

---

(١) يقصد بالقصور البرانية الموجودة فى ضواحى القاهرة ، وبيوت المنافى أى الذين نفاهم على بك وصادر أملاكهم — أما المتاولة فهم حلفاء ظاهر العمر من بلاد فلسطين على غاية من الشجاعة .

(٢) يظهر من رواية فولنى وسافارى ولوزنيان أن المقصود به اسماعيل بك لامصطفى بك

(٢) ابن دحلان ص ٢٠٠

وهاتان الروايتان تشيران إلى امرين مهمين : أولهما خروج الحملة فى وقت غير اوقات الحج كما كانت العادة ، كما ان ذكر اسماء القواد وهم أميز من كان لدى على بك وأمرسهم فى ذلك الحين يدلنا على ما كان يعلقه من اهمية على نجاح اولى حملاته الخارجية .

* * *

سير الحملة وعوامل نجاحها .

أشرف ابو الذهب قائد الحملة على شحن الذخائر والمهمات فى مراكب ثلاث من القلزم (السويس) ثم سارت الحملة عن طريق البر . وبدأ ابو الذهب باحتلال ينبع حتى يمهد لنزول الذخائر والمؤن التى ارسلت بحرا . ولما رفض وزيرها درويش أغا أن يسلمها إلا بأمر من الشريف احمد ، دخلها ابو الذهب عنوة وقتل متوليها جزاء عناده فى أوائل ربيع الأول ١١٨٤هـ (١١٦٩) [١] . ثم تقدم يريد مكة فاسقط فى يد الشريف احمد لقلة من خف لنجدته من الرجال وعدم كفاية ما عنده من مال فاخرج حريمه إلى الطائف « وأقام بمكة بمن عنده من العسكر ، والناس بين مصدق ومكذب ، ومهون ومصعب . ولما ظهر الأمر وتحقق أرسل الشريف احمد للعربان يطلبهم . وهو خلى من الدرهم والدينار فاجتمع عنده نفر يسير ثم تفرق أكثرهم [٢] . » وبعد محاولات خاسرة من جانب الشريف احمد لجمع رجاله أو لتقوية الروح المعنوية فيهم طلب الأمان وغادر مكة الى الطائف فى منتصف ربيع الأول ١٨٨٤ .

وبعد ثلاثة أيام دخل ابو الذهب مكة ونزل بدار الحكم وكانت تسمى « دار السعادة [٣] . » ثم تولى الشرافة عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات . ويقال أن الشريف عبد الله تأثر كثيرا لما اظهره نحوه على بك وابو الذهب من

---

(١) ابن دحلان ص ٢٠٢ .

(٢) ابن دحلان ص ٢٠٣ .

(٣) يقال أن موضع دار السعادة هو مكان التكية المصرية الآن .

عطف ومعونة فمنح على بك لقب « سلطان مصر وخاقان «البحرين» اعترافا منه بما له عليه من فضل (١) .

غير أن الشريف السابق لم يرض بما حدث ، فجمع بعض العربان وقصد الطائف فدخلها دون قتال واغتصبها من الشريف عبد الكريم بن حسين اخى شريف مكه . ثم تقدم احمد يريد مكه واناخ بعرفة ومحصن هناك . ولكن ابا الذهب فاجأه بها واضطره إلى طلب الصلح بعد قتال شديد فتخلى عن الولاية للمرة الثانية والأخيرة (٢) .

وفى أثناء ذلك تقدم حسن بك شبكه الصنجق المصرى على رأس فرقة إلى جدة وتملكها باسم على بك ، ثم حكمها بدل الباشا الذى كان يتولاها من طرف السلطان (٣) .

ولم أتم القواد ما أمرهم به على بك بقى حسن بك بجدة وعاد ابو الذهب على رأس جيشه الظافر وبصحبته اسماعيل بك إلى مصر فى عشرين جمادى الأولى وكان وصولهم إلى القاهرة فى أوائل رجب من السنة نفسها حيث استقبلوا استقبالا حافلا (٤)

* * *

ومما يدعو إلى الدهشة ان تلك العمليات الحربية لم تستغرق أكثر من شهر واحد ، وان مدة الحملة كلها لم تستغرق اكثر من ستة أشهر بما فيها مدة الذهاب والعودة والاقامة بمكه وغيرها .

ومما لاشك فيه ان كمال المعدات الحربية وتمام استعدادات الحملة من مئونة

---

(١) Savary, T. 2 p. 230.

(٢) ذكر الأمير حيدر فى تاريخه ج ١ ص ٨٠٠ أن أبا الذهب طرد الشريف مساعد والصواب أنه طرد أحمد .

(٣) هـذا هو السبب فى تسمية حسن بك شبكة بالجداوى نسبة إلى جدة .

(٤) الجبرتى ج ١ ص ٣٥١ .

وذخيرة وعتاد ، ووفرة جند ، مع شهرة المماليك الحربية ، وذكاء ابى الذهب[١] كلها مجتمعة هى التى كسبت الحرب . كما لايفوتنا ان نشير إلى ان بلاد الحجاز كانت على اتم استعداد لاستقبال أول قادم . فالوحدة العربية كانت منعدمة تماما ، والمنازعات الداخلية كانت قد ارهقت القبائل فى تحزبها لشريف ضد آخر[٢] . كما انه لحسن حظ الحملة كان الجو السياسى مهيأ لنجاحها ، فالشريف احمد لم يكن سوى مغتصب للولاية ، ولم تكن قد مضت عليه مدة طويلة تمكنه من تثبيت نفوذه أو تنمية موارده . فلم يكن لديه ما يكفيه لنضال جيش مدرب مثل الجيش المصرى الغنى بجنده وماله وسلاحه . كما ان انقطاع المعونة الخارجية سواء من الشام أو تركيا اوجد الشريف احمد فى مركز العاجز الذى اسقط فى يده .

ولا شك فى ان انضمام فريق كبير من العرب واشرافهم إلى قضية الشريف عبد الله بن الحسين ومساعدتهم الجيش ابى الذهب جعلت النصر فى جانبهم . وهكذا اجاد على بك الاستعداد واتقن ابو الذهب التنفيذ فكان النصر المبين .

---

(١) ظهر ذكاء أبى الذهب فى عدة أمور سياسية وحربية أهمها نجاحه فى أن خذل العرب عن نصرة الشريف أحمد ، وإسراع جنده إلى قطع طرق تموين جيش الشريف أحمد بمكة أيضاً .

(٢) أحمد واصف — محاسن الآثار ج ١ ص ٢٩١ .

الفصل الثانى

حمـــلات الشام

حكم الشام فى عهد العثمانيين ــ مقدمات الحملة المصرية ــ الحملات التمهيدية ــ تجهيز الحمـــلة المصرية ــ أغراض على بك من حملة الشام .

حكم الشام فى عهد العثمانيين .

منذ انتصر سليم الأول فى غزة (ديسمبر ١٥١٦) تقررت السيادة للعثمانيين على بلاد الشام ، فعين جان بردى الغزالى حاكما لدمشق مكافأة له على معاونته فى مرج دابق ، والحق به نيابة حماه وما وليها جنوبا أى سورية وفلسطين ماعدا حلب ، وهى همزة الوصل بين الأناضول وسورية ، جعلها تحت حكم باشا عثمانى .

وتعاظم نفوذ الغزالى حتى إذا ما توفى السلطان سليم ١٥٢٠ اعلن نفسه سلطانا باسم « الملك الأشرف » وساق الجيش لقتال العثمانيين . ولكن هزمه فرهاد باشا وقتل الغزالى المعركة ٢٧ يناير ١٥٢١ . وكان آخر عهد المماليك بحكم الشام.

وقسم السلطان سليمان بلاد الشام إلى ثلاثة اقسام ادارية كبرى وهى ولايات حلب (من تسع صنجقيات تشمل سورية الشمالية) ، طرابلس (من خمس صنجقيات) ، دمشق (من عشر صنجقيات وتشمل جنوب سورية وفلسطين) وعهد بحكمها إلى باشوات من الاتراك (١) . أما من الناحية الحربية فقد جعلت الفرق العثمانية فى الشام تحت قيادة قائد عام يقيم فى دمشق لقبه « مشير العرضى الهمايونى الخامس » أى قائد الجيش السلطانى الخامس .

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٢٢٧ .

ولما وافى عهد السلطان مصطفى الثالث[١] كانت بلاد الشام — كما نظمت سنة ١٦٦٠ م — مقسمة اربعة اقسام كبرى باسم «ايالات»[٢]: سورية الشمالية وتعرف بايالة حلب، سورية الوسطى الشرقية أو ايالة دمشق (وتتبعها صنجقيات بيت المقدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت) سورية الوسطى الغربية أو ايالة صيدا لحكم الجبل. ثم سورية الجنوبية أو ايالة القدس الشريف[٣].

وكانت كل ولاية مستقلة بشئونها عن غيرها، يتصرف فيها الوالى يعاونه مجلس شورى مؤلف من بعض العلماء والأعيان. هذا عدا بعض الموانى الهامة كطرابلس واللاذقية جعلت تحت حكم باشوات عثمانيين.

* * *

ولم تكن ولايات الشام أسعد حالا من الولايات العثمانية الأخرى أو من الدولة العثمانية نفسها، فقد تجلى فيها فساد الحكم فى أسوأ مظاهره فسادت الرشوة والقسوة والظلم، وانتصر الباطل على الحق لجهل القضاة وجشعهم. واساء الجند استعمال نفوذهم فكانوا «كالوحوش الضارية فى فسقهم وفجورهم، أعمى الجهل ابصارهم، وضربت القحة اطنابها فوق رؤوسهم. وكانوا كثيرا مايقتلون الناس لغير سبب كتجربة سيف أو بندقية بأحد المارة.» وبلغ من سلطانهم ان قال الرحالة فولنى يصف الحكومة العثمانية فى سورية «إن حكومة الترك فى سورية حربية استبدادية بمعنى ان سواد الشعب يخضع لرغبات فئة من ذوى السلاح تسيرهم مصالحهم واهواؤهم[٤]»

---

(١) ولد سنة ١٧٢٦ وتولى ١٧٥٧ وتوفى ١٧٧٤.

(٢) يقصدون بالوالى كل من يلى أمر الحكومة فى أى بلد ولو كانت قرية. ويشبههم المؤرخ جودت العثمانى بالمأمور — أما صاحب الإيالة فهو الحاكم العام للايالة من قبل السلطان بيده السلطة الإدارية والمالية والقضائية والحربية فهو ولى السلطان وتطلق عليه كلمة والى جوازا.

(٣) Lammense : La Syrie T, 2. pp: 69—60.

(٤) Volney : T. s p. 241.

وجاء التعصب الدينى ضغثا على ابالة ، فأصبح الفرد منهم يستبيح نفس من لا يعتنق دينه أو مذهبه ويستهين بعرضه وماله . فاذا لاحظنا ان كان هناك مايزيد على عشرة مذاهب واديان فى تلك البلاد استطعنا ان نكون فكرة أولية عن مدى القلاقل والاضطرابات والفوضى التى سادت تلك الأنحاء . فلما زالت هيبة القانون ، وزهق الحق بفضل الرشا ، وظهرت وحوش الإنسانية من جند ورعاع ظهرت طائفة من الأشداء ذوى المروءة من المسلمين وغيرهم يناصرون الضعيف ويحمون ذمار المستضعف. وكان القوم يحسبون حسابهم ويلقبونهم «بالمعتبرين». وليس ادل من ظهور هذه الطائفة على مدى ماوصل إليه النفوذ العثمانى من ضعف فى تلك البلاد (١) .

وكان الولاة يعهدون بالحكم إلى شيخ المشايخ ، وهذا يولى المشايخ ، فيولى هؤلاء معاونين لهم فى الحكم وهم فى الحقيقة معاونون لهم على سلب أموال الرعية الجاهلة فيملأون جيوب مشايخهم ، وهؤلاء يشبعون جشع الوالى فلا يرسل إلى الاستانة سوى النذر اليسير . ذكر الرحالة فولنى أن مجموع الضرائب الكلية التى دفعها أهل سورية فى إحدى السنوات يبلغ ٢٤,٦٠٠ كيسا ، لم يصل منها إلى خزانة استامبول سوى أقل من العشر أى ٢,٣٤٥ فقط . ولم تكن تلك الأموال تصرف فى سبيل العمير والاصلاح وإنما كانت تدخل جيوب الحكام .

ومارس الولاة العثمانيون فى ايالات الشام سياسة قائمة على التفريق بين العناصر واهمال كل شىء عدا جمع المال . إذ كان المال فى الدولة عماد الحق ، ودعامته الكبرى فأوجدوا هناك نوعا من الفوضى ، شجعه تعيين الحكام وعزلهم بسرعة تحول دون الاستقرار وتدعو إلى الأنانية . حدث أن تقدم تجار حلب إلى باشا طرابلس يرجونه إصلاح ميناء اللاذقية فاجابهم معتذرا بقوله « كنت بالأمس

---

(٣) ميخائيل مشاقه ، مشهد العيان ، ص ٢٢ — ٣٩ .

فى مرعش ، وربما انقل غدا إلى جدة ، فلم احرم نفسى الآن مما لاامل فيه فى المستقبل » (١) .

وعلق على ذلك الاستاذ محمد كرد على صاحب «خطط الشام» بقوله : «ان ابن الشام لا يهتم كثيرا إذا بلغت جيوش الدوله العثمانية أواسط اوربا فى فتوحها، وفتحت فينا وبودابست . ولا يهتم ايضا إذا اكثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغارم مادامت الجباية فى بلاده مختلة ، منهكة لقواه، ومادام الولاة يسعون لأن يأخذوا المكوس من الخانات ومن المسكرات، وما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات والمومسات، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل إليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان والايجار . وما دام الأمن مختلا ، وأهل البادية ولصوص الأعراب على عاداتهم فى السلب والنهب ، ومن المتعذر ان ينتصف المظلوم من الظالم ، وان تعمل الدولة فى باب العمران جزءا مما تأتى بتخريبه .

ولم يكن ابن الشام يتبرم بنظام الدولة لزيادة الجباية ، بل لأن الجباية كانت على غير قاعدة مطردة . فقد تجبى جباية سنتين أو ثلاث فى غير أوقاتها فى آن واحد ، ولا تراعى أعوام القحط والجدب والمصائب . . وإذا ضاقت الحال ببعض العقلاء أو ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجا ، وقاتلوه وحرفوا دعوته على ولاة الأمر فى الأستانة ، ولبسوا على العامة فى أمره حتى يسكتوا نأمته ، ويزيفوا دعوته ؛ وإلا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الأمة من هذه الطريقة المعوجة فى الادارة فالخير فى الناس ماانقطع ولن ينقطع، ومهما بلغ شعب من الانحطاط لايخلو من نبهاء يجاهرون بالحق ولو كان فى المجاهرة حتفهم أحيانا .

---

(١) Thoumin : Histoire de la Syrie. p. 257.

وقد مهر رجال هذا الدور (١١٠٠ — ١٢٠٠هـ) فى تزييف الباطل ، والباسه ثوب الحق ، وتقليل عدد المتهالكين والشاكين والثائرين والناقمين إذا نشبت ثورة أو حدثت فتنة أو تألفت جماعة لمقصد وطنى . وكثيرا ما كانوا يصورون العذاب الأليم فى صورة نعيم مقيم . . وغدا قتل الانسان ، وسبى النساء والصبيان وخراب العمران من الأمور المألوفة . . وعد المتأخر عن الجباية عاصيا ان خاف منه الوالى سلط عليه جاره . . . الخ »[١].

وكانت طبيعة بلاد الشام وموقعها الجغرافى مما يشجع مثل هذه السياسة . فهى منذ القدم نقطة تلاقى الشرق بالغرب ، وأهل الشمال بأهل الجنوب اختلفت فيها الأجناس ، وتلاقت فيها الأديان منذ القـــدم . فبينما وطأها الآشوريون والبابليون والفينيقيون والفرس واليونان والرومان والعرب والسلاجقة والاكراد والأيوبيون والصليبيون ، على اختلاف جنسياتهم ، والمماليك والعثمانيون وتركوا آثارهم بها ، نجد بها بيت المقدس وحرمها المقدس عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء . وبين هؤلاء وهؤلاء نشأت ملل ونحل ومذاهب ، وتكونت جماعات متنافرة حيثما اختلفت طبيعة الاقليم فى تدرجها من السهول الخصبة إلى الجبال الشماء التى اتخذوها قلاعا حصينة [٢] .

ورغم ما كان يدعيه الباب العالى من النفوذ والسلطان على بلاد الشام ، فإن سلطته — فيما عدا مراكز الايالات وبعض الموانى — كانت أسمية فى الواقع ونفوذه لا يتعدى دائرة الوالى الذى يمثله . ذلك لأن شعوب الشام وقبائلها تجاهلت الحكم العثمانى الى حد ما ، وراح أفرادها يزاولون تقاليدهم الخاصة ، ولا يدينون بالولاء الحقيقى إلا لمن أقاموه رئيسا حسب ما جرى عليه العرف عندهم

ففى سورية الشمالية — إيالة حلب — كان بطش قبائل الاكراد الأقوياء يهدد النفوذ العثمانى فيما بين حلب والاسكندرونة ، حتى لقد اضطرت الدولة

---

(١) محمد كرد على ، كتاب خطط الشام ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) Lammense : La Syrieet son importance Geographique p, 34.

إلى تسيير قوافل التجارة بين هاتين المدينتين عن طريق انطاكية ، رغم طول الشقة ، تجنباً لبطشهم (١)

وفى سورية الوسطى كان لدى الدولة أقوى وأنشط الشعوب من سلالة الفينيقيين ، فى جبال لبنان ووديانة وساحله من بيروت حتى طرابلس ، وهم طائفة الدروز الأشداء الذين كانوا فى معظم الأحيان حسكة فى حلق باشا صيدا ، وعونا له على أعداء الدولة، وأعوانهم متى أرادوا ، كما كانوا يتمتعون باستقلال داخلى تام .

وإلى الجنوب منهم أى من جنوبى بيروت حتى مدينة صور كانت بلاد المتاولة وهم من الشيعة أعماهم التعصب المذهبى ، فاقاموا حربا عوانا على العثمانيين وهم من أهل السنة فكانوا يقاتلونهم متى ظفروا بهم .

ولسنا نغالى إذا قلنا أن تاريخ الشام فى تلك الأيام مرتبط أشد الارتباط بالنزاع الذى كان لاينقطع بين أمراء أسرة الشهابيين . ففى عهد السلطان مصطفى الثالث — المعاصر لعلى بك — حدث أكبر انقسام للشهابيين ، عندما أغرى الأمير ملحم الشهابى الوالى السابق ، ابن أخيه الأمير قاسم ، على الثورة ضد ولاية عميه الأميرين أحمد ومنصور .

وبعد نزاع طويل واشتباكات متعددة انتهت الثورة بقتل الأمير قاسم . ولكن كان خروجه من ساحة القتال فاتحة النزاع بين الواليين الشقيقين أحمد ومنصور سنة ١٧٦٢ ، وانقسام اللبنانيين إلى حزبين كبيرين حزب اليزكية نسبة إلى الشيخ عبد السلام العماد زعيمهم ويرأسه الأمير أحمد ، وحزب الجنبلاطية نسبة إلى الشيخ على جنبلاط وعميده الأمير منصور (٢) . وتم آخر فصول هذا النزاع مع انتهاء الحملة المصرية على الشام كما سنفصله فى مناسبته بتولى الأمير يوسف شهاب ابن أخيهما الأمير ملحم .

---

(١) Eton ; Tableau Historique. T. 11. p. 7. Cité par lavalleé p. 390

(٢) يوسف الدبس : تاريخ سورية المجلد السابع ص ٣٨٥ — ٣٩٠ .

أما فى سورية الجنوبية فلم تكن الدولة تجاهد قبائل أو عشائر ، وإنما كانت تناضل ، فى السر حينا وفى الجهر أحيانا ، فردا واحدا يفوق خطره خطر أولئك جميعا . كانت تكافح نفوذ ظاهر العمر(١).

ولظاهر هذا قصة مثيرة شيقة لا تقل فى امتاعها عن قصة على بك الكبير وهى جديرة بالبحث لأن تاريخه فى الواقع ، كما قال صاحب ترجمته ميخائيل نقولا الصباغ ، هو تاريخ نهضة فلسطين وحريته واستقلاله وتجديد عمران مدنه فى فى وقت من الأوقات . (٢)

ويرجع ظاهر فى نسبة إلى جده زيدان من أشراف بنى زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ارتحل مع أسرته إلى الشام فى أواخر القرن السابع عشر واستقر بهم المقام فى منطقة صفد وحول بحيرة طبرية ، وكانت تتبع إيالة صيدا. وتزعم زيدان فلاحى تلك المنطقة ، وأخذ التزام طبرية من والى صيدا . ولما توفى، تمكن ابنه عمر من ان يصبح شيخا على بلاد صفد ١٦٩٨ بكفالة الأمير بشير الشهابى الكبير أمير الدروز وصديق والى صيدا (٣) .

وكان عمر حميد الصفات متعدد الكفاءات فانتشر عدله حتى عم رعيته ، وذاع صيته خارج منطقته حيث كان الأهالى يعانون الأمرين من ظلم العثمانيين والمشايخ القساة . وولد لعمر أولاد نبغ منهم ظاهر ، فقام على تربيته وتثقيفه ثقافة علمية ، وعسكرية . فلما توفى عمر تطلعت أنظار أهل بلاد طبرية وصفد

---

(١) يستفاد مما كتبه المؤرخ العثمانى جودت باشا أن الترك يحررون اسمه «ضاهراً» بالضاد وينطقونها بالظاء . وقد ذكر أنه اشتهر فى كثير من الجهات «بطاهر» بالطاء المهملة وهو خطأ جودت ج ١ ص ٢٧٣ — وقد سمته المصادر المعاصرة ظاهراً، وحررت اسمه هكذا . كما نقش بهذه الصورة على سور عكا . ويلقب بالعمر نسبة إلى والده عمر ، وقد أضيفت إلى اللقب أداة التصريف (ال) للتعظيم لا للتعريف حسب تقاليد أهل فلسطين — ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٥٤ .

(٢) ميخائيل نقولا الصباغ : الشيخ ظاهر العمر الزيدانى ص ٢ .

(٣) الأمير حيدر الشهابى : تاريخ الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٠ .

إلى ظاهر فاختاروه حاكما عليهم ، واضطر محمد باشا والى صيدا إلى تثبيته ١٧٣٣ .

وقد وصفه صاحب ترجمته بقوله أنه « كان أبيض اللون ، ممتلىء الوجه ، واسع العينين ، ذا فم صغير ، حواجبه طويلة مقرونة ، ذا أنف مدور ، معتدل الشكل ، طويل الذراعين والأصابع ، نحيف الجسم مربوع القامة متوسط الطول خفيف الذقن والشوارب ، أسود الشعر بالأصل ، ذا لحية مدورة » (١) .

وأخذ ظاهر العمر يوسع منطقة نفوذه على حساب إيالتى دمشق وصيدا ، رغم أنف واليهما ، حتى صار متصرفا فى صيدا (١٧٣٣ م) ويافا وحيفا والرملة ونابلس (١٧٣٥) وصفد (١٧٣٩) وعكا (١٧٤٤) أى جميع البلاد التى نسميها الآن فلسطين ، ثم جعل عكا مركزا لشياخته الواسعة (٢) .

وكان ظاهر كثير البنين ، تزوج بالكثيرات وانجب الكثيرين . أقام من أبنائه حكاما على القلاع الهامة فى أملاكه . فأقام ابنه البكر صليبى فى طبريه ، وعثمان فى دير حنا وحصن عجلون ، وعليا فى قلعة صفد ، وسعيد فى الناصرة ، ولبث هو مقيما فى عكا يشرف عليهم (٣) .

هذا ولم يكن للحيوية السياسية فى لبنان نظير فى بلاد الشام سوى فى فلسطين حيث كان ظاهر العمر . وقد كان طبيعيا بعد أن تفانت رعيته فى الاخلاص له ولأسرته أن يتطلع إلى خارج حدوده ، لاسيما وأن اطماعه كانت كما يقولون « تكبر مع سنه » ، وكان طبيعيا كذلك أن يصطدم بجيرانه فى الشمال أمراء بنى متوال ذوى البأس الشديد فحاربهم وأسر أبناء شيخهم ناصيف النصار فاضطر هذا إلى أن يعقد معه معاهدة هجومية دفاعية . وارتبط الطرفان برباط صداقة لم تنفصم

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٤٩ .

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٠ .

(٣) تزوج من ست نساء وجاريتين ، وأنجب ثمانية ذكور هم صليبى وعثمان واحمد وعلى وسعيد وصالح وسعد الدين وعباس .

عراها حتى آخر حياته ، أساسها الرغبة المشتركة فى تقوية نفوذهما على حساب الدوله العثمانية . (١)

واستمر ظاهر يتوسع نحو الشرق والشمال والجنوب بمساعدة جيوشه وسواعد حلفائه المتاولة الاشداء ، تقره الدولة العثمانية لعجزها مرغمة ، وتحرض عليه والى دمشق ولكن دون جدوى . وأخيراً اضطرت الدولة سنة ١٧٦٨ إزاء ضغط الحوادث وقت اشتداد أزمة الحرب الروسية التركية الى الاعتراف له بكل ماوضع عليه يده من أملاك ، ومنحته لقب « شيخ عكا وأمير الأمراء حاكم الناصرة وطبريه وصفد وشيخ أقليم الخليل »(٢)

وقد جاء فى أحد التقارير التى كتبها أحد قناصل فرنسا فى صيدا عن ظاهر ماترجمته « انه يتمتع الآن بسلطة مطلقة لأحد لها ، يطيعه حلفاؤه بقدر ماتطيعه رعيته . وهو وان كان فى استطاعته أن يجهز للقتال ستة آلاف فارس إلا ان أمواله لاتحصى وكفاءته لاتستقصى — وقد كان مباركا فى كل أعماله ، وعاونته أسرته الوفيرة العدد فى كل مشروعاته ، رغم ما كان يحدث بين أفرادها أحيانا من شقاق . وثمة مسألة انفرد بها ذلك الشيخ هى انه وهو فى سن الثمانين كان يتزوج كل عام بيافعة فى ربيعها الثالث عشر أو الرابع عشر » (٣) .

ويعلق المؤرخ شارل روعلى ذلك بقوله : أن شخصيه ظاهر المع شخصية ظهرت فى الشرق فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأنه رغم تجاوزه الثمانين فقد احتفظت قواه العقليه وقدرته الجسميه بنشاط خارق للعادة (٤) .

تلك كانت حال بلاد الشام وقت ان كان على بك فى مصر يمهد لنفسه طريق السلطة : انعدام الوحدة السياسية وفساد النظم الحكومية ، واضمحلال السيادة العثمانية ، واهمال الاصلاحات العمرانيه . يقابل ذلك الاتحاد الوثيق بين ظاهر وحلفائه

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر ص ٣٦ — ٤١ .

(٢) Volney : Voyages.. T2. Chap. IV, Précis de L'His. de Daher. P. 228.

(٣) Deherain : T. V p. 132

(٤) Charles-Roux : Echelles... P,86

المتاولة . وبينما كانت البلاد الواقعة تحت حكمه تتمتع بهدوء شامل ورعاية دائمة ؛ كانت بلاد الدروز التي يعتمد عليها الباشوات العثمانيون في صد مطامع ظاهر تمزقها الخلافات الحزبية والتنافس على الأمارة بين أفراد أسرة الشهابيين .

* * *

مقدمات الحملة المصرية .

وكانت الدولة العثمانيه قد اتخذت الأهبة للقضاء على الخطر المنبعث من فلسطين ، فعينت عثمان باشا واليا على دمشق ١٧٦٠ ، ثم ضمت إليه بيت المقدس ١٧٦٥ ، وعهدت إليه اتخاذ مايروقه من الوسائل للقضاء على ظاهر العمر . ثم عينت ابنه محمد باشا واليا على طرابلس الشام ، وابنه الثاني درويش باشا على صيدا حتى تتسق أعمالهم وتتوحد جودهم (١) . كما صدرت الأوامر إلى والي حلب وأمير الدروز بأن يكونا عونا لعثمان باشا في كل أعماله (٢) . وحرضت أهل نابلس على مشاكسة المتاولة حلفاء ظاهر . فنشأت من ذلك كله قوة متحدة دائمة يرأسها باشوات أربعة وأمير الدروز ، وتشد أزرها حاميات من ايالات حلب ودمشق وطرابلس وبيت المقدس ودروز لبنان الأقوياء . ولم يكن لظاهر من قوة العدد والعدة ما يوازي به تلك القوة المتحدة الساحقة ، ففكر في طلب المساعدة من علي بك الكبير شيخ البلد في مصر ؛ وكان ظاهر قد آواه وأكرمه عند ما نفي إلى فلسطين في مارس سنة ١٧٦٦ م (١١٧٩ هـ) ، واستشف نياته في أثناء إقامته عنده . وكان علي بك من جانبه يحتفظ بجميل ظاهر ولا يرد له طلبا .

---

(١) اسمه عثمان باشا الكورجي ، ويلقب بالصادق لأنه كان من مماليك أسعد باشا العظم أحد ولاة الشام السابقين ويحبه لنباهته . فلما قتل أسعد باشا سألته الدولة عن أموال سيده فأخبرها بالحق فلقبته بالصادق — تولى دمشق سنة ١١٧٤ هـ ١٧٦٠ م — أنظر محمد كرد علي . كتاب خطط الشام ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) Deherain, T.5-P. 131

وقد حدث عندما تمكن على بك من دخول القاهرة فى اكتوبر ١٧٦٧ بعد عودتهما من الصعيد ، واستقر نهائيا فى مشيخة البلد أن نفى معلم دواوينه « ميخائيل الجمل » وكان هذا قد رفض أن يمده بالمال وهو بالصعيد(١) والتجأ ميخائيل إلى ابراهيم الصباغ وزير ظاهر العمر فنشفع له هذا عند صديقه على بك ، وأرسله إلى مصر مصحوبا بخطاب وهدية من كرام الخيل . « وكان ظاهر بخوف من الدولة إذ كانت تحضر له الأخبار من عيونه من اسلامبول بما كانوا يكتبون إلى عثمان باشا لاغتياله والقضاء عليه ، ومن ثم أراد ظاهر بهذا الداعى أن يفتح سبيلا لمكاتبة على بك ليخطب وده ، ويتقوى به على عثمان باشا الشام ... »

وصادف ذلك هوى فى نفس على بك الكبير فأرسل إلى ظاهر جوابا «ضمنه كل شكر ومحبه وأنه عمل بما رغب إليه بشأن ميخائيل الجمل . ثم سأله إذا كان يحتاج إلى نجدته ومساعدته على عثمان باشا ، لأنه بلغه أن الدولة كانت تغريه على قتاله واغتياله . ثم شجعه بأن لايخشى بأسا من عثمان باشا ولا من الدولة ، وأنه ينبغى أن يكون دائما على حذر من مكر رجالها (٢) .. »

وعندما تخلص على بك من الباشا العثمانى ١٧٦٨ أرسل يخبر ظاهرا بالأمر ، ويعرض عليه الاتحاد ضد مكايد العثمانيين (٣) . وأسرعت الدولة فأمرت عثمان

---

(١) انفرد الصباغ بذكر قصة ميخائيل الجمل وملخصها أنه كان معلم دواوين مصر ، فلما نفى على بك إلى الصعيد أرسل خطابا اليه يطلب منه مالا وثيابا فرفض وعلم بذلك ميخائيل فخر أحد ثراة تجار دمياط فأرسل إلى على بك حاجته مع رسالة قصيرة نصها « وان لم يكن لى سعد ثاقب يشرفنى بمعرفة الحضرة العلية قبل الآن فانى رأيت أن أرسل اليه ، ان كانت تسمح الحضرة بقبوله ، ما أنا مرسله له مع خادمى مما امتنع عن ارسال بعضه خادمكم » فلما نجح على بك فى العودة نهائيا إلى القاهرة عزل الجمل وعين بدله ميخائيل فخر (ص ٩٠ — ٩١)

(٢) الصباغ : ص ٩٠ — ٩٦ .

(٣) كان رسوله إلى ظاهر الشيخ (محمد المهدى) انظر :

Marcel : Contes du Chey Kh. El-Mohdy. v.I- P.30.

باشا أن يبذل أقصى جهده ليحول دون تلاقى الجيشين : المصرى والفلسطينى ، فعول هذا على مباغتة ظاهر فى عقر داره ، وسار بجيشه حثيثا، غير أن ظاهر لم يكن بالأبله فيؤخذ على غرة . ورغم عجزه عن مقابلة تلك الجحافل بمثلها فانه ركن إلى الحيلة وعزم على أن يحاربهم « بالخمر بدل السلاح » فأسرع وجمع ما يقوف على تسعة آلاف فارس عسكر بهم شمال بحيرة طبرية ، وكلف ابنه عليا أن يشاغل الجيش العثمانى دون أن يدخل معه فى معركة جدية ، وأن يتقهقر بانتظام صوب المعسكر . ثم قسم جيشه هو إلى ثلاثة أقسام أمر الجناح الأيمن وعلى رأسه ابنه صليبى بالتقهقر وبالاختفاء فى المرتفعات الغربية للبحيرة . وأمر الجناح الأيسر وعلى رأسه صهره الشيخ كريم بالتقهقر تجاه لبنان شمالا بغرب . وما وافى المساء حتى كان قلب الجيش وعلى رأسه ظاهر يتقهقر إلى الجنوب تاركا كل ما يملك من ذخيرة وعتاد ، ثم أشعل النيران هنا وهناك تضليلا للعدو ، واعتمد فى نجاح هذه الخدعة على الخمر ، إذ زود المعسكر بكل ما يكفى الجيش المهاجم من مسكرات . وفى جنح الليل تقدم عثمان باشا منتصرا أمام جيش على ظاهر المتراجع ، ثم اطبق على معسكر ظاهر فرأى آثار التقهقر السريع غير المنتظم فأيقن بفرار جيش ظاهر وسمح لجيشه بالراحة فى معسكر عدوه بعد هذا النصر المبين . . . واحتفل بذلك فأتوا على ما احتواه المعسكر من خمر ثم راحوا فى سبات عميق، وفى غسق الفجر داهمهم جيش ظاهر وجناحاه فقتلوا وأسروا الكثيرين ، وغنموا كل ما كان لدى عدوهم من ذخيرة وعتاد . وفر عثمان باشا مذعوراً إلى دمشق فدخلها محتميا بأسوارها (١) .

وأسرع ظاهر فاستخلص صيدا من واليها درويش باشا ابن عثمان باشا . وشجع هذا النصر مدن يافا وغزة والقدس والخليل فطلبت حماية ظاهر ففعل ، وأرسل

---

(١) يقال ان عدد جيش على ظاهر كان لا يتعدى ١٥٠ فارس وأن رجال الشيخ لم تكن تزيد عدتهم على ٩ آلاف فارس بينما كان جيش عثمان باشا يتكون من ٢٥ ألف مقاتل فقد منهم فى موقعة طبريه ما لا يقل عن الثلث . حيدر ج ٢ ص ٨٠٢ .

يطلب من الدولة أن تقره على ماملك مقابل خمسمائة كيس تدفع سنويا فوافقت. وفى نفس الوقت اعتذر عثمان باشا عن هزيمته للدولة بتأخر الدروز عن نصرته فى معركة طبريه السالفة فقبلت اعتذاره وزودته بفرمان يسمح له بطرد ظاهر من يافا (١) .

« وإذ بلغ ذلك الى ظاهر كتب إلى على بك فى مصر يخبره — ويشكو له من خيانه الدولة ، وأنه كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لاتلبث بأن ترسل إلى عثمان باشا تحثه على أن يغزوه ويقاتله » ثم طلبت من على بك أن ينجده لرد عثمان باشا عن يافا وبلاد القدس والخليل ، وكان ذلك فى أواخر سنة ١٧٧١ (٢) .

* * *

الحملات التمهيدية :

وفى تلك الأثناء كان على بك قد وجه جيوشه فى اواخر سنة ١٧٧٠ إلى بلاد الحجاز كما اسلفنا ، وعادت فى أواخرها مظفرة تحمل أكاليل النصر الأول ، فعزم على إرسال حملات استكشافية إلى بلاد الشام ليدرس على أساسها طريق الغزو ، ومدى قوة ظاهر وعثمان ، وكل ماتحتاج اليه الحملة ليتم تجهيزها على أكمل وجه ، لاسيما وقد بعد العهد بين الجيش المصرى المملوكى وبلاد الشام . فمنذ ١٥١٦ لم ترسل مصر حملة باسمها تعمل لحسابها الخاص فى تلك الجهات .

فى منتصف رجب ١١٨٤ هـ (١٧٧٠ م) عين على بك القائد عبد الرحمن أغا الانكشارية على رأس تجريدة مهمتها « تأمين الطريق » بين مصر وفلسطين . فقامت هذه التجريدة بمهمتها خير قيام ، وطهرت الطريق من العربان ، وتمكنت

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ . ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) الصباغ ص ١٠٤ .

من قتل « سليط » شيخ عربان غزة وأخوته وأولاده ، إذ كان وجوده خطرا يهدد خط تموين الحملة (١) .

ثم كانت الحملة التمهيدية الثانية فى نفس الشهر ، وهى ما يمكن أن نسميها « حملة جس النبض » غرضها الظاهرى مساعدة الشيخ ظاهر ضد عثمان باشا بينما كان القصد منها معرفة قوة كل من ظاهر وعثمان ، والعدد التقريبى للجيش الغازى الذى سيخرج من مصر ، مع ما يحتاجه من مئونه وذخيرة . وقد جهز على بك تلك الحملة الثانية تجهيزا حسنا ، وأقام على رأسها إسماعيل بك يساعده على بك الطنطاوى وعلى بك الحبشى .

وقد ذكر المؤرخون أن عددها لم يكن يقل عن عشرة آلاف مقاتل كاملى العدة . (٢) — كما ذكر لنا الجبرتى أن هذه الحملة سارت عن طريق البرقى أواخر رجب ١١٨٤ هـ (١٧٧١ م) وأن على بك اتبعها بتجريدة أخرى عليها أحد الصناجق والكشاف ، رحلت من دمياط بحرا فى أواخر رجب أيضا ، ثم اتبعها بثالثة برية فى منتصف ذى القعدة .

ولا شك فى أن هذا كله يشير إلى رغبة على بك فى تقدير عدد الحملة الرئيسية تقديراً صحيحاً .

* * *

وكان عثمان باشا فى ذلك الوقت يقوم بجولته السنوية بايالة القدس ، فلم يكد

---

(١) رغم أهمية هذه التجريدة فقد تجاهلها المؤرخون عن غير قصد . وانفرد الجبرتى بذكرها جـ ١ ص ٣٥١ . وقد ترجم الجبرتى لعبد الرحمن أغا جـ ٢ ص ٣٦ وقال عن تلك الحادثة أن على بك « أرسل المترجم إلى غزة حاكما وأمره أن يتحيل على سليط ويقتله . وكان رجلا ذا سطوة عظيمة وفجور . فلم يزل يعمل الحيلة حتى قتله فى داره ، وأرسل رأسه إلى على بك بمصر ، وهى أول نكتة تمت لعلى بك بالشام وبها طمع فى استخلاص الشام » .

(٢) سبق أن ذكرنا شيئا عن اسماعيل بك ، وقد ترجم له الجبرتى جـ ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ وأشهر مواقفه فى القضاء على سويلم بن حبيب ، وانتصاراته فى الحجاز ، وتأثيره على أبى الذهب فى حملة الشام ثم توليه الشياخة فيما بعد .

الجيش المملوكى يصل يافا حتى أسرع عثمان فارتد إلى دمشق، بينما تقدم ظاهر العمر لملاقاة حلفائه المماليك ، واتجه الجيش المشترك قاصدا دمشق . ثم أرسل ظاهر إلى عثمان معتزا بحلفائه يقول « أن غز مصر أتت تساعدنى عليك ، فإن شاء الله غدا صباحا يكون القتال فأنزل إلينا برجالك (١) . »

وتهيب عثمان ، وكان رده أن تهيأ للخروج إلى الحج لا للقتال . وأرسل يخبر الحليفين بذلك قائلا « اننى قد عولت على السير إلى الحج الشريف فلا يمكننى أن أتأخر . وان كنتم تريدون قتال زائرى بيت الله الحرام فنحن استعنا بالله عليكم (٢) . »

ولم يقبل اسماعيل أن يتحمل وزر ذلك الأثم فعاد إلى يافا ينتظر عودة عثمان باشا ، وعاد ظاهر إلى عكا ، وخرج عثمان باشا إلى بلاد الحجاز .

وقد أشار الخورى ميخائيل بريك الدمشقى ، وهو شاهد عيان ، إلى تلك الحادثة بقوله « فى سنة ١٧٧٢ تقوى ظاهر العمر وشاع اسمه ، ونهب جبخانة عثمان باشا والى الشام (٣) . ولما طلع للمزيريب ركب عليه ظاهر العمر وأراد أن ينهب الحجاج ويأخذ المحمل ويقتل الوزراء فما سمح البارى تعالى بذلك (٤) . »

ولم تشأ الدولة فى ذلك الوقت الحرج أن تترك ولاية دمشق تحت رحمة ظاهر وحليفه فارسلت حملة بقيادة أربعة باشوات لحفظها حتى يعود والبها . لذلك أرسل ظاهر إلى على بك يطلب قائدا أطوع ومددا أوفر .

وفى هدى الحملات السالفة تبين على بك عدة أمور : أولها صلاحية أملاك حليفه ظاهر كقاعدة حربية للجيش المملوكى الغازى . وثانيهما حاجة الحملة إلى

---

(١) يقصد بالغز المماليك — الصباغ . ص ١٠٥ .

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) اشارة إلى معركة طبريه .

(٤) ميخائيل بريك الدمشقى . تاريخ الدمشقيين وجه ١٣٦ . والمزيريب حصن قديم قرب نابلس كان به بعض الذخائر والمتون .

المدافع لعمليات الحصار . وثالثهما ضرورة حصول الحملة على مساعدة بحرية فعالة . واقترح عليه روستى أن يتصل بجمهورية البندقية ، فأرسل إليها يعرض محالفته ومساعدته لها على امتلاك جزر الدولة العثمانية فى البحر الأبيض ، واعادة تجارتها زاهرة كما كانت من قبل فردت الجمهورية شاكرة واعتذرت (١) .

وكانت الحرب الروسية التركية قد دخلت فى دورها الثانى ١٧٧٠ ، فحجزت جيوش الدولة على ضفاف الدانوب ، وتمكن الاسطول الروسى من أن يقوم بدور هام فى البحر الأبيض المتوسط ، ولما كانت روسيا قد اعتمدت فى حربها ضد الدولة على اثارة ولاياتها لم يجد على بك غضاضة فى أن يحصل على حاجته عن طريق روسيا والاسطول الروسى (٢) .

وكتب على بك إلى قائد الاسطول الروسى فى البحر الأبيض المتوسط وهو الكونت الكسيس أرلوف Count Alexis Orlow مبديا رغبته فى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا « ووعده بكل مايحتاج إليه جيشه واسطوله من مئونة ومال إذا لزم ، وطلب منه مدافع للحصار ومهندسين . فرد عليه أمير البحر الروسى مهنئا اياه ومشجعا له على حركته ، ووعده بارسال طلبه فى الحال لعرضه على جلالة القيصره ، ثم شكره على ماعرض عليه من مساعده ووعده بألا يتاخر فى طلبها متى وجد نفسه فى حاجة إليها (٣) .

وفى ذلك يقول صاحب خلاصة الاعتبار «ومن المصائب التى لاتخطر بالبال أنه ظهر فى مصر مفسد يدعى على بك فاستولى على سواحل . صيدا وطرابلس متفقا مع ضال يدعى ضاهر عمر ، فلم تبق للمسكوفيين حاجه لارسال القبعات والصلبان إلى

---

(١) أرسلت الرسالة مع أحد معاونى على بك وهو يعقوب الأرمنى Savary T. 1. P. 231

(٢) يوسف الديس : تاريخ سورية ج ٤ مجلد ٧ ص ٤٣٨٥ ، ٣٩٠ .

(٣) حمل رد أمير البحر الروسى أحد اليونانيين المسيحيين من أهالى القسطنطينية يدعى جريجورى ، كان يتقن الاغريقية واللاتينية والايطالية والفرنسية والتركية ، وما أن وصل إلى الاسكندرية حتى توفى ، وأوصل الرسالة إلى على بك شخص آخر lusignan, pp. 103-107

على بك إذ أنه بادر بارسال الهدايا ورسائل المودة إلى أمراء البحر المسكوفيين داعيا القدومهم إلى مياه يافه ودمياط (١) . »

وبدأ الموقف السياسى فى بلاد الشام يتضح تدريجيا ، وينجلى عن تكوين حزبين كبيرين يتنازعان السلطة والنفوذ : أحدهما فى الشمال والشرق وهو حزب الاتراك أو حزب الباشوات ، يرأسه عثمان باشا والى دمشق أو وزير الشام كما كانوا يلقبونه ، ومساعدوه وزراء الدولة فى صيدا وطرابلس والقدس وحلب وبغداد والموصل ... الخ . والآخر فى الجنوب والغرب وهو حزب ظاهر العمر مركزه عكا ، واتباعه مشايخ بلاد صفد وعشائر المتاولة فى جبل عامل ، واكثر قبائل العرب الرحل ، ويناصره على بك الكبير بماليكه من مصر ، ولهذا الفريق قلاعه ورجاله .

وبقى مشايخ جبل نابلس حكام غزة ويافا والرملة والخليل فريقين ، مع أحد الحزبين وضد الآخر ، بينما بقى لبنان المنيع بجباله ، العزيز برجاله متوسطا بين الفريقين كأنه قب ميزان السياسة فى تلك الأيام (٢) .

* * *

تجهيز الحملة المصرية .

وأيقن على بك بأهمية المعارك المقبلة ولذلك وجه عناية فائقة إلى تجهيز الحملة فاختار رجالها بنفسه . وبلغت عدتهم أربعين ألف مقاتل ، وزودهم بكل ماتحتاج إليه حملة مهاجمة من سلاح وذخيرة وعتاد . ثم عين على قيادتهم محمدا بك أبا الذهب بطل حملة الحجاز . وفى ذلك يقول الجبرتى « وفيها (أى ١١٨٥ هـ ١٧٧١م) أخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك أبو الذهب ، ورضوان بك . وأيوب بك ، وغيرهم كشاف وأرباب مناصب ، وعمالبكهم وأتباعهم ، وعساكر كثيرة من المغاربة والترك والهنود واليمانيه والمتـــاولة

(١) رسمى أحمد الكريدى : خلاصة الاعتبار . حوادث سنة ١١٨٨ . الفصل السادس

(٢) ميخائيل نقولا الصباغ . ص ١١٧ .

وخرجوا فى تجمل زائد واستعداد عظيم ومهيا كبير ، ومعهم الطبول والزمور والذخائر والأحمال والمطابخ والكرارات والمدافع والجبخانات ومدافع الزنبلك على الجمال وأجناس العالم ألوفا مؤلفة . وكذلك أنزلوا الاحتياجات والأثقال وشحنوا بها السفن ، وسافرت عن طريق دمياط فى البحر (١) . »

وتكلفت تلك الحملة كثيرا من الجهد والمال حتى اضطر على بك إلى فرض مبالغ تدفعها كل مدينة بمصر . كما فرد أموالا على اليهود والاقباط «قبضت جميعها فى أسرع وقت » .

ومهد على بك لتلك الحملة بدعاية واسعه ، وأخذ يراسل أعيان دمشق وعلمائها يحرضهم على طلب عزل عثمان باشا . وقد ذكر السيد محمد خليل المرادى مفتى السادة الحنفية بدمشق ما نصه « وكان الأمير على بك أرسل لوالدنا يخبره بما صدر من عثمان باشا ، وأنكم أن لم تسلموه نلقاكم بالرجال والابطال(٢) ... »

كما أرسل إلى ظاهر يبشره بتحرك الحملة لتنفيذ أغراضه . ولم ينس على بك وهو يودع كبير قواده أن يوصيه خيرا بمن سيصادفهم من المدنيين ، سواء منهم من سلم راغبا أو راغما ، وأن يحمى أهل الذمة من بأس الجند . كما أكد عليه أن يراعى سلوك جنده فى أثناء مروره بأملاك حليفهم ظاهر وأملاك أبنائه (٣)

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ . وقد ذكر الرحالة فولنى أن الاشاعات تواترت بأن عدد الحملة المصرية ٦٠,٠٠٠ مقاتل ، وأن الأوربيين دهشوا لضخامة تلك الحملة لظنهم أن كفاءة الجندى المصرى لا تقل عن نظيره الروسى أو البروسى . ثم علق على ذلك بقوله أن العدد الحقيقى للجيش لم يكن يتجاوز ٥ آلاف من فرسان المماليك ، لكل مملوك تابعان (١٠٠٠ تابع) ثم عشرين ألفا وهم أتباع الصناجق والكشاف ، ويصحبهم ١٥ ألفا من البرابرة المشاة يقصد المغاربة ، وغيرهم والبقية من الخدم ، فيكون مجموعهم ٦٠,٠٠٠ ثم قال ان الجيش كان معدوم النظام ، فرسانه مختلفو السلاح والملبس ، وخيولهم مختلفة الألوان والأحجام ، لا يسيرون فى صفوف منتظمة أو وفق توزيع خاص .

(٢) والده هو السيد بهاء الدين محمد المرادى من علماء دمشق ، وأصله من بخارى : المرادى تاريخ المرادى جـ ١ ص ٥٤ .

(٣) Insignan, sect III,

وبدأت الحملة سيرها برا فى ديسمبر سنة ١٧٧١. وعندما وصلت غزة اتجهت إلى الرملة وصادفت طلائع حملة إسماعيل بك فانضموا إليها . وأخذوا الرملة ونابلس بعد حصار طويل . وعزم أبو الذهب على حصار بيت المقدس فخرج اليه حاكمها وكبير قضاتها وممثلو بطريركها فقدموا هديه قيمة ، وعرضوا عليه دخول المدينة دون قتال احتراما لقدسيتها فأجابهم إلى طلبهم .

ثم حاصر يافا فسلمت بعد شهرين ، واتجه قاصدا عكا وعسكر فى ضواحيها انتظارا لظاهر وجيشه . وهنا قابله الشيخان على وكريم مرحبين به نيابة عن والدهما (١) . ثم انضما اليه بجيش من الصفديين والمتاولة وغيرهم ، لايقل عدده عن عشرين ألفا . واتجه الجيش المشترك فاحتل صيدا (٢)، ولم يبق أمامه سوى احتلال دمشق حتى يصبح سيد سوريا الوسطى . وكان أبو الذهب كلما احتل مدينة يولى عليها حاكما من قبله يحكمها باسم على بك ، ويترك بها حامية تشرف على الأمن والنظام ، هكذا أمره سيده قبل الرحيل (٣) .

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد من بلاد الحجاز وجهز حملة جرارة قدرها بعضهم بمائة ألف مقاتل(٤)، على رأسها أربع باشوات من دمشق وحلب وطرابلس وصيدا . ثم تقدم يريد القضاء على الجيش المشترك . وتقاتل الفريقان فى السهول الفسيحة الممتدة إلى الجنوب من دمشق . ولقى عثمان باشا من مرارة الهزيمة ماجعله يفر إلى دمشق ومنها شمالا إلى حمص (٥) .

---

(١) يقال أن أبا الذهب تألم كثيرا لعدم حضور ظاهر بنفسه وعدها اهانة لا يصح بعدها أن يتعاون معه أو يقاتل فى سبيل نصرته ، وأن ذلك كان من أهم أسباب عودة أبى الذهب من الشام رغم انتصاره على نحو ما سنبين فيما بعد .

(٢) Insignan. p.p. 63-66

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٦٥ .

(٤) ميخائيل بريك الدمشقى : تاريخ الدمشقيين مخطوط ٣٦ ب

(٥) المرادى : سلك الدرر ج ١ ص ٥٤ — ٥٥ ، ميخائيل بريك ٣٦ ب

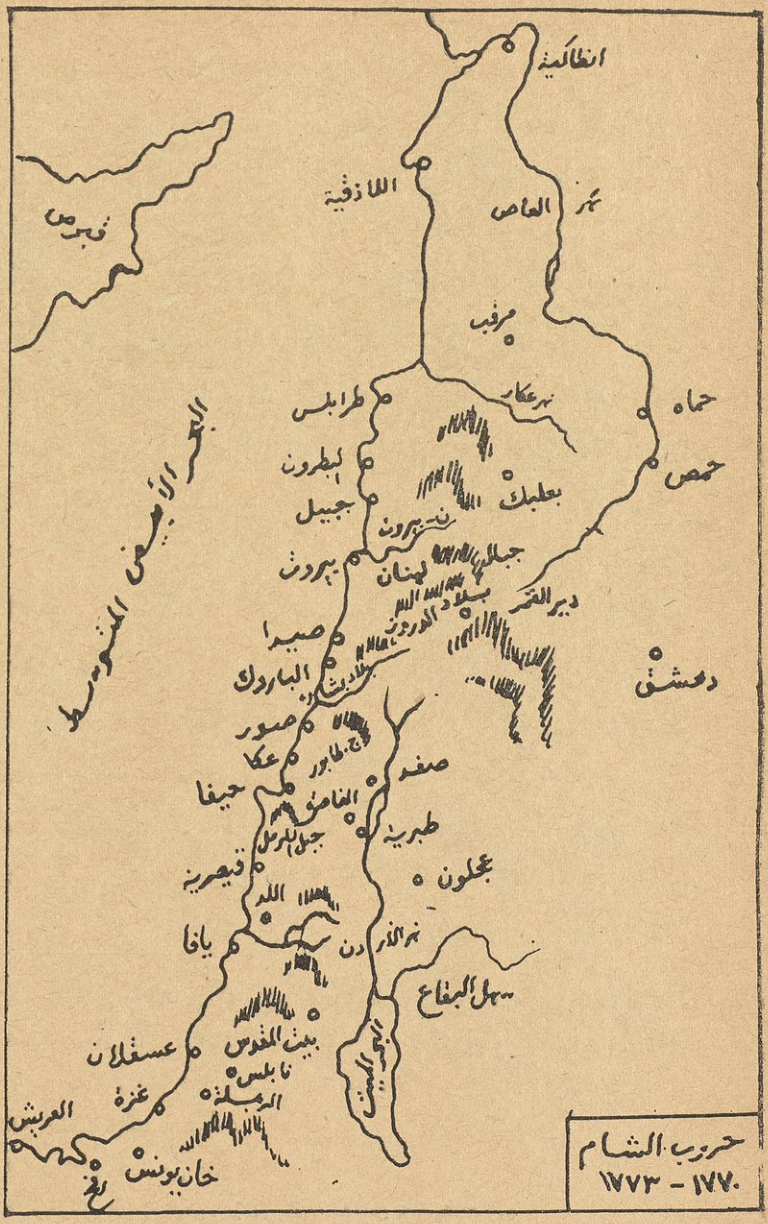

حروب الشام
١٧٧٠ - ١٧٧٣

أما أبو الذهب فتقدم لحصار دمشق دون أن يعلم بمغادرة عثمان لها . عند ذلك اسقط فى يد أهلها وطلبوا من كبار العلماء (١) التوسط لدى أبى الذهب فاظهر لهم عزمه الأكيد على دخولها ، وعرض عليهم الكتاب الذى زوده به على بك وهذا نصه :

« صدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة المعالى ، دامت له المفاخر والمعالى ، بأمر من مَنّ به الكريم المنان على أهل هذا الزمان ، فاظهر العدل والأمان ، وعم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان ، وأرغم أنوف أهل الجور والطغيان ، أمير الأمراء الكرام ، كبير الكبراء العظام ، المختص بمزيد عناية الملك العلام أمير اللواى الشريف السلطانى ، والعلم المنيف الخاقانى ، الأمير على بك أمير الحاج سابقا (٢) وقائمقام بمصر المحروسة حالا (٣) دام عزه وبقاؤه آمين .

مضمونه حمد لبارىء النسم ومحيى الرمم ، الذى قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم ، وأمر بالعدل فى سائر الأمم ، وأوعد الظالم بالهلاك والنقم ، القائل فى كتابه المبين ، والله لايحب الظالمين ، إن الله لايصلح عمل المفسدين ، فلا تأس على القوم الفاسقين : والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيد الخلق أجمعين ، القائل وهو أصدق من قال الضرر يزال . وعلى آله وأصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين .

---

(١) ذكرهم المرادى فى تاريخه ج ١ ص ٥٥ ، وهم العلامة على بن صادق الطستانى أحد مدرسى الحديث والموالى أسعد بن خليل الصديقى أحد الأشراف ، محمد يس احمد العانى أحد المدرسين بالجامع الأموى . واكتفى ميخائيل بريك بالاشارة اليهم .

(٢) فضلنا ذكر هذا الكتاب كاملا لأهميته التاريخية لا سيما وأننا استشهدنا بعدة فقرات منه فى مواضع مختلفة من الكتاب .

(٣) هكذا كان على بك يلقب نفسه إشارة إلى تولية الحج (١١٧٧ هـ — ١٧٦٣ م) وفى ذلك دلالة على أنه لم يتخذ لنفسه لقب سلطان .

وبعد مزيد السلام والتحيات ، ونوامى الأمن والبركات ، وجزيل النعم والخيرات فى سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء المحدثين المفتين بشريعة سيد الانام، وقضاة الأسلام، وأرباب المناصب والحكام ، والأكابر والأعيان الكرام ، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أعزهم الله بنور العدل وأحكامه ، وأجارهم من الظلم وظلامه ، وعاملهم بالطافه وأكرامه ، وأفاض عليهم جزيل انعامه أمين .

الذى يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لاتجتمع على الضلالة . وقد علمتم مافعله عثمان باشا فى أرضكم ، وفى غيرها من الظلم والجهالة . وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والفجار [١] بالأذية والأضرار وظلم المسافرين والتجار . وأذى أهل الأماكن الشريفة، وبدل أمن الحرمين الشريفين بالخيفة [٢] ، وتعدى حدود الدين وصنع مالا يليق بالمسلمين . وقد قال من لاتراه العيون « من يتعد حدود الله فاؤلئك هم الظالمون . » ولما بلغنا عنه مابلغ وأنه فى إيذاء الأرض المقدسة قد ولغ ، فبادرنا لسوء فعله بالنقض كما أزلنا فى العام الماضى من ظلمه البعض [٣] ، وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض نصرة للدين وغيره على المسلمين . وأعظم القصد والأحتياج دفع ضرره عن الأرض المقدسة والحجاج تبعاً للحديث الشريف . ماحل بحرمكم حل بكم .

---

(١) ربما كان يشير بذلك إلى حادثة وقعت فى ليلة ١٩ صفر ١٨٤ (١٧٧١) ملخصها أن عثمان باشا لم يرض العرب فى أثناء عودته من الحج ، اعتمادا على قوته فنهبوه ونهبوا الحجاج فسارع ظاهر إلى تعويضهم واشترى المنهوبات وأرسل العلم النبوى وعليه العقاب إلى الدولة — الصباغ ص ٧٥ .

(٢) يشير إلى تدخل عثمان باشا فى أمور شرافة مكة ، وما ترتب على ذلك من اضطراب ومنافسات .

(٣) يشير بذلك إلى أمرين : أولهما حملة الحجاز وقد اعتبرها إصلاحا لما افسده عثمان باشا وثانيهما التجريدة التى أرسلها على غزة فخلصت أهلها من افساد العربان وظلم عثمان .

وبلغنا أيضا مافعل بالعلماء فى غزة ، وقد أذاقهم الذله بعد العزة ، ودفنهم فى الأرض بالحياة والحديث المقدس عن الإله ، من أذى وليا فقد أذيته بالحرب والعلماء لاشك أولياء الله لقوله فى كتابه الأسمى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وإذا كنتم بذاك راضين ، وعلى رفع ضرره غير قادرين فنحن انشاء (أن شاء) الله قادرين على إزالة ماهنا لك وقد أفتتنا المذاهب الأربعة بذلك فاستخرنا الله ، وهم نعم الولى وسألناه أن ينصر دين محمد بعلى . وصرفنا الهمة والأموال فى رضى الملك المتعال ، ووجهنا العساكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا المظالم ويحموا الديار والمعالم ويميزوا العاطب من السالم .

والمقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم ، ومن يتولهم منكم فانه منهم . وأن تجتهدوا فيما يدفع الشرور ويوجب لكم الفرح والسرور والغبطة والحبور وأمير الحاج الشامى من طرفنا يتولاه ، حفظا وصيانه لحجاج بيت الله فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان ، والنصر من الكريم الفتاح لمن طلب العدل والصلاح .

وها نحن قد أخبرناكم ، وللمعاونة على الخير قد اخترناكم ، ومن قبول هذا الظالم فى أرضكم حذرناكم . فالعساكر قاصدة اليه وجميع مالديه ، وقد سلطها غضب الله وسخطه عليه ، فاحفظوا منه سائر أموالكم وأحوالكم ولا تدعوه يقيم فى أرضكم وبين عيالكم ورأى العلماء والأكابر أعلى (١) . وأنتم بالمعاونة على الخير أولى .

وعلى القريب منكم والبعيد ، والطارف والتليد ، والأحرار والعبيد أمان الله ورسوله وأماننا السعيد ، والله يفعل مايشاء ويحكم بما يريد . والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام (٢) . »

---

(١) فى ذلك اشارة واضحة إلى قسوة العلماء فى ذلك العهد بالشرق عموما .

(٢) أورد المنشور أحمد واصف جـ ٢ ص ٢١٥ — ٣١٧ بالنص العربى : ويلاحظ أن ميخائيل بريك الدمشقى وهو شاهد عيان لم يذكر هذا الخطاب وإنما أشار إلى حضور العلماء لمقابلة أبى الذهب ص ١٣٧ .

وكان الرد على ذلك أن استصدر السلطان فتوى باعتبار على بك وحلفائه وأنصاره بغاة يجب قتلهم أو أعدامهم (١) .

***

وأحدثت الرسالة الغرض المقصود منها. ودخل أبو الذهب دمشق فى صبح يوم ٦ يونية ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحدة من الدماء ، وأرتدت حاميه المدينة إلى القلعة وتحصنت بها ، فحاصرها جيش أبى الذهب وأضطرها إلى التسليم بعد ثلاثة أيام تحت تأثير القنابل المتساقطة . ودخل ممثل على بك الكبير دار الوزارة فى دمشق وجلس حيث كان يجلس ممثل السلطان العثمانى . وأتت الوفود من سائر الأنحاء تزف التهانى وبدأ الناس يشعرون بنعمة الأمن والسلام (٢) .

وأرسل الأمير منصور الشهابى من جبل الدروز هدية وخطابا يتقرب بهما إلى أبى الذهب فصادف ذلك قبولا حسنا من نفس القائد المصرى . وكان ظاهر قد أوصاه خيراً بامير لبنان (٣) .

وتردد صدى النصر فى القاهرة فى ربيع الأول من ١١٨٥ (١٧٧١) وأحتفل

---

(١) أحمد واصف : محاسن الآثار ج ٢ ص ٤١٦ ، شمعدانى زادة : مرعى التواريخ حوادث ١١٨٧ .

(٢) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٣ — ٨٠٤ .

(٣) ذكر الأمير حيدر فى تاريخه ج ٢ ص ٨٠٥ — ٨٠٦ أن الأمير منصور الشهابى كان يحقد على عثمان باشا نصرته لشقيقه ومنافسه الأمير يوسف ، فلما علم بدخول أبى الذهب إلى دمشق أرسل اليه ثلاثة أفراس من جياد الخيل بالملابس الفاخرة ، وكتب له جوابا يستعطف خاطره ، وجهه إلى « الجناب العالى صاحب الفخر والجلال .. صدر صدارة الدولة المصرية أمير لواء عالى الشأن .. » جاء فيه « أما بعد فانه فى أبرك الأوقات وأشرفها وأيمن الساعات وألطفها قد ورد علينا كتاب الجناب الشريف وفهمنا فحواه السامى المنيف واتضح لنا حلولكم السعيد بدمشق الشام على حسن تأييد وأكمل نظام ، فقد حصل عند المخلص لكم بهجة لا تحد وسرور ليس له ند . وقد طربت لقدومكم الأقطار واستأمنت البلاد ، واطمأنت خواطر العباد . الخ » ولا شك فى أن هذا الخطاب يبين مدى أثر الفتوح المصرية فى نفوس أهل الشام وأمرائها

به على بك احتفالا عظيما . وفى ذلك يقول الجبرتى « ووردت البشائر بذلك فنودى بالزينة ، فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة أيام بلياليها . وتفاخروا فى ذلك إلى الغاية وعملت وقدات وأحمال قناديل بشموع بالأسواق وسائر الجهات ، وعملوا ولائم ومغانى وآلات وطبولا وشنكا وحراقات وغير ذلك . . . » إلى أن قال « ونعاظم على بك فى نفسه ، ولم يكتف بذلك فارسل إلى محمد بك يأمر بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التى فتحوها وملكوها (١) »

ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح أبو الذهب سيد سورية الوسطى والجنوبية يحكمها باسم استاذه على بك ولم يبق أمامه سوى الاستيلاء على حلب حتى يحتل سورية باجمعها . بل أن على بك فى يونيه ١٧٧١ كان فى مركز يسمح له بأن يعلن نفسه « سلطانا على مصر وسورية » كما قرر ذلك قنصل فرنسا فى صيدا (٢) .

ونشير إلا أن قناصل فرنسا فى سورية الوسطى نقلوا محور نشاطهم السياسى من الآستانة إلى القاهرة وأصبح قنصل فرنسا فى القاهرة يقوم لدى على بك بنفس الدور الذى كان يقوم به سفير فرنسا فى الآستانة لدى السلطان العثمانى (٣) .

ويعتبر هذا الحد منتهى ما وصلت إليه قوة ونفوذ على بك ، كما يمكن اعتبار ليلة ١٠ يونية ١٧٧١ بدء أفول نجمه ، ذلك لأن محمدا أبا الذهب لم يلبث أن عاد سريعاً إلى مصر وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد المفتوحة ، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته .

* * *

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) فى تقريره بتاريخ يونيه ١٧٧١ — ذكره شارل روو Charles-Roux : Échalles. . p. 96

(٣) من مذكرة لقنصل فرنسا بالكتاب السابق ونفس الصفحة — والقنصل يدعى كوزينيرى Cousinery .

أغراض على بك من حملة الشام :

أغراض حملة الشام موضع اختلاف المؤرخين . ونحن إذا تدبرنا خطاب على بك إلى علماء دمشق وأهلها ، الذى اذاعه أبو الذهب قبل دخوله المدينة ، والخطاب الذى كان على بك قد أرسله إلى السيد بهاء الدين أفندى المرادى ، وأشرنا إليهما فى موضع سابق ، لتبيننا أن غرض الحملة الأساسى هو القضاء على عثمان باشا « خدمة للدين والإنسانية »

والواضح أن هذا التعليل لا يكفى لتبرير الحملة إنما تعلل به على بك فى الظاهر وإشاعه بين الناس . فلم يكن عثمان باشا مقصودا لذاته وإنما بصفته ممثل الدولة العثمانية فى بلاد الشام إذ لا يعقل أن تقوم حملة جرارة مثل الحملة المملوكية وتقضى ما يزيد عن ستة أشهر فى فتح المدن وتنظيم حكومتها بقصد القضاء على شخص واحد مهما كان نفوذه وسطوته .

وقد ضمن الشفالييه دى توليز chevalier de Taulese تلك الملاحظة خطابه إلى قنصل صيدا الجديد فى إبريل ١٧٧٢ بقوله « أن الأشاعة التى راجت وتقول أن أساس حملة على بك والشيخ ظاهر هو حقدهما الدفين على عثمان باشا ، وأنهما على استعداد لتسليم صيدا إلى الحاكم الذى يرسله الباب العالى متى خلصوا نهائيا من عثمان لهى أشاعة باطلة ليس لها أساس من الصحة . . . فان سلوك هذين الثائرين انما جاء نتيجة فكرة أوسع من ذلك بكثير ، ولا شك فى أنهما كانا لن يتأخرا عن نضال أى باشا آخر يقف فى سبيل اطماعها ومشروعاتهما »

وهنا يتساءل المؤرخ شارل رو Charles-Roux عن ما هية تلك الفكرة ، وعما إذا كان على بك أراد أن يصل إلى بلاد الأناضول والقسطنطينية عن طريق سورية كما قيل عن نابليون بونابرت ومحمد على فيما بعد فيعتلى عرش السلطنة أم أراد فقط أن يؤمن ملكه فى مصر (١) ؟

---

(١) Charles-Roux : Echelles. P. 82

والواضح أن عمل على بك هذا كان مشروعاً للتوسع يرمى من ورائه إلى غرضين أساسين : أولهما تأمين املاك حليفه ظاهر، إذ هى باب مصر الشمالى الشرقى . وثانيهما القضاء على قوة باشا دمشق وغيره من الباشوات العثمانيين الذين قد تحرضهم الدولة على القضاء عليه فى مصر . فقام بتلك الحملات الدفاعية التى اتخذت شكلا هجوميا لكى يقيم حول نفوذه بمصر سياج امان دائم .

وقد استشف المسيو داميرات D'Amirat قنصل فرنسا فى القاهرة ذلك العزم من على بك فكتب فى ٣ ديسمبر ١٧٧٠ مذكرة إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول فيها « ان بيكنا — يقصد على بك — بعد أن قضى على كل من كان يناوئه فى مصر يعزم اليوم أن يمضى بفتوحاته إلى الخارج قصد توسيع أملاكه ، مثله فى ذلك مثل سائر حكام مصر منذ عهد الفراعنة ، وأن امتلاك سورية الآن يشغل كل اهتمامه (١) .

وعلى ذلك ينبغى لنا أن نستبعد ماذكره بعض المؤرخين من أن سبب الحملة الأساسى هو إغراء ظاهر العمر لعلى بك (٢) أو إلى تحريض روسيا له (٣) .فان هذا التحريض وذلك الإغراء ما كانا ليجديان فتيلا ما لم يكن يسير على بك عزم صادق على توفير منطقة أمان لثورته، تجعله بمأمن من الخطر (٤) العثمانى وفى ذلك يقول شارل رو « أن ظاهرا وعلى بك قد وجدا فى انشغال تركيا بحربها ضد روسيا فرصة لتقوية نفوذهما ، ورأى الروس فى ثورة ظاهر وعلى بك عاملا مساعدا لاغراضهم فشجعوا تلك الشركة . وكان سواء لديهم إذا حاربا متحدين أو عمل كل منهما على انفراد وفق ظروفه الخاصة وكل ما كان يهمها أن تصادف تركيا متاعب داخلية فى الوقت الذى كانت تناضل فيه عدوها فى الخارج. (٥)

---

(١) Deherain : T.V. P. 131.

(٢) مثل جودت ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) مثل يوسف الدبس : الموجز فى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٤) De Tott : Memoires.. V.4 P. 55

(٥) Charles-Roux- Echelles.. P. 84

الباب الخامس

نهاية على بك الكبير

الفصل الأول

انشقاق أبى الذهب

عودة أبى الذهب من الشام — نفيه إلى الصعيد — نجدة مصرية لظاهر العمر .

عودة أبى الذهب من الشام .

فى الوقت الذى انهارت فيه المقاومة العثمانية ببلاد الشام ، وتراجعت القوات المحاربة العثمانية ترجو الفرار من بأس الجيش المملوكى ، وبعد أن استقر الفاتح المصرى أبو الذهب ، فى مقر وزير الشام [1] ، وبدت البلاد الشامية كلها تحت رحمته ورهن إشارة سيده على بك الكبير ، فوجىء الجميع بانسحاب ابى الذهب وخروجه من دمشق وبلاد الشام ، وعودته إلى مصر بعد أن سحب جميع الحاميات المصرية من بلاد الشام المفتوحة فى يونيه ١٧٧١ (ربيع أول ١١٨٥).

وكان هذا الانسحاب المفاجىء موضع دهشة كل من سمع عنه . فقد علق على ذلك المسيو كوزنيرى Cousinery قنصل فرنسا فى صيدا حينئذ بقوله : « لقد

(١) كان صاحب ايالة دمشق يلقب بوزير الشام كناية عن اتساع نفوذه . كما أنه كان يعتبر وزير السلطان لشئون الشام .

اثارت هذه الحادثة دهشة الجميع ، ولست اتمالك نفسى من العجب عند التفكير فى هذا الارتداد المفاجىء بعد كل هذه التكاليف الهائلة التى بذلها على بك لتحقيق مشروعاته الواسعة ، وبعد أن كانت جميع البلاد قد دخلت فى طاعته (١) .»

وقد حاول الكتاب والمؤرخون تعليل هذا الانسحاب فوصلوا إلى نتائج مختلفة . ذكر الخورى ميخائيل الدمشقى ، وهو من المعاصرين ، فى مخطوطه أنه « فى اليوم الخامس عشر من وصوله (أى وصول أبى الذهب) وقف متسلم بالشام وأغاة الانكشارية ونادى بالامان وهدم خيامه ورحل راجا إلى مصر . الله لا يمتعه بالسلامة ، ولم يعرف أحد سبب رحيله ورجوعه (٢) »

ومن المؤرخين من نسبها إلى اسماعيل بك . فانه لميله إلى الدولة العثمانية ، وحسده لعلو شأن أبى الذهب أثر عليه وحذره من غضب الدولة إذا فرغت من حربها مع روسيا ، ثم أثار فيه النعرة الدينية فأظهر له حرمة قتال سلطان مسلم وحرمة تدنيس الأرض المقدسة . وأن من عصى السلطان عصى الله والرسول . والخروج على طاعته خروج عن دين الإسلام . » ثم أثار روح الكبرياء فى نفسه ذلك أنه « أخذ يشكو له بغى أسرة الشيخ ظاهر العمر وغيهم واستكبارهم ويعيب على من يصاحبهم فى أمر من الأمور . وقال له ألا ترى الشيخ على الظاهر كيف يجلس أمامك كأنه فى مجلس الصعاليك ؟ »

وأخيراً حرضه على عدم اطاعة أوامر على بك أو الانسياق وراء رغباته التى أوحتها إليه روسيا . « وعلى بك كما تعلم قد سلك على غير مسلك الاستقامة ، فانه

---

(١) Charles-Roux : les Echelles. P. 90]

(٢) أغاة الانكشارية أى قائد اليكيجرى وهو سليم أغا — ميخائيل بريك الدمشقى : تاريخ الدمشقيين مخطوط ١٣٧ — ويدل هذا التعبير على مقدار الفزع الذى داخل النفوس وعدم الاستقرار الذى صادف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية بسبب الأعمال الحربية حتى وصفها المسيو كوزنيرى بقوله « ان حالة سورية الحقيقية غير محتملة » . ولكن الثابت باعتراف المؤرخين أنه لم يحصل تعد من جانب الجيش المصرى على أهل الشام .

ترك الطريقة الاسلامية المعروفة واتبع قاترين (كاترين الثانية) امبراطورة الروس ، مع أن الروسيين أعداء دولتنا العلية ويجب على كل مؤمن أن يحاربهم فى كل وقت (١) ...»

ولكن جمهرة المؤرخين تنسب هذا الانسحاب إلى أبى الذهب نفسه . فمنهم من يرى ان أبا الذهب كان يدبر من زمن طويل وسيلة للقضاء على على بك، وانه فى جميع خدماته السابقه لمولاه ، سواء فى القضـــاء على منافسيه أو فى حملتى الحجاز والسام انما كان يعبد لنفسه طريق الحكم والسلطان عند ما تنضج الثمرة وتحقط راس سيده . فلما دخل دمشق وأمره مولاه فى نشوة السرور بالمضى فى الفتح خشى فوات الفرصة فعاد لقطف الثمرة دون أى اكتراث لما يجب عليه نحو رب نعمته من اخلاص وولاء (٢) .

والمؤرخون الترك يرون أن ابا الذهب تبين له صدق نصيحة اسماعيل بك وتصادف قدوم « أمين الصرة » لبلاد الشام فى ذلك الوقت ، فاتصل به ورجاه كسب عفو الدولة بعد تقديم الاعتذار الكافى وبذا حصل أبو الذهب على وعد سلطانى بالعفو وشياخة البلد (٣) .

أما غيرهم فيقول بأن الباب العالى هو الذى نصح لعثمان باشا والى دمشق بالاتصال سرا بأبى الذهب ، وبأن يستثمر مهارته السياسة فى كسبه إلى جانب العثمانيين . وفوض إليه أن يعده باسم السلطان بالعفو ومركز صهره على بك .

---

(١) جودت ج ١ ص ٣٤٦ . وأشار إلى ذلك ميخائيل نقولا الصباغ صاحب ترجمة الشيخ ظاهر بقوله « وقيل أنه اشمأزت نفسه من على الظاهر الذى كان يدخل علية بدون استئذان ولا يقدم له الاعتبار المعتاد من كبار سناجق الغز ، وكان يجلس متكأ بجانبـه كأنه فى قومه كأحد العربان لا فى مجلس سلطانى .. » ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) De Tott : Memoires ... P. 65.

(٣) أمين الصرة هو مندوب الباب العالى لتسلم الأموال السنوية المفروضة على بلاد الشام . جودت ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

فكان أن عقد مجلس سرى بين الطرفين فى الليلة السابقة للرحيل انتهى بخروج العدوين صديقين بل حليفين (١).

هذا ويعتقد المؤرخ لكروى Lockroy أن عثمان باشا كان يحتفظ دائما ببعض الكتاب الماهرين فى تقليد الفرمانات السلطانية ، وأنه بهذه المناسبة حاول بمهارته السياسية أن يعوض خسارته الحربية فقابل أبا الذهب سرا وأغراه بمحاربة على بك ، ووعده بمركزه ، وقدم إليه فرمانا سلطانيا مزورا (٢).

والرأى الذى نأخذ به نحن هو مزيج من تلك الآراء كلها إذ يتضح لنا من وقائع الحال وآراء من سبق من المؤرخين أن عثمان باشا أرسل يطلب مددا من الدولة حتى لا يضطر إلى التسليم . ولما كانت الدولة عاجزة تماما عن مساعدته بالجند والسلاح فى ذلك الحين ، لانشغالها فى الميدان الأوربى الروسى ، فقد أمدته بسلاحها السرى الذى برعت فى استخدامه ونجحت فى كثير من الأحيان ، نصحت له عن طريق « أمير الصرة » أن يتصل سرا باسماعيل بك فيستثمر ميله إلى العثمانيين فى كسب عطف أبى الذهب ، وإثارة شكوكه من جهة على بك ، وتحذيره من انتقام الدولة عند ما تتفرغ لتأديب العصاة .

وتحت تاثير ذلك النصح المغرض استعدت نفس أبى الذهب لقبول اغراء عثمان باشا بضمان عفو السلطان ومركز صهره على بك متى نجح فى الفتك به . وكان على أبى الذهب لتنفيذ هذا الاتفاق السرى أن يغرى البكوات الموجودين فى معسكره بالعودة إلى مصر ، وأراد أن يستثير فى نفوسهم حب الوطن والتمتع بما لاقوه من مجد وفخار . فما أن تسلم أوامر على بك بالسير فى الفتوح حتى « جمع محمد بك أمراءه وخشداشينه الكبار فى خلوة وعرض عليهم الأوامر فضاقت

---

(١) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ص ٢١ .

(٢) Lockroy: Ahmed le Boucher, la Syrie et L'Egypte au Xvlll ieme Siecle. P, 23.

نفوسهم وسئموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك ما فى نفس محمد بك أيضا ثم قال لهم : ماذا تقولون ؟ قالوا : وما الذى نقوله والرأى لك فانت كبيرنا ونحن تحت أمرك واشارتك ، ولا نخالفك فيما تأمر . فقال : ربما يكون رأيى مخالفا لأمر استاذنا . قالوا : (ولو كان رأيك) مخالفا لأمره فنحن جميعا لانخرج عن أمرك واشارتك . فقال : لا أقول لكم شيئا حتى نتحالف جميعا ونتعاهد على الرأى الذى يكون بيننا ففعلوا ذلك وتعاهدوا وحلفوا على السيف والكتاب ثم أنه قال لهم أن استاذكم يريد أن تقطعوا أعماركم فى الغربة والحرب والاسفار والبعد عن الأوطان وكلما فرغنا من شىء فتح علينا غيره ، فرأيى أن نكون على قلب رجل واحد ونرجع إلى مصر ولا نذهب إلى جهة من الجهات وقد فرغنا من خدمتنا . وأن كان يريد غير ذلك من الممالك يولى أمراء غيرنا ويرسلهم إلى ما يريد ، ونحن يكفينا هذا القدر ونرتاح فى بيوتنا وعند عيالنا . فقالوا جميعا ونحن على رأيك (١) . »

كما أننا نرجح أن الاشاعة التى راجت قبيل الانسحاب بوفاة على بك ، إنما ابتكرها أبو الذهب نفسه وروجها انصاره بقصد أغراء الجنـــد على سرعة العودة إلى مصر .

* * *

ولم يكن جند ظاهر العمر أو حلفاؤه المتاولة باقل دهشة من غيرهم لانسحاب أبى الذهب المفاجىء ، وعندما أرسل اليه ظاهر وشيخ المتاولة ناصيف النصار يستفسران عن سر ذلك رد عليهما مهددا متوعدا (٢) .

وكان أن ارتد أبو الذهب قاصدا مصر فى سرعة فائقة حتى كان يخيل إلى من رآه أن انسحابه فرار وليس تقهقرا ، إذ كان القائد يتخلى عن كل مايعوق سرعة

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٢) محمد سعيد فرائضى زاده . كلشن معارف جـ ٢ ص ١٦٢٦ .

تقدمه . وبذلك تمكن من دخول مصر بعد بضع ساعات فقط من وصول الخبر إلى على بك (١) .

ولم يدهش على بك من قبل دهشته فى ذلك اليوم ولكنه احتبس دهشته وكظم غيظه . وما أن دخل أبو الذهب عاصمة مصر حتى أفضى إلى أستاذه بسر عودته ، ونسبها إلى أن الجيش المملوكى لاقى من سوء معاملة ظاهر العمر وجيشه وحلفائه ماهدد كيانه . « وشكا من تصلف الشيخ ظاهر العمر وعشيرته عليه ، وقال انهم قوم عتاه لايعرفون الوفاء ولايرعون حرمة صاحب ، وأنهم أولياء فى الظاهر أعداء فى الباطن لأنهم كانو يغتالون كثيرا من العساكر ، ونحن غرباء فى بلاد بعيدة والأمداد قريب اليهم من الدروز وتلك العشائر . وعثمان باشا طردناه إلى أقصى مكان وخشينا أن تنوبنا نائبة فى تلك البلاد فرجعنا » (٢)

والظاهر أن غرض أبى الذهب من ذلك كان مزدوجا ففيه تبرير لعودته من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محاولة خبيثة لخلق العداوة والبغضاء بين على بك وحليفه الوحيد ظاهر العمر ،

* * *

نفى أبى الذهب إلى الصعيد :

أما على بك فلم يأخذ الأمر على علاته بل أرسل يستفسر من ظاهر فبعث له هذا بابنه عثمان ليوقفه بنفسه على ماحدث ، وأمره أن يبقى بمصر برهانا على صدق الرسالة التى كلفه بها (٣) . وأراد على بك أن يختبر صدق أبى الذهب وطاعته

---

(١) Volney , v. I. P. 129.

(٢) حيدر : تاريخ الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٠٧ .

(٣) حيدر ج ٢ ص ٨٠٨ ، وقد ذكر ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٠٧ أن طاهرا أرسل ابنه عثمان إلى مصر عقب حملة اسماعيل بك إلى الشام ١٧٧٠ عقابا له على انشقاقه ضد والده ، وأنه طلب من على بك حبسه فى القلعة فأكرمه على بك وجعله يحضر الديوان وكتب إلى والده أنه فعل معه ما أراده . والصحيح أنه أرسله لمصر عقب انسحاب أبى الذهب من الشام سنة ١٧٧١ .

له فالح عليه فى العودة إلى الشام وأصر أبو الذهب على الرفض . عند ذلك تبين على بك خيانة أبى الذهب وسوء نيته ، ولكن « بقى الأمر على السكوت » كما يقول الجبرتى ، ذلك لأن على بك فضل أن يبقى ذلك الأمر سرا مكتوما حتى لا ينضم إلى أبى الذهب انصاره الذين كسبهم إلى جانبه فى خلال حملاته فى الحجاز والشام ، وحتى يستطيع على بك متى حانت الفرصة أن يقضى عليه قضاء مبرما . وأخيرا قرر نفيه إلى الصعيد (١) .

فلما كان رابع أيام عيد الاضحى سنة ١١٨٥ (أوائل ١٧٧٢) أمر على بك تابعه على بك الطنطاوى أن يذهب فى خاصة اتباعه إلى أبى الذهب فيبلغه أمر مولاه بنفيه إلى الصعيد . وأمره أن يشرف بنفسه على خروجه من القاهرة فصدع طنطاوى بالأمر ، وامتثل أبو الذهب . وفى ذلك يقول الجبرتى « وانقضى شهر شعبان ورمضان وعلى بك مصمم على رجوع محمد بك إلى جهة الشام وذلك مصمم على خلاف ذلك . وبدت بينهما الوحشة الباطنية . فلما كان رابع شهر شوال (١١٨٥ هـ — ١٧٧٢ م) بيت على بك مع على بك طنطاوى وخلافه واتفق معهم على غدر محمد بك . فركبوا عليه ليلا وأحاطوا بداره ووقفت له العساكر بالأسلحة فى الرواق فركب فى خاصته وخرج من بينهم وذهب إلى ناحية البساتين وارتحل إلى الصعيد (٢) . »

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٦٥ ، وقد ذكر الرحالة فولنى قصة رواها عن أحد تجار البندقية من بطانة على بك ، يقصد كارلوروستى ، تبين بدء حقد على بك على مملوكه أبى الذهب . فقد سأل على بك ذلك التاجر فى أحد الأيام مباهيا بما أولاه من عطف وثقة لمحمد بك فقال « هل لملوك الفرنجة أبناء يقايسون ولدى محمدا فى ثروته ؟ فأجاب التاجر قائلا « لا يامولاى ولكنهم على العكس يحيطونهم بالرقابة ، لأنهم يعلمون أن الأبناء متى ارتفع شأنهم تعجلوا وراثة عرش آبائهم » ومنذ ذلك الحين أصبح على بك يرى فى مملوكه أبى الذهب منافسا خطيرا يجب أن يتخلص منه (volney ; V,1. p.127.)V .

(٢) الجبرتى ، ج ١ ص ٣٦٥ ، ٣٧١ .

غير أن الرحالة فولنى Volney ذكر أن على بك أرسل الطنطاوى بقصد اعدام أبى الذهب وأن الأخير تمكن من الإفلات فى ظلام الليل والتجأ إلى الصعيد(١).

ولكننا نرجح الرأى الأول لعدة أسباب منهما : دقة الجبرتى فى رواية اخباره وميل فولنى إلى إدخال روح البطولة فى قصص رحلاته ، وأخيرا لأن رأى الجبرتى الذى أخذنا به عززه رأى المرادى صاحب كتاب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (٢) » وماجاء فى تقرير قنصل فرنسا بالقاهرة المسيو داميرات M. D'Amirat بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٧٨٣ . فقد ذكر ما ترجمه « وقد شعر على بك بفضل ذكائه بما كان يدبر حوله فى الخفاء فأمر بنفى محمد أبى الذهب من القاهرة ، وقد تم ذلك فى الأيام القليلة الماضية ونفذ دون أدنى صعوبة . ذلك لأن على بك سلك فيما عقد عليه العزم وفى طريقة التنفيذ مسلكا سداته الرحمة ، ولحمته العطف وأساسه الاعزاز الذى كان يحتفظ به دائما لمحمد . . . (٣) » .

وكان على بك قد أخذ الحيطة لنفسه فعين أيوب بك حاكما على جرجا ، وكلفه سرا أن يحتال على أبى الذهب ويقتله عقب وصوله . ويخيل إلينا أن أيوب بك لشدة إخلاصه لعلى بك أسر إليه بما اتفق عليه البكوات مع أبى الذهب فى الشام وهذا هو السر فى ان على بك عينه بالذات حاكما لجرجا وكلفه بتلك المهمة الخطيرة .

---

(١) ذكر فولنى ج ١ ص ١٢٨ وكذا Delaporte, P. 17h. ما خلاصته أن على بك أمر باغلاق أبواب العاهرة فأغلقت وأمر الحرس بعدم السماح لكائن من كان بولوجها داخلا أو خارجا ، وتهيأت النفوس لحدث على وشك الوقوع دون أن يعلموا كنهه . ثم عهد إلى على بك طنطاوى وأتباعه أن يعيد نفس الدور الذى مثله مع رسول السلطان منذ ثلاثة أعوام . ولكن أبا الذهب كان أسعد حظا من نظيره ، فقد نجح فى اختراق الحصار الذى ضرب حول منزله ، ثم أمر حراس أحد الأبواب أن يفتحوه بأمر على بك حتى يقوم بأداء رسالة خطيرة أمره بها مولاه وبذلك تمكن من الفرار إلى الصعيد .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) Déhérain ; L'Egypte Ottomane. P. 133.

نجدة مصرية لظاهر العمر .

وعز على بك أن يفلت من يده نصر تكلف فى سبيله كثيراً من الجهد والمال ، فبادر بتجهيز حملة يتراوح عددها بين ٥٠٠ و٦٠٠ مقاتل بقيادة عبد الرحمن بك وسليمان كاشف ومصطفى جاوش أرسلها لمساعدة ظاهر وحلفائه بقصد استعادة سلطانهم على أملاكهم السابقة . أما صغر عدد الحملة فيعزى إلى اضطرار على بك للاحتفاظ بمعظم جيشه فى مصر بعد تغير موقف أبى الذهب نحوه . وقد وصلت تلك الحملة فى الوقت الذى كان عثمان باشا يستعد للهجوم بالجيش الجرار الذى كونه من جنود دمشق وحلب وطرابلس وصيداً والقدس والدروز (١) . وتلاقى الفريقان على ضفاف الأردن فى أول سبتمبر ١٧٧٢ حيث منى الجيش العثمانى بهزيمة ساحقة تقهقر عثمان باشا على أثرها قاصدا دمشق ، بينما هزم المتاولة جيشا من الدروز بقيادة الأمير يوسف شهاب تحت أسوار صيدا كان يسرع لنجده العثمانيين . وأخيرا سقطت صيداً فى يد الحلفاء للمرة الثانية فى أكتوبر ١٧٧٢ ، وبذلك عادت موانى الساحل من غزة إلى صيدا تحت الحكم المشترك ، وفى ذلك يقول قنصل فرنسا فى صيدا « أن الحملة المصرية الثانية يرجع سببها إلى رغبة ظاهر فى اقرار النظام فى أملاكه بمساعدة القوات التى يمده بها على بك الذى هو اليد المحركة لهذه العمليات كلها (٢) . »

وعاد الأمل إلى نفس على بك وعاد المسيو داميرات قنصل فرنسا فى القاهرة يؤكد أن عليا يجهز حملة لاستعادة دمشق وأنه « لازال يفكر فى تلك المشروعات الواسعة » (٣) ولكن أفسد عليه تدبيره وصول الأخبار من الصعيد باستعداد أبى الذهب لدخول القاهرة .

---

(١) كانت الحملة تحت قيادة عثمان باشا واشترك فيها خليل باشا والى حلب ، محمد باشا والى طرابلس ، درويش باشا والى صيدا ، ووالى بيت المقدس ، والشيخ على جنبلاط قائد للدروز نيابة عن الأمير يوسف الشهابى .

(٢) Charles-Roux; lesEchelles P.P.96-97

(٣) Deherain ;l'Egypte. Ottomane. p. 133

الفصل الثانى

الكفاح الأخير

معركة بياضه وانتصار أبى الذهب — فرار على بك إلى الشام — كفاحه فى الشام — عودته إلى مصر — معركة الصالحية وأسر على بك .

عندما وصل محمد بك أبو الذهب إلى جرجا أكرمه ضجقها أيوب بك ومهد له طيب الاقامة ، ثم أهدى اليه خيولا وخياما ، وأمده بما يحتاج اليه ، وأظهر له الود والاخلاص . وفى نفس الوقت كان على بك يراسل مملوكه أيوب فى شأن أبى الذهب وحدث أن وقع فى يد هذا الأخير خطاب مرسل من على بك إلى حاكم جرجا أيوب بك يستحثه فيه على قتل محمد بك وبعده بان يحله محله السابق .

وأراد أبو الذهب أن يمتحن أخلاص أيوب فترك الخطاب يصل إلى يديه ثم حصل بالحيلة على رد الرسالة فوجد ملخصها أنه «مجتهد فى تتميم الغرض ومترقب حصول الفرصة» .

وقد أورد لنا الجبرتى ملخص مواجهة أبى الذهب لأيوب بك برسالة أستاذهما قال : « ثم قال محمد بك يخاطب أيوب بك ، ياهل ترى نحن مستمرون على الأخوة والمصافاة والصداقة والعهد واليمين الذى تعاقدنا عليه بالشام ؟ قال نعم وزيادة . قال : ومن نكث ذلك وخان اليمين ونقض العهد ؟ قال : يقطع لسانه الذى حلف به ، ويده التى وضعها على المصحف . فعند ذلك قال له : بلغنى أنه أتاك كتاب من أستاذنا على بك ! فجحد ذلك . فقال : لعل ذلك صحيح وكتبت له الجواب أيضا . قال لم يكن ذلك أبدا ؟ ولو أتانى منه جواب لاطلعتك ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا . فعند ذلك أخرج له الجواب من

جيبه ، وأحضر اليه ذلك الرسول فسقط (أسقط) فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فعند ذلك قال له : حينئذ لاتصح مرافقتك معى وقم فاذهب إلى سيدك . وأمر بالقبض عليه وانزلوه إلى المركب ، وقطعوا يمينه ، ثم شبكوا لسانه فى سنارة وجذبوه ليقطعوه . فتخلص منهم والقى بنفسه إلى البحر فغرق ومات . وكان قصد محمد بك أن يفعل به ذلك ويرسله على هذه الصورة إلى سيده بمصر (١)

معركة بياضة وانتصار أبى الذهب .

وبموت أيوب بك تغير الموقف السياسى فى مصر ، ذلك أن أبا الذهب أصبح محورا التفت حوله جميع العناصر المعارضة لعلى بك تلك التى سلبها نفوذها وأموالها ونفاها من قبل إلى الصعيد وأهمها قبائل الهوارة واتباع صالح بك والقاسمية . (٢)

وأخذ أبو الذهب يؤلف قلوب أنصار سيده ، فكسب إلى جانبه عددا لايستهان به ، وسار بحمل لواء العصيان قاصدا القاهرة فى ابريل ١٧٧٢ (١١٦٨) ولم يعد الصعيد تحت حكم على بك بشكل من الأشكال (٣) .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٦٥ ، ج ٢ ص ٣٧ — وقد نفذ ذلك عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقا .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٣٦٦ .

(٣) ذكر الجبرتى أن أبا الذهب سار نحو القاهرة بعد قضاء سبعين يوما بالصعيد ج ١ ص ٣٦٦ . وقد وصل التاجر لوزنيان عائدا إلى مصر فى الوقت الذى كان فيه أبو الذهب بالصعيد فزعم أنه عاد من سورية إلى الصعيد مباشرة ولم يدخل القاهرة — لوزينان ص ١١٤ . وانساق وراءه سافارى ج ٢ ص ٢٣٦ — ولكن هناك براهين قاطعة على خطأ هذا الرأى وصحة ماذهبنا إليه منها (١) مسألة وجود أيوب بك حا كما على جرجا من قبل على بك مع أنه كان بالشام مع أبى الذهب . (٢) خيانة اسماعيل بك وانضمامه لأبى الذهب وهو أيضا كان مع أبى الذهب بالشام ثم عاد إلى القاهرة معه . (٣) تقرير قنصل فرنسا بالقاهرة بتاريخ ٢٨ فبراير ١٧٧٢ الذى أشرنا إليه — والواقع أن أبا الذهب دخل القاهرة واستمر بها من أوائل رجب ١١٨٥ حتى أوائل شوال أى حوالى ثلاثة شهور .

ولم يكن من الهين على على بك أن يشاهد انهيار صرح أحلامه ، فعزم على تاديب العاصى ورده إلى الطاعة الواجبة عليه نحو استاذه ، فجهز تجريدة عظيمة أرسلها برا بقيادة إسماعيل بك واعقبها بالامدادات فى النيل . ولم يدر على بك أن إسماعيل كان الورقة الرابحة الباقية فى يد أبى الذهب ليستخدمها فى الفرصة المناسبة . وكان أن فوجىء على بك بانضمام إسماعيل بك إلى أبى الذهب . وتقدم الجميع نحو العاصمة (١) .

واتخذت الحركة شكلا جديدا ، فلم تعد حركة مملوك انشق على سيده ، وإنما أصبحت ثورة جامحة كغيرها من ثورات المماليك التى سبقتها والتى تلتها . انضم المماليك فيها إلى حزبين أحدهما فى الصعيد على رأسه محمد بك والآخر فى القاهرة وعلى رأسه على بك .

يقول الجبرتى « ومنذ ذلك اشتد الأمر بعلى بك ولاحت على دولته لوائح الزوال ، وكاد يموت من الغيظ والقهر . وقلد سبع صناجق والكل مزلقون ، وسماهم أهل مصر السبع بنات ، وهم مصطفى بك وحسن بك ومراد بك وحمزه بك ويحيى بك وخليل بك كوسه ومصطفى بك أوده باشه . وعمل لهم رقاوداقما ولوازم وطبلخانات فى يومين . وضم اليهم عساكر وطوائف ومماليك واتباعهم (٢)

واضطر على بك فى آخر الأمر أن يلجأ إلى موضع ثقته على بك الطنطاوى فعينه على رأس حملة ثالثة أفرغ فى تجهيزها كل جهده . وأمره بوقف سيل العصاة الجارف . ثم خرج بنفسه إلى البساتين ، وعسكر هناك للأشراف على تحصين الضفة الشرقية للنيل وانتظار النتيجة وإصدار التوجيهات اللازمة (٣) .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٦٦

(٢) تقليد على بك لسبع صناجق يشير ضمنا إلى عدد البكوات الذين انضموا لأبى الذهب ومزلقون أى متزينون ناعمون ، وتسميتهم بالسبع بنات كناية عن منتهى الترف وانغرفه وعدم الصلاحية لجهاد الحرب — الجبرتى ج ١ ص ٣٦٦

(٣) كان ذلك فى منتصف المحرم ١١٧٦ — والبساتين قرية جنوب مصر القديمة على الضفة الشرقية للنيل يشتغل معظم أهلها بقطع الأحجار وعندها كان يعبر المسافرون من الصعيد =

وتقدم الطنطاوى حتى لاقى طلائع أبى الذهب شمالى بنى سويف تجاه بياضة ومنى بهزيمه ارتد على أثرها فاشلا إلى مولاه . وتأكد على بك من عبث المقاومة فارتد الى القاهرة وتحصن بالقلعة مع غروب الشمس . أما أبو الذهب فقد عسكر على الضفة الغربية للنيل تجاه بياضه . وعزم على بك أن يقاوم مستعصما بالقلعة ولكن عثمان بن ظاهر أقنعه بضرورة الالتجاء إلى عكا حيث يجد ظاهرا على أتم استعداد لامداده بالمال والرجال لاستعادة ملكه المسلوب ، وبين له أن البقاء فى القلعة يسمح لعدوه بحصارها وقطع الامدادات عنها فيسقط فى يده حيا أو ميتا (١) .

* * *

فرار على بك إلى الشام :

اقتنع على بك بصدق نصيحة عثمان وحكمتها وعزم على تنفيذها ، فأمر رجاله بتجهيز ماله ومتاعه الخاص والاستعداد للرحيل . ثم ارسل أمرا إلى المعلم رزق وهو المتصرف فى شئون المالية المصرية باحضار ما بالخزينة من مال . ولكن رزق كان قد اختفى (٢) .

= إلى الوجه البحرى من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ، وذلك يحدث بسهولة لوجود عدة جزر فى عرض النيل تجاه البساتين .

(١) ميخائيل نقولا الصباغ ص ١١٩ — ١٢٠ . ويذكر الجبرتى ج ٢ ص ١٩ فى ترجمته للأمير على أغا المعمار (+ ١١٩١) أنه من خشدا أشهين صالح بك الذى قتل فى عهد على بك انضم إلى أبى الذهب واشترك فى معركه بياضة « وخرج هو ومن معه وبأيديهم مسارق غلاظ قصيرة ولها جلب من حديد ، وفى ظرفها أزيد من قبضة بها مسامير مقتية محددة الرؤوس إلى الخارج يضربون بها خوذة الفارس ضربة واحدة فتنخسف فى دماغه . وكانت هذه من مبتكرات المترجم حتى انه سمى بابى الجلب » وقد قتل فى المعركة .

(٢) ذكر الصباغ ص ١١٩ أن على بك اصطحب معه المعلم رزق عند خروجه من مصر وذلك على أساس وجوده بالشام مع على بك والواقع أنه اختفى ثم عاد إلى الظهور فجأة عند حصار على بك لياقا . وسيعود إلى الاختفاء مرة ثانية فى ظروف سنشرحها فيما بعد ونناقش أثر هذا الرجل فى فشل حركة على بك .

ولم ينس على بك أن يرسل سفيره يعقوب الأرمنى إلى امير الاسطول الروسى الكونت أرلوف Count Alexis Orlow يخبره بما حدث ، وبعزمه على التوجه إلى سورية ، ويرجوه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر . وكانت هذه هى الرسالة الثانية من على بك إلى أمير البحر الروسى(١) .

وفى ليلة ١٢ أبريل ١٧٧٢ (٢٥ المحرم ١١٨٦) غادر على مدينة القاهرة . وكان ضمن بطانته عثمان بن ظاهر ، والتاجر اليونانى سوفير لوزنيان كوزموبوليتس وقد كتب هذا الأخير يصف خروج على بك فقال : « أما عدد من تبعه من المقاتلة فلم يكن يتجاوز سبعة آلاف رجل من الخيالة والمشاة . وقد لزم ست وعشرون بعيرا لنقل ماله وثيابه . أما ثروته الخاصة فكانت تقدر بثمانمائة ألف محبوب نقدا ، والباقى مجوهرات تقدر قيمتها بثمانية ملايين من الدوقات . وغادر مصر فى مساء ١٢ أبريل ١٧٧٢ وجد فى السير حتى لا يلحق به أبو الذهب . . . وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر وصل قرب مدينة حيفا وعسكر فى السهول التى يشرف عليها جبل الكرمل(٢) .

أما أبو الذهب فقد دخل القاهرة فى صباح الخميس ١٣ أبريل ١٧٧٢ (٢٦ المحرم ١١٨٦) بعد أن غاب عن القاهرة سبعين يوما . وكان أول أعماله أن أمر بالقبض على من عرف بميله إلى على بك واعدم عبد الله كتخدا الباشا . وأمر

---

(١) Lusignan Chap. III. p, 117

(٢) يرى بعض المؤرخين أن عدد الحملة مبالغ فيه . وأن جيشه لم يكن يتعد ثمانمائة مملوك وألف من المغاربة المرتزقة — وقد صاحب على بك ثلاثة عشر بيكا وهم على بك الطنطاوى ورضوان بك أبن أخته ، حسن بك ، خليل بك ، مراد بك ، ابراهيم بك (وهما غير مماليك ابى الذهب) وعبد الرحمن بك ، لطيف بك ، ذوالفقار بك ، عاكف بك وسليم أغا الإنكشارية وسليمان كخيا .

بابطال النقود التى عليها اسم على بك[١] . ثم ارسل يبشر الباب العالى بما وفق إليه . وكان ذلك موجبا لزيادة الممنونية[٢] » .

* * *

كفاح على بك فى الشام :

ولم يكد يصل على بك إلى الشام حتى أصابته حمى شديدة ، لفرط ما لاقاه من الجهد والاعياء ، وثقل وطأة ماناء به من أضطراب النفس والذهن كلما انتهيته فكرة خيانة أبى الذهب . وخف إليه ظاهر فواساه وشجعه وطيب خاطره ووعده بكل مساعدة ممكنة وعرض عليه الانتقال إلى قصره بعكا فشكره معتذرا . ولما عاد ظاهر ارسل إلى حليفه المريض طبيبه ووزيره إبراهيم الصباغ فشفى بعد ثلاثة أسابيع[٣] .

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد إلى دمشق ، وتقدم بحافله لحصار صيدا يحاول استردادها من يد الحلفيين . وكان الأمير منصور الشهابى صديق ظاهر قد تنازل عن ولاية الدروز إلى ابن أخيه الأمير يوسف الشهابى وهو الموالى للعثمانيين[٤] . أما بلاد الشام فلم تكن فى حالة استقرار . دليلنا ما جاء فى الوثائق التاريخية التى نشرها أحد المعاصرين وهو الخورى ميخائيل بريك الدمشقى ، إذ يقول فى حوادث ١٧٧٢ « وأما على بك فانه هرب إلى عند ظاهر العمر فى عكا وركب معه ظاهر العمر وحاصروا يافا وبعد ثمانية أشهر ملكوها والأخبار مشكلة كل يوم وعطل السبب وقلة الأمان والمخاوف داخل وخارج والغلا متصل . . .[٥] »

---

(١) الجبرتى جـ ١ ص ٤٦٦ ، ٣٨١

(٢) جودت جـ ١ ص ٣٤٧

(٣) ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى ص ١٣٠

(٤) كانت صيدا تحت الحكم المشترك يحكمها أحمد أغا الدنكزلى باسم ظاهر وحسن بك باسم على بك .

(٥) ميخائيل بك الدمشقى ، تاريخ الشام من ١٧٣٠ — ١٧٨٢ ص ٩٨ — ٩٩

وفى أثناء مرض على بك مرت بعض قطع الاسطول الروسى بعكا فى طريقها من بيروت إلى جزيرة باروس(١) ، وكان على رأسه الشقاليبه جورج ريزو Chevalier Ceorge Rizo أحد مساعدى أمير البحر الروسى والشفاليبه قسطنطين سارو Ch. Constantin Psaro من أخص المقربين إليه(٢) . فلما علما بوجود على بك ومرضه زاراه بالمعسكر لعيادته وتقديم التحيات إليه . فاكرمهما على بك وزودهما بالهدايا وأصحبهما بذى الفقار بك ومعه هدية إلى الكونت أورلوف مع رسالة يرجو فيها ارسال بعض المدفعية والذخيرة وحوالى ثلاثمائة البانى ممن التحقوا بخدمة الروسيا حتى يتمكن من العودة إلى مصر ، وهذه هى الرسالة الثالثة من على بك إلى الكونت(٣) .

* * *

وكان على بك قد عزم على البقاء فى انتظار وصول النجدة الروسية . ولكن عند ما علم بتهديد العثمانيين لصيدا بادرهو وحليفه إلى ارسال جيش مشترك من المماليك ، وعلى رأسهم على بك الطنطاوى ، والصفديين والمتاولة وعلى رأسهم صليبى بن ظاهر والشيخ كريم صهره ، ورغم تفوق الجيش المحاصر للمدينة على الحامية المصرية فقد تمكن المماليك وحلفاؤهم من هزيمة العثمانيين الذين

---

(١) ضرب الأسطول الروسى بيروت ونهب بعض أنحائها ، ثم غادرها بعد تعهد حاكمها بدفع جزية سنوية للروس . أما القسم الرئيس من الأسطول بقيادة الكونت أرلوف فكان راسيا بجزيرة باروس إحدى جزر الأرخبيل الشمالية .

(٢) هذان القائدان البحريان من سكان جزر الارخبيل التابعة للدولة العثمانية . ولكن جزيرتهما ، بسبب الدعاية الروسية فى ذلك الوقت قامت بثورة فى مايو ١٧٧٢ مستغلة فرصة انشغال الدولة فى حربها ضد روسيا . ثم تطوع بعض أبنائها للعمل فى الأسطول الروسى بالبحر الأبيض .

(٣) كانت الهدية مكونة من ثلاثة جياد من كرام الخيل وفرس على بك الخاصة ، وكلها مطهمة . وتخيروا ذا الفقار سفيرا لأنه كان بهى الطلعة دمث الأخلاق يجمع الصفات اللازمة لنجاح السفير .

ارتدوا سريعا إلى دمشق . وعاد الجيش المصرى إلى معسكر على بك بعد انقاذ صيدا .

ولم يشأ على بك — وقد شجعه هذا النصر ، وأعاد إلى نفسه بصيصا من الأمل المفقود — أن ينتظر حتى تصله النجدة الروسية ، فعول على تطهير الطريق إلى مصر حتى إذا ما وصل المدد الروسى تقدم مباشرة فدخل القاهرة .

ورحب ظاهر بتلك الفكرة وانضم إلى على بك بكامل قوته ومعه أولاده وحلفاؤه المتاولة . وتقدم الجيش المشترك ، وبدأ بحصار يافا فى منتصف أغسطس ١٧٧٢ ، وزود ظاهر الجيش المحاصر بما يحتاجه من ذخيرة ومئونة وعتاد عن طريق البحر بسفن افرغت حمولتها شمالى يافا ثم أوصلتها الجمال إلى معسكر على بك .

وكان حسن باشا حاكم صيدا السابق — شقيق مصطفى باشا حاكم نابلس المعادية للمصريين — قد اختزن فى يافا قدرا وافرا من الزاد والعتاد فرفض التسليم وركن إلى الدفاع واحباط خطط المحاصرين .

وأخذ على بك يضيق الحصار على يافا شيئا فشيئا فى نظام محكم ، فاحاط بالبلدة فى شكل دائرى تعسكر على محيطه جماعات من المقاتلة ، بين كل جماعتين منها مائتا ياردة تقريبا ، أما كل جماعة فكان قوامها مائتين من الجند وعلى رأسهم أحد البكوات (١) . ثم نصب على بك بطارية للمدافع تجاه باب المدينة الشرقى ، تتألف من مدفعين جديدين زنة قنبلتهما إثنا عشر رطلا ، عهد بقيادتها إلى عبد الرحمن أغا(٢) . وعززها ببطارية أخرى تتألف من مدفع نحاس من عيار ١٦ بوصه تزن قنبلته ١٦ رطلا .

---

(١) كان خليل بك ولطيف بك فى الشمال الشرقى للمدينة وبينهما مائتا ياردة ثم عبد الرحمن بك ومراد بك فى الشرق ، ومصطفى بك وعاكف بك فى الجنوب .

(٢) عبد الرحمن أغا من أهالى طرابيزون له خبرة بالمدفعية ، وكان يقوم باطلاق المدافع بعض اليونانيين تحت اشرافه .

ورغم وطأة الحصار فان المدينة صمدت للمهاجمين ، ذلك لأنهما كانت تمون من البحر . وطال الحار، فارسل على بك تجريدة فتحت غزة ودخلت الرملة واللد بغير قتال ثم عادت الى حصار يافا (١) . واحكم الحلفاء الحصار ، وبدأ المدافعون يشعرون بوطأة الجوع والحاجة الماسة إلى الوقود . لذلك استعاضوا عن القمح بالأرز وأخذوا يتسللون فى ظلام الليل ، يقطعون أشجار الفاكهة التى تحيط بالبلدة لاستخدامها كوقود ، ولم يجد على بك بدا من اتخاذ الحزم ، فامر رجاله بقطع تلك الأشجار ليحرم أهل يافا من بعض مصادر تموينهم (٢) .

وأخيرا وصل ذو الفقار بك فى منتصف سبتمبر على سفينة روسية ترفع العلم الانجليزى يقودها الكابتن براون Caprain Browne ومعه يعقوب الأرمنى سفير على بك الذى كان قد أرسله إلى أمير البحر الروس قبل قيامه من مصر . وجاءت السفينة تحمل النجدة الروسية التى كانت تتألف من ضابطين روسيين ، ومعهما بعض الهدايا ، وخطاب من الكونت أرلوف الى على بك — « ولما قدمها ذو الفقار الى على بك نالا شرف تقبيل يده : أولهما الكابتن كلنجلينوف Cap. Clinglinoff من الفرسان والثانى اللفتنانت سيرجى بلستشوف S. Pleschoff وكانت الهدية تتكون من ثمان قطع من الحرير المطرز بورود صيغت الذهب وأسلاك الفضة من صنع جزيرة بحر الارخبيل ، وثلاثة مدافع للميدان من النحاس زنة قنبلتها أربعة أرطال ، وسبعة بنادق جيدة المعدن مع خمسمائه طلقة وثلاث جرارات للمدافع حديثة الصنع .

---

(١) قيل أن أبا الذهب كان يرسل المئون من مصر إلى يافا لتقوى عزيمه المدافعين عنها . وقد تعين حسن بك حاكما على اللد ، سليم أغا لحكم الرملة .

(٢) كان يحيط بيافا حدائق ذات بهجة وبساتين ليمون وبرتقال ورمان ذات شهرة عالمية . وكان على بك قد أمر رجاله بناء على رجاء أهل يافا أن يتجنبوا اتلاف تلك الأشجار وأن يكتفوا بقطف ثمارها متى شاءوا . فلما اضطر أهلها إلى قطع بعضها لانضاج خبزهم أمر على بك بقطعها جميعا حتى يحرمهم من تلك الفائدة ويدفعهم إلى التسليم .

وأما الرسالة فكانت من الكونت أرلوف إلى على بك مكتوبة باللغة الروسية فى إحدى وجهيها ، وبالايطالية فى الوجه الآخر . وقد ترجمت إلى على بك بالتركية فكانت تتضمن وعودا بالنجدة السريعة .

ولاقى الضابطان الروسيان من كرم على بك ماجعلهما يقبلان على العمل بهمة فائقة ، وهكذا أقيمت بطارية ثالثه جنوب يافا ، على بعد مائة ياردة من أسوارها ، تتألف من ثلاثة مدافع زنة قنبلتها اثنا عشر رطلا قادها الكابتن كلنجلينوف وأصلى الأسوار نارا حامية صدعتها على الأثر .

ولكن سوء حظ هذا الضابط جعله يوقف الضرب ، ويطل برأسه من شق فى السور ليرى مبلغ ماسببته قنابله للسور من تلف ، فاطلقوا عليه النار من الداخل واردته رصاصة استقرت فى صدره .

واغتم على بك لوفاته ، وانتهز الفرصة للثأر فطلب من الكابتن براون أن يعيره ثلاثة من مدافع السفينة الروسية — زنة قنبلتها ٦ أرطال — فاجيب الى طلبه وعززت تلك المدافع البطارية الشمالية الشرقية التى يقودها خليل بك ولطيف بك . ورغم تصدع الأسوار لاقى المهاجمون فى هجمتهم الثالثة دفاعا مجيدا جعلهم يرتدون بعد خسارة كبيرة فى الأرواح .

وطالت مدة الحصار فآثر الضابط الروسى أن يرتحل عائدا بسفينته . وزوده على بك برسالة شكر للكونت أرلوف ، وأخرى للقيصرة يرجوها العون والمدد وكانت تلك هى الرسالة الرابعة من على بك للقائد البحرى الروسى (١) .

وفى منتصف ديسمبر جاءت بعض قطع الأسطول الروسى إلى بيروت لتسلم الجزية المفروضة . ومرت فى عودتها بيافا ، وجاء قائدها الشقالبيه بنايوتى الكسيانو Chev. Panagioti Alexian يحمل رسالة من الكونت أرلوف إلى

(١) كان بين القتلى فى أثناء ذلك الحصار ابراهيم بك وهو ثانى البكوات الذين فقدهم على بك فى تلك الحملة ، بعد قتل أحمد بك فى تحريدة انقاذ صيدا . وقد حمل رسالة على بك الرابعة الى القائد الروسى سليمان كخيا وذلك لان ذا الفقار كان مريضا مرضا أودى بحياته بعد قليل وهو ثالث من فقد على بك من البكوات .

على بك وأخرى من الشفالييـــة ريزو Ch. Rizo. إلى ذى الفقار بك (١) . واقتصرت رسالة الكونت كالعـــادة عن التحيات والتمنيات والوعود الخلابة بالمساعدة العاجلة .

وساهمت قطع الأسطول فى ضرب يافا من البحر. ولكن الظروف الجوية اضطرتها إلى مغادرة يافا والعودة إلى قواعدها .

وسلح ظاهر بعض السفن وأرسلها لقطع خط التموين البحرى من مصر . فاضطر حسن باشا حاكم يافا أن يفر ليلا إلى أخيه حاكم نابلس . وتمكن الحلفاء من دخول يافا فى أول فبراير ١٧٧٣ ، بعد انسلاخ ثمانية أشهر على حصارها . وبسقوط يافا اختتم على بك أعماله الحربية بفلسطين ونشط يستعد للعودة إلى مصر .

* * *

عودة على بك إلى مصر :

كان كل يوم يمر بعلى بك وهو فى الشام يضعف من قوته ، ويزيد من قوة خصمه أبى الذهب . فلما تأخر وصول النجدة الروسية ، وانتهت الأعمال الحربية التمهيدية بفلسطين أعلن عزمه على العودة إلى مصر . وقد عارض فى تلك الرغبة حليفه ظاهر العمر ونصحه بانتصار المدد الروسى والاهتمام بتكوين فرقه وحسن تجهيزها وترك العصاة للزمن فهو كفيل بانقسامهم وتحطيم قوتهم (٢) .

وقد كان ظاهر ضعيف الأمل فى النصر إذا سار على بك يطلب مصر وهو فى تلك الحالة من الضعف والجهد والعناء والاضطراب النفسى ، كما أنه كان يرى فى مغادرته البلاد الشامية خسارة لاتعوض إذ كان قصد ظاهر الأول اتخاذ على بك معينا له على فتح ماستعصى عليه من المدن وتوطيد ملكه الجديد فيها وقد أشار إلى ذلك القنصل الفرنسى فى صيدا بقوله « إنه وان كان يخيل الينا أن على

---

(١) ولم يكن ريزو يعلم بوفاة ذى الفقار بك لان سليمن كخيا لم يكن قد وصل اليهم بعد

(٢) Savary ; Lettres. T2 lettre XVII, pp. 243—5.

هو القوة المحركة لتلك الأعمال التى جعلت تلك المنطقة مسرحا للكوارث ، فانها ليست كلها سوى مشروع للتوسع أوجدته اطماع ظاهر للاستيلاء على جميع المدن الساحلية » (١)

وخشى أبو الذهب أن تتغلب حكمه ظاهر على رغبة على بك الملحة ، فأوعز الى بعض البكوات الموالين له ، وبعض ضباط الفرق ، من غير فرقة اليكيجرى أن يكتبوا إلى على بك يستنجدونه ويستغيثون به من ظلم أبى الذهب وقسوته ويدعونه إلى دخول مصر (٢) . أشار إلى ذلك الجبرتى بقوله « وتحرك على بك للرجوع إلى مصر ، وجيش الجيوش فلم يهتم المترجم — أبو الذهب — لذلك وكاد له كيدا بان جمع القرانصة والذين يظن فيهم النفاق وأسر اليهم أن يراسلوا على بك ، ويستعجلوه فى الحضور وينمقوا له مساوىء المترجم ومنفراته ، ويعدوه بالمخامرة معه والقيام بنصرته متى حضره وأرسلوها اليه بالشريطة السرية فراج عليه ذلك واعتقد صحته ، وأرسل اليهم بالجوابات وأعادوا له الرسالة كذلك باطلاع مخدومهم وأشارته » (٣)

واغتر على بك بتلك الرسائل ، والح على ظاهر فى العودة . وطلب منه مالا لتجهيز الحملة ، وادعى أنه ليس فى حاجة إلى عدد كبير من الجند « لأنه حضر لى مكاتيب من سناجق مصر ، وكلهم معى يدا واحدة على محمد بك ، وعرفونى أنه حالما تظهر اعلامى لهم حيث هم فى الصالحية ينضمون إلينا متحدين معنا » .

---

(١) Charles-Roux ; Echelles...P. 67.

(٢) فى كل المحاولات التى اتخذت لخيانة على بك أوالقضاء عليه لم تشترك فرقة البكيجرى فى واحدة منها ، وبقيت على الحياد محتفظة بجميل على بك وحسن معاملته — وكان من بين مظالم أبى الذهب الرسوم التى فرضها باسم « رفع المظالم » وكانت هى نفسها ضربا جديدا من هذه المظالم السابقة .

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ٤١٨ — ٤١٩ . أما الشريطة السرية فيقصد بها اصطلاح بين الطرفين . وتسمى فى عصرنا الحاضر « الشفرة »

ولما اطلع إبراهيم الصباغ — وزير ظاهر ومشيره — على تلك الرسائل تبين فيها الخديعة ، ذلك أنها كانت متقاربة اللفظ والمعنى « ونص المكتوب الواحد منها لا يختلف عن الآخر » كأنها كتبت بإملاء فرد واحد ، فلما سمع على بك كلام إبراهيم ضحك وقال : « هذا ظن السوء من العاقل الفطن ، لكن أنا اخبر منك باولادى وأهل بيتى . . . » وعندما حذر ابراهيم الصباغ ظاهرا أبى هذا الا مساعدة على بك فى محنته قائلا : « سلطان عظيم الشأن خانه الزمان واستنجدنا ، أما ينبغى لنا ان نساعده وننجده[١] » وذلك من كثرة الحاح على بك .

وعاد على بك إلى مكاتبة البكوات فردوا يؤكدون ويقسمون . وأخيرا عاد سليمان كخيا من سفارته إلى الكونت أورلوف دون أن يصحب مددا ، وكان المعلم رزق قد ظهر بعد غيبة طويلة واعاده سيده إلى خدمته وراح يؤكد لعلى بك أن ساعة الرحيل قد دنت[٢] .

وأخذ ظاهر يجهز مددا لحليفه على بك ، واخذ هذا يهيء نفسه للرحيل ، فأمر بجباية الأموال المفروضة على غزة والرملة واللد وجمع ما عسى يكون بها من مئونة للجيش وعلف للخيل . ثم سحب حاميات تلك المدن ، وبدأ تحرك الجيش من يافا فى أوائل مارس ١٧٧٣ . وكان الجيش مكونا من مماليك على بك وجند الشيخ ظاهر من الصفديين وعلى رأسهم صليبى ابنه وكريم صهره ، ثم ثلاثة آلاف من المغاربة المرتزقة ، وكان عدد الجند جميعا لا يتعدى ثمانية آلاف رجل بين راكب وراجل .

ومر الجيش فى طريقه بغزة فى أواخر مارس ، ثم خان يونس فى مساء ٤

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر . ص ١٢٣ — ١٢٥

(٢) عاد سليمان كخيا فى أواخر فبراير ١٧٧٣ — أما دور المعلم رزق فى خيانة على بك فسنناقشه فى موضع آخر .

ابريل (١١ المحرم ١١٨٧) ثم تقدم إلى الصالحية بعد أن استراح يومين فوصلها فى ٩ ابريل . وهناك التقى جيش على بك بطلائع جيش أبى الذهب ، ورغم تفوقه فى العدد على جيش على بك فان المعركة لم تستمر سوى أربع ساعات انسحب الجيش المدافع على أثرها بعد أن منى بهزيمة كبيرة وخسارة فى الأرواح وتمكن على بك الطنطاوى من الاستيلاء على الصالحية .

وأسقط فى يد أبى الذهب ولكنه لجأ إلى الحيلة والخديعة ، فجمع ذوى الحيثية من رجال القاهرة وأثار فيهم روح الجهاد دفاعا عن الدين متظاهراً أمامهم بمظهر المدافع عن الحريات والعقيدة الدينية قائلا « لقد احطت علما بالدعوة التى وجهها بعضكم إلى على بك . أما أنا فإنى (بيك) مثله وحيثما ذهبت فيمكننى أن أحتفظ بهذا الشرف : ولكنى أرى لزاما على قبل مغادرة هذه البلاد بصفتى مسلما قوى الإيمان ، أن أخبركم بأن على بك الذى تحسبونه سيحكمكم خيرا منى إنما هو حليف الروس الملحدين وسيستقدم جيشا أوربيا كبيرا يحله بينكم . ومما يزيد الطين بله أنه فى قلبه يميل إلى المسيحية أكثر من الإسلام ، ولكم أن تثقوا بقولى أنه بمجرد أن يتمكن هؤلاء النصارى من أرضكم سيغتصبون أموالكم ويستحيون نساءكم وبناتكم ، وأخيرا سيجبرونكم على تغيير دينكم . وإنى لأرجو مخلصا أن تثقوا فى قولى حتى لا تقع فيما وقع فيه اخواننا مسلمو الهند .

فعند ما ظهر الأوربيون لأول مرة على ساحل ملبار سالمتهم طوائف السكان وعاملوهم معاملة كريمة . إذ كانت دعواهم أنهم جاؤا بقصد التجارة ، ولما سمحوا لهم بمزاولة تلك الحرفة الشريفة ، بدأوا يستقرون ويقيمون المنشئات باسم المصانع ، وتدرجوا حتى اصبحوا حكاما للهند وراحوا يغتصبون الأموال وينتهكون الأعراض ، بل أنهم فعلوا ما هو افظع من ذلك . . . أنهم بشروا بالدين المسيحى بين فريق المؤمنين من اتباع الرسول الأمين .

ويمكنكم الآن أن تتصوروا ما سيفعله أولئك الأوربيون متى قدموا إليكم وعلى رأسهم رجل كعلى بك ، أيها المسلمون الموحدون . . . اعينونى على طرد

عدو بلادكم وعدو شريعتكم ، والا فتحملوا كل الشرور التى يعانيها أخوانكم فى الهند ، والآن اعتقد أنى اديت واجبى كمسلم ولكم الخيرة بينى وبينه[١] .

ونهض أبو الذهب متظاهرا بالانصراف فمنعه الجميع معلنين فى وقت واحد عزمهم الاكيد على الاستشهاد فى ساحة الجهاد ، واستغل أبو الذهب فترة ذلك الحماس فأعلن فى المدينة أن كل « من أحب دينه ووطنه فليتقدم إلى حمل السلاح[٢] » .

* * *

معركة الصالحية وأسر على بك :

وبذلك تمكن أبو الذهب من جمع جيش كبير سيره للقاء على بك بالصالحية ، وبقى هو بالعادلية . وكتب القنصل الفرنسى بالقاهرة المسيو داميرات يقول فى ابريل ١٧٧٣ « أن زعماء البلد يثيرون الآن حربا دفاعية ، والجميع يتطلعون إلى نتيجة ذلك الكفاح[٣] » .

ولما سمع على بك تلك الأخبار السيئة أثرت فى نفسه تأثيراً سيئاً ، زاده سوءا شدة تعبه وقسوة حرارة الجو فوقع تحت براثن الحمى . ورغم وطأة المرض كان على بك يصمم على أن يشرف بنفسه وهو جالس عند باب فسطاطه على تدريب جنوده اليومى — وصف التاجر لوزنيان التقاء الجيشين فقال « وبدت طلائع جيش أبى الذهب فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل . ورغم قلة عدد

---

(١) لبس أبو الذهب ثوب الحمل ، وبرأ نفسه من رسائل التحريض التى وجهت إلى على بك للتغرير به .

(٢) lusignan Chap. III pp. 241. 145 — 7.

(٣) ذكر بعض المؤرخين ، مثل حيدر ج ٢ ص ٨٢٤ ، أن الوقعة الحاسمة كانت فى غزة والواقع أنها فى الصالحية . وقد ذكر الجبرتى ج ١ ص ٣٨٦ وصفا للصيوان الذى كان يقيم فيه أبو الدهب بالعادلية قال « هو صيوان صالح بك فى غاية العظم والاتساع والعلو والارتفاع وجميع دوائره من الجوخ وبطانته بالأطلس الأحمر وطلائعه وعساكره من نحاس أصفر مموه بالذهب . أما العادلية فهى المنطقة الواقعة خارج باب النصر عند قبر الملك العادل طومان باى

جيشنا إلى حد كبير فانه كان قد نظم تنظيما محكما لملاقاة العدو . . فعهد بقيادة جناحنا الأيسر إلى الشيخين صليبي وكريم ، وبقيادة الجناح الأيمن إلى الطنطاوى والبكوات الآخرين ، بينما جعل المشاة فى القلب ، وبدأت المعركة فى الساعة الحادية عشرة صباحا على وجه التقريب . وصادف طنطاوى توفيقا فى الهجمة الأولى ، ولكن صليبي وكريم لم يكونا كذلك . ورغم هذا فقد لاحت تباشير النصر إلى جانبنا . ولكن انضم مشاتنا الخونة إلى جيش العدو ، وعم الفزع . أما طنطاوى فقد أحيط به واستشهد ، ولاقى صليبي نفس المصير ، ولما رأى الشيخ كريم مقتل أخيه ومعظم جنده فزع نحوى مع الشيخ حسن ، ووصل ثلاثتنا إلى فسطاط على بك بصعوبة كبيرة .

وما أن رآنا حتى قال فى لهفة : ما الخبر ؟ فأجاب كريم ، والدموع تنهمر من مآقيه ، إننا قد فقدنا كل شىء ، وأنه ينبغى ألا تضيع الفرصة . ثم عرض عليه أن يمتطى صهوة جواده حتى نفر إلى غزه .

ولكن على بك ظل جامدا صامدا ، وقال بلهجة اليقين أنه يفضل الاستشهاد على العودة ، وبينما نحن كذلك أقبل رضوان بك . . وعندئذ سمح على بك بالفرار لكل من أراد النجاة قبل أن يقترب العدو . فصدعنا بالأمر واستأذناه فى الرحيل . . . وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء [١] ، ولما وصل لوزنيان إلى غزه تبعه بعض من فروا فى مساء يوم الموقعة ووصفوا له خاتمة على بك فكتب يقول « وبعد رحيلنا بقليل هجم كخيا أبو الذهب ومعه حوالى الثلاثين رجلا على فسطاط على بك ، واقتحموا بابه رغم مقاومة عشرة من مماليكه قتل وجرح فى أثنائها بعض المهاجمين . ولما أحاطوا بعلى بك فزع رغم مرضه إلى سيفه فشهره للدفاع عن نفسه وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين . وعندما تبين المهاجمون جرأة المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب ذراعه الأيمن وابهامه بطلقتين ، ولكنه لم ينفك يقاوم وأطلق النار عليهم بيده اليسرى فجرح

(١) Iusignan ; pp. 149 — 150.

الكخيا ، ولكنه خر على الأرض طريحا بعد أن أصابت يده اليسرى طعنة سيف فحملوه جريحا أسيراً إلى فسطاط أبى الذهب (١) » .

واتفقت روايات المؤرخين على أن خيانة المرتزقة من مشاة المغاربة كانت العامل الأساسى فى هزيمة الصالحية ، وهى أهم المواقع الثلاثة الحاسمة فى تاريخ على بك . وقد أكد المؤرخون دور الخيانة الذى قام به مراد بك فانه قاد جيش استاذه أبى الذهب بعد أن وعده بمستولدة على بك الفائقة الجمال واسمها نفيسه وتلقب بأم المماليك ، وكان مراد مولعا بحبها فاجتهد حتى كتب النصر لابى الذهب (٢) .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين مثل ڤولنى جـ١ ص ١٣٢ أن على بك جرح فى وجهه وذكر بعضهم أنه جرح فى فخذه والصحيح ماذكرناه .

(٢) وقد ذكر همر أنه قابل الست نفيسه بالقاهرة سنة ١٨٠١ عند ما كلفه السير سدنى سمث بتوصيل بعض الهدايا اليها Hammer; v. 15. p. 354.

الفصل الثالث

وفاة علي بك وتقديره

تحليل شخصيته . تقدير حركته وفاته

وفاته :

لم يكد علي بك يصل إلى معسكر عدوه حتى انكب أبو الذهب على يد ولى نعمته يقبلها ، وقلده بقية البكوات . ثم حملوه فى محفة إلى داره بالازبكية وكرسوا أحد الأطباء لخدمته حتى كاد يبرأ (١) ، ولكنه توفى بعد بضعة أيام قبل أثر نكسه وقيل بالسم (٢) . وكان ذلك فى أوائل مايو ١٧٧٣ الموافق ليلة الخامس عشر من

---

(١) ذكر بعض المؤرخين أن مراد بك هو الذى تجاهل على بك وضربه بالسيف وذكر نقولا الصباغ ص ١٢٨ أن أبا الذهب هو الذى تجاهل على بك وضربه ، وأن على بك صاح به « قتلتنى ياولدى » والأصح مما ذكرناه — وقد علق كثير من المؤرخين على سلوك أبى الذهب نحو على بك بعد أصابته بانه تظاهر مفتعل . والواقع انه رغم منافسة محمد بك لسيده ، تلك المنافسة غير الشريفة فانه كان يجله ويحترمه ، بل أن هذا كان طبع المماليك ، أشار إلى ذلك المؤرخ ديهران Deherain, p. 136. فقال ماترجمته « ولا ينبغى لنا أن تعتبر ذلك مجرد تظاهر سطحى ، فان الرابطة التى كانت تربط بين المملوك وولى نعمته لايمكن أن تفصمها أحداث القدر . فلا زال المملوك يحترم ولى نعمته مهما علا قدره وانحط قدر سيده . فهو دائما مملوكه يتوجه اليه بالإجلال والاحترام . »

(٢) قضى على بك مدة بعد أصابته ، قيل ثلاثة أيام ، وقيل سبعة وقيل ثمانية . ثم أن بعض المؤرخين يشك فى وفاته من جراحية : فمثلا ذكر سافارى ج ٢ ص ٢٢٠ أن بعض الناس أخبروه أن على بك مات بالسم وهذا يوافق ماذكره فولنى ج ١ ص ١١٣ . والواضح أن المدة التى وقعت بين اصابته ووفاته لاتكفى لشفاء الجراح التى اصابته . فهو أما أن الحزن قد أثر عليه تأثيرا سيئاً فقسدت جراحه ، وأما أن يكون أبا الذهب قد لجأ إلى السم للقضاء على متاعب المستقبل .

شهر صفر ١١٨٧ هـ . ذكر شمعدانى زاده صاحب « مرعى التواريخ » فى حوادث سنة ١١٨٧ أن على بك ثمل بعد شهر بكأس الخيبة وسار فى قافلة اقليم العدم متأثراً بجراحه ، ثم دفن بالقرافة الصغرى قرب الأمام الشافعى بالقاهرة فى احتفال مهيب (١) .

وتوجد مقبرة على بك باحد الحيشان بالقرافة الصغرى ، قرب الأمام الشافعى وهى مقبرة عادية من الرخام حفرت حولها بعض النقوش والكتابة بخط واضح جميل . وهى من الآثار المسجلة بادارة حفظ الآثار العربية . وفيما يلى نصوص تلك النقوش .

١ — نقوش وجه الشاهد الأمامى :

(لا إله إلا الله محمد رسول الله « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » إنا لله وإنا اليه راجعون)

٢ — واجهة المقبرة :

« روحيجون فاتحة » أى « الفاتحة على روحه »

٣ — ظهر الشاهد الأمامى :

« بسم الله الرحمن الرحيم » وتحتها اسم « على » مزدوجا

(١) يذكر المؤرخ ممرح ١٥ فى الخطاب الثالث والستين ص ٣٥٤ أن أبا الذهب قطع رأس على بك قبل دفنه ، ثم قدمها إلى خليل باشا الوالى العثمانى ليرسلها إلى السلطان دليلا على صدق ولائه — ولكن المؤرخين الآخرين لم يقولوا بهذا الرأى ولم يذكره المؤرخون الترك كما أنه واضح حسب رواية الجبرتى جـ ١ ص ٣٣٧ أن على بك أصيب وأسر ليلة ١٥ صفر وان خليل باشا العثمانى وصل مصر فى ١٧ ربيع أول أى بعد مايزيد على شهر من وفاة على بك ولذلك تستبعد تلك الرواية .

٤ — واجهة الشاهد الخلفى :

« فى قبره أمسى أمير اللوا ، يرجو الرضى ، من أكرم الأكرمين ، أعنى على القدر بين الورى ، والله ذو فضل على المؤمنين ، لعله يارب ، ورب الملا من شأنه يعفو عن التائبين ، سامحه فضلا واعف عن ذنبه يارب واحشره مع الفائزين ، فرحمت المولى لنا أرخت بان عفو الله للمذنبين » وتحتها عام (١١٨٧) وهو عام وفاته .

٥ — ظهر المقبرة :

« كل نفس ذائقة الموت »

٦ — طوق من الكتابة حول جوانب التربة الأربعة :

« آية الكرسى من أولها إلى آخرها »

والثابت أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل التربة ، وهو الذى وافق على عمل النقوش السابقة ، وهى تدل على احترامه لأستاذه وتبجيله ذكراه .

* * *

تحليل شخصيته :

مير اللوا على بك كما كان اسمه الرسمى ، أو الجن على بك كما كان يلقبه المصريون أو على بك بلوت قپان كما كان يسميه العثمانيون ، أو على بك الكبير كما لقبه بعض الرحالة الأوربيين وشاع عنه ذلك فيما بعد شخصية مغايرة للشخصيات التى ظهرت فى مصر العثمانية قبل أيامه . شخصية أحاطتها هالة من التمجيد ، وذاع صيتها فى مصر وبلاد العرب والشام ومعظم أوربا وخاصة فى فرنسا وانجلترا وروسيا والبندقية .

ولم تكن هذه الشهرة وليدة أساليب البيان وسحر البلاغة كما لم تكن تلك الهالة وليدة الخيال ، انما استحدثت وجودها من الواقع الذى لايخطىء ، ولذلك فشخصيته من الشخصيات السهلة التحليل ، على غير مايظن لأول وهلة بسبب تخبط كثير ممن كتبوا عنه ، أما لعدم تحصنهم بالدقة وأما لاعتمادهم على مصادر

« على بك الكبير فى أواخر عهده »

نقلا عن صورة له نشرت بمدينة البندقية (عن شارل رو)

غير موثوق بصحتها . وأظهر مابرزفيه من صفات صفتا الدهاء والجرأة فبالأولى حاك الدسائس وملك الحوادث وبالثانية وضع أساس مجده وخلد ذكره .

وان تعدد ألقابه التى أشرنا اليها ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة . فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ظهر فى عصر اضطراب وفوضى ، وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة إلى رجل مثله . وقد اتقن على بك دوره وأخذ فى تنفيذه مضحيا بكل مايملك من صحة ومال . ولم يكن يكترث لمرض بعد صحة ، أو تعب بعد راحة ، أو فقر بعد ثراء مادام يجد منفذا إلى غرضه المزدوج . أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ماتشتت من سلطة الباشا العثمانى ، وأن يخلق من الفوضى نظاما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه .

* * *

كان على بك أبيض اللون ، واسع العينين يشع منهما دكاء وقاد وعزم أكيد مشرق الطلعة ، متين البنية ، قامته إلى الطول أميل . صريحا فى سلوكه ، كريما فى معاملته . وهبته الطبيعة شجاعة لايشوبها خور وذكاء مع صـــدق فراسة ، وأحكام تدبير وسرعة بديهة (١)

وذكر الجبرتى انه كان عظيم الهيبة اتفق لاناس ماتوا فرقا من هيبته « وكثيرا من كانت تأخذه الرعدة بمجرد المثول بين يديه فيقول له هون عليك ، ويلاطفه حتى ترجع له نفسه ثم يخاطبه فيما طلبه بصدده » (٢)

لم يربه والده فى القوقاز ، ولم يربه أستاذه ابراهيم كخيا فى القاهرة بقدر ماربته الأيام فى مصر والشام . عركته الحوادث ومرسته الخطوب منذ كان صبيا يتلهى بالصيد فى احراش القوقاز . وتقلبت عليه صروف الدهر مذ أسر رقيقا وبيع مملوكا ونصب بيكا ثم نفى شريداً . وذاق حلاوة الأمل ونشوة النصر

---

(١) Savary Lettres. . T. 2' pp. 250 - 251.

(٢) الجبرتى جـ ١ ص ٣٨١

فتولى شيخا للبلد وأميراً للحج وقائمقام مصر وختم حياته فى الأسر وانتهى كما بدا فى ذمة التاريخ شخصيه جديرة بالبحث وصاحب ثورة نجحت بهمته ثم فشلت لأسباب خارجة عن إرادته .

وفى خلال السنوات الخمس والأربعين التى عاشها على بك تسلح بالأمل والرجاء ولم يقنط يوما أو ييأس مهما ادلهمت الملمات . فقد اعتقل أكثر من مرة ونفى أكثر من مرة ولكنه كان فيها ثابت الجنان قوى الثقة بنفسه .

وصادفته ظروف حرجة كان كل واحد منها كارثة جارفة ولكنه ظل شديد الأمل بالنصر قوى الإيمان بالله . رأيناه كيف وقف فى الصالحية وحيدا يناضل جيشاً بأكمله وقف واثقا بنفسه يصارع الخيانة والغـــدر ، وحارب بشجاعته المأثورة عنه يصرع أعدائه حتى تغلب المسلحون على الأعزل وقضت كثرة العدد على شجاعة البطل ، ورغم ذلك كله ظل قلبه عامراً بالإيمان .

وزيادة على فضائله الشخصية من طموح وذكاء وثقة بالنفس فانه كان تقيا متين الخلق يرعى فروض العبادات فى تواضع القادر يؤم المساجد ويواظب على صلاة الجماعة . وقد عزا كثير من المؤرخين بعض عوامل فشل حركته إلى انهماكه فى الملذات . تلك الوصمة التى يصمون بها حكام الشرق السابقين (١) . ولكننا فى الوقت الذى لانجدفيه مايؤكد تلك التهمه تصادف ماينفيها أويضعف من قوتها . ففى الوقت الذى عرف فيه ببغض الخمر كان مشهوراً بهواية الالعاب الرياضية والتمرينات الحربية . وفى الوقت الذى كان غيره منكبا فيه على ملذاته كان على بك ببيت مسهدا يصرف الأمور فى صبر وروية (٢) .

* * *

تزوج على بك « الست عائشة قادن بنت عبد الله البيضاء معتوقه (أستاذه) الأمير ابراهيم كتخدا مستحفظان » وكان له ثلاث مستولدات اتخذهن زوجات ،

---

(١) بولس قرالى . السوريون فى مصر ج ١ ص ٨٤ Volney V. 1. p. 134.

(٢) Bruce Voyage.. V. 1. pp. 34, 42.

وأوقف عليهن وعلى زوجه أوقافا تكفى لكى يعشن فى رغد من بعده . وهن « الست نفيسة خاتون بنت عبد الله البيضاء » « والست كلسن خاتون بنت عبد الله البيضاء » « والست منور خاتون بنت عبد الله البيضاء » وقد توفيت كلسن فى حياته . أما أحبهن إلى نفسه فكانت « الست نفيسه » أو « أم المماليك » كما كانوا يلقبونها ، وقد ميزها عن سابقتيها فى وقفيته[1]. ورغم أن هذه جاءت إلى مصر جاريه الا أنه كان فى علاقته بها مثالا للعفة والرجولة . ولم ينجب على بك سوى طفلة من الست نفيسه ماتت فى سن مبكرة .

قصة زواجه بمارى :

أورد لنا التاجر لوزنيان قصة زواجه بها فقال « وفى سنة ١٧٦٤ اشترى على بك شابه فاتنة من روسيا الحمراء « جلبها إلى مصر مصطفى الطرابيزونى ، وقد أغرم بها على بك ولكنه بدل أن يغتصبها لنفسه عرض عليها أن يتزوج منه على شريطة أن تعتنق الديانة الإسلامية . ولكنها رفضت أن تغير اسمها — مارى — أو أن تترك المسيحية . وأعجب على بك بشهامتها وسمح لها لو أرادت أن تبقى كما تريد . وكانت مارى جديرة بحبه حقا ليس فقط لبهاء منظرها وسحر عينيها الدعجاوتين وأهدابها الساحرة ولون بشرتها الوردى ، بل أيضا لطيبتها وكرم أخلاقها وسمو أفكارها . ورغم أن كثير من الجوارى كن يقمن بخدمتها فأنها كانت تعاملهن كالأخوات . [2] »

* * *

(١) حجتا وقف على بك الكبير ١٠ شعبان سنة ١١٨٣ ، القعدة سنة ١٢٨٥ .

(٢) lusignan. PP. 82—83 — وبعد وفاة على بك تزوج مراد بك من الست نفيسة ، وهذا هو السر فى اشتهارها باسم « نفيسة المرادية » . تكلم عنها التاجر لوزنيان ١٧٧٢ والرحالتان سافارى ١٧٧٩ وبراون ١٧٩٨ ، وقابلها المؤرخ عمر بالقاهرة سنة ١٨٠١ . وترجم لها الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) . عاشت ثلاثة وأربعين سنة بعد وفاة زوجها الأول على بك كما أنها عاشت حوالى خمسة عشر عاما بعد وفاه زوجها الثانى مراد بك ويعتبرها المؤرخون أعظم شخصية ظهرت بين سيدات مصر فى ذلك العصر ، فقد جمعت إلى سحر =

وكان على بك فى نظر الأوربيين شخصا ممتازا غير عادى ، فهو كحاكم ومصلح كان يجمع كل صفات رجل الدولة . وهو مثل طيب للرجل العظيم ونموذج حى سابق لمحمد على الكبير (١) .

وحتى ڤولنى الذى يشيع حقده على المماليك بين سطور كتابه شهد بأن على بك كان يملك أسس الصفات العظيمة وأنه « ينبغى علينا أن نمتدح فى على بك فضيله ميزته عن غيره من الحكام المستبدين فى مصر ، فانه وأن تكن قلة حظه من الثقافة منعته من بلوغ المجد الحقيقى فالثابت أنه كان مطمحه الذى يسعى إليه . والمجد والفخار لم يكونا فى وقت من الأوقات مطمح النفوس الشريرة (٢) . »

غير أننا نأخذ على على بك أن صفاته الطيبة لم تعصمه من اتباع تلك الطرق الغادرة فى القضاء على المنافسين ، فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بإزهاقها ليعبد بها سبيل مجده تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر . وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء . وعلى كل حال ينبغى لنا أن نقرر دون قصد الدفاع عنه أنه لو لم يلجأ إلى تلك الطرق لكان هو نفسه أحد هؤلاء الضحايا .

* * *

= الجمال وسمو العواطف ونبالة الأخلاق قسطا لا بأس به من الثقافة والتهذيب . اكتسبت احترام المماليك وكانت تلقب « بأم المماليك » . كما استعبدت قلوب الشعب بما كانت تصلهم به من بر وإحسان وحماية . ونالت تقدير التجار الفرنسيين وكانت موضع مهاداة قناصلهم . كان لها مركز ومكانة ونفوذ فى عهد على بك واحتفظت به فى عهد مراد بك . وعاصرت الحملة الفرنسية بمصر ثم العهد العثمانى التالى لها ثم أوائل عصر محمد على باشا وكان لها فيها أدوار مشرفة أساسها حماية من اتصل بها من أفراد الشعب . وتعرضت فى أثناء ذلك لتعسف الفرنسيين وعسف العثمانيين فذهبت ثروتها ولم يبق لها إلا منزلها الذى كان قد شيده على بك بدرب عبد الحق على بركة الأزبكية . ولما توفيت ١٢٣١ هـ دفنت كزوجها على بك بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى .

(١) Combe : P. 47 & Cuemard : les Reformes en Eg. D'Ali Bey El-Kabir . . . P. 88

(٢) Volney. T. I. PP. 133—135.

تقدير حركة على بك .

تفرق الناس فى تقـــدير ثورة على بك لأنهم نظروا إليها من حيث مبلغ تاثيرها فى مصالحهم الخاصة . أما العثمانيون فكانوا بطبيعة الحال أشد الجميع سخطا على على بك وثورته . لاسيما وأنه تخير للقيام بها وقتا من أحرج الأوقات فى التاريخ الدولة ، عنـدما كانت تهددها الجحافل الروسية فى البر والأساطيل الروسية فى البحر . فعجزت عن ارسال جيوشها لاخماد حركته وفى نفس الوقت حال بين الدولة و بين تجريد عدة فرق مصرية تصد بها غائلة الروس .

لذلك كان فى نظر المؤرخ العثمانى شمعدانى زاده صاحب « مرعى التواريخ » « مفسدا خنزيرا وشخصا زنيما قليـل الإيمان ، ارتكب مالا يرتكبه إلا كافر ، فقد منع جيش مصر من القدوم إلى الحرب وكفار موسكو يستولون على أملاك الدولة برا وبحرا ، وحال بين أربعين أو خمسين ألفا و بين الكفار ، ذلك غير الأموال الطائلة التى أرغمت الدولة على صرفها . »

أما جودت فقـد اعتبره « مجازفا لم يدرك أن كثيرا من أمثاله غلبت عليهم الشقاوة فعصوا الدولة العلية ثم وقعوا فى شرك العقاب والجزاء الذى يستحقونه وهو فى نظر رسمى أحمد الكريدى صاحب ، خلاصة الاعتبار ، « زعيم البؤس والشقاء فى مصر » . واعتـبرت حركته فى ذلك الظرف الحرج « من المصائب التى لا تخطر بالبال » واعتبر أحمد واصف صاحب ، محاسن الآثار ، « أن هذا الحادث نادر شاذ خارج عن طبيعة الدهر ، فلا يحدث مثله الا مرة كل مائتين أو ثلاثمائة عام (١) »

وأما الشعب المصرى فقـد شعر بنعمة الأمن والعدل ، ولـكنه فى الوقت نفسه أحس بوطأة الضرائب التى فرضت عليه لتشهيل حملات الحجاز والشـام ولم تكن الاصلاحات والتعـــديلات التى قام بها على بك — لـكى يجعلها موردا

---

(١) شمعدانى زاده حوادث ١١٨٧ مخطوط تركى ، جودت جـ٢ ص ٣٤٥ ، رسمى الـكريدى حوادث سنة ١١٨٨ مخطوط تركى ، أحمد واصف جـ ١ ص ٢١٢ .

للمال يحل محل الضرائب — قد آتت أكلها فى المدة القصيرة التى قضاها . ولذلك لاتعجب أنه رغم تأكيد سافارى تمجيد الشعب لذكرى على بك وتأسفهم لانقضاء عصره الذهبى ، كانوا يأخذون عليه كما ذكر فولنى تماديه فى فرض الضرائب وقصره حق استثمار بعض المشروعات الاقتصادية الحيوية على طائفة من مريديه (١) .

وأما الجاليات الأجنبية فى مصر والشام فقد سعدت فى عهده ، ولاقت من حسن المعاملة مالم يحلم به أفرادها . فنزعة التسامح الدينى كانت قوية فى نفس على بك ، ذلك لأنه تبين ضرورة تشجيع التجار الأجانب والاستعانة ببعض من يثق فيهم لانهاض حركته .

وعلى هذا الأساس شجع هجرة السوريين إلى مصر وأكرم القناصل الفرنسيين وأحسن معامله الرحالة الانجليزى جيمس بروس وغيره . أما أهم معاونيه الأجانب فكانوا من أسرة روستى أولهم التاجر البندقى كارلو روستى الذى اتخذه مشيرا فى المسائل التجارية والخارجية ، ثم شقيقه بلثار Balthasar الذى تعين مديرا لجمرك جدة ، ثم ابن أخته السنيور فيرارى S, Ferrari الذى ناب عن خاله روستى فى حكم الطرانة واستغلال النطرون فى تلك المنطقة من صنجقية البحيرة .

وكان التاجر الفرنسى برتران Beqtrand من ضمن المقربين إليه (٢) . وكذلك التاجر اليونانى سوفير لوزنيان كوزمو بوليتس Sauveur lusignan Kosmopolites . ومن السوريين عاونه كثيرون أهمهم المعلم ميخائيل فرحات ثم يوسف البيطار . وإلى هذين وغيرهما من السوريين فى مصر يعزون تحريض على بك على فتح الشام وإلى ابراهيم الصباغ وزير ظاهر العمر يعزون تحريض الشيخ على التحالف مع على بك . أى أنهم ينسبون إلى السوريين فى مصر والشام فضل اقتراح وتوطيد ذلك التحالف الناجح بين على بك والشيخ ظاهر (٣) .

---

(١) Volney. V. I. PP. 136—137 & Savary : I. XVI. P. 220

(٢) Bruce. v. I. P. 35

(٣) بولس قرالى : السوريون فى مصر ج ١ ص ٨٦ .

أما التجار الأجانب فقد أثنوا على عهده ، لأن الأمن والعدل اللذين سادا فى عهد على بك ساعدا على ازدهار النشاط التجارى .

فعلى بك فى نظرهم وفى الواقع خلق من الفوضى حكومه رشيدة . وقد قارن بروس الانجليزى بين الحكومة التى أقامها على بك والحكومات السابقة فقال « وربما لا يوجد فى العالم رجال اجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة » إلى أن يقول « ولحسن الحظ عند ما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل كان على بك الشهير يحكم بنفسه أو بوساطة عماله[١] » . وفى الوقت الذى شاد فيه سافارى بعدل على بك وكرمه [٢] ، اعترف كل من ڤولنى وأوليفيه أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد[٣] .

ولم يفت المسيو دى شابرول De Chabrol من كتاب الحملة الفرنسية وهو يتحدث عن « عادات أهل مصر الحاليين » أن يشير إلى أن « حكمة وحزم هذا الرجل النابغة — الذى لم ينقصه سوى حظ أوفى من الثقافة ومجال أوسع ليدهش العالم — مكناه من أن يبث فى نفوس المصريين روح التسامح الذى صدفت نفوسهم عنه طويلا[٤] » .

ولم يغفل على بك صالح الشعب ولم يهضم له حقا ، قرر ذلك الرحالة براون على لسان زوج مراد بك فقد ذكر أن « أم المماليك » وهى زوج على بك من

---

(١) Bruce, v. I. P. 88

(٢) أورد سافارى قصة من عشرات القصص التى تصلح مثلا لعدالة على بك ملخصها أن أحد المماليك قابل تاجرا من تجار البندقية قرب مصر العتيقة فأجبره على النزول عن ظهر دابته واغتصب ازاره ، ولما علم على بك أحضر الجانى وعنفه أمام الاجنبى وأجبره على أن يعتذر له علنا ثم أمر باعدامه Savary : T. 2. P. 220

(٣) Olivier V. II. P. 108 & Volney. V. T. P. 135

(٤) De Chabrol, T. 2 P.723 (Description De l' Eg.)

قبل كانت موضع احترام المماليك جميعا يتشرفون بزيارتها كلما تولوا منصبا من المناصب لتزودهم بالنصائح الثمينة قائلة « إياكم واغتصاب حقوق الشعب ، فان زوجى كان دائما يرعاها حق رعايتها »[١] .

ودأب على بك على الاصلاح واقر العدالة وأقام حربا عوانا على العابثين بالأمن ونشط التجارة وشجع العلوم إلى حد ما . ففى وسط الفوضى التى كانت سائدة من قبل ، وإهمال مرافق الشعب كرس على بك نفسه لخدمته . وفى عصر هضمت فيه الحقوق حاول على بك رفع منار العدل ، ومن خلال أحابيل المجرمين وسطوة اللصوص وقطاع الطرق نشط على بك يوطد الأمن ويوجد حالة من الاستقرار والهدوء والسلام . ومن حلكة ظلام الجهل بزغ قبس اهتمامه بالعلم والعلماء حتى « لقد دهش الجميع لمبلغ ما وصل إليه ذلك الشعب المتبربر (فى نظر لوزنيان) من حضارة فى تلك المدة القصيرة »[٢] .

---

(١) ظن بروان أن زوج مراد بك كانت بنت على بك والواقع أنها كانت زوجا له (Browne, p. 8' 2.)

(٢) Lusignan, p. 103

الخـــاتمة

عوامل فشل الحركة وأثرها فى تاريخ مصر

أولا — عوامل فشل ثورة على بك

أراد على بك أن يكون له حكم مصر فكان له ما أراد ، ثم تطلع إلى الفتح فسارت جيوشه المنصورة شرقا إلى بلاد العرب وشمالا إلى بلاد الشام ، وتسامع الناس عن ثورته ، وذاع صيت بطولته فى أوربا .

وأخيراً بعد سنوات أربعة قضى على بك فى الأسر بعد أن شاهد انهيار صرح أمانيه التى كانت قد تحققت . فمصر عادت مسرحا للدسائس الداخلية تحت السيادة العثمانية والشام كذلك . كما طرد الشريف عبد الله من شرافة مكة تنفيذاً لأوامر أبى الذهب وإجابة لرغبة الباب العالى .

أما أهم العوامل التى أدت إلى فشل تلك الحركة فتتلخص فيما يأتى :

دسائس الدولة العثمانية :

فقد كان أبرز تلك العوامل سلاح الدسيسة التى كانت تلجأ إليه الدولة كلما أعوزتها القوة . فلما كانت الحرب الروسية قد احتجزت جنود الدولة على ضفاف الدانوب ، وأخذ الأسطول الروسى يهدد بقطع الطرق الحربيـــة بين الدولة وولاياتها البعيدة ، وقامت الولايات الأوربية بثورات جامحة بفضل الدعاية الروسية ، وانتهز على بك تلك الفرصة وقبض على أزمة الأمور على حساب الباشا العثمانى صادفت الدولة العثمانية أزمة عصيبة من أخطر الأزمات التى صادفتها فى تاريخها الطويل . وأزاء عجزها لجأت إلى محاربة على بك بطريق الدس والخداع : ففى سورية خدعت حليفة ظاهر فكان « كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لا تلبث بأن ترسل إلى عثمان باشا تحثه أن يغزوه ويقتله »[1] — وعهدت إلى

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر ص ١٨٤ .

عثمان باشا أن يبذل أقصى جهده فى اثارة النابلسيين حتى يقطعوا على الجيش المصرى الغازى طريق اتصاله بحليفه ظاهر العمر، وأمرت باشوات صيدا وطرابلس وحلب ودمشق وبغداد أن يساعدوه ما أمكن . كما كسبت إلى جانبها أهالى جبل الدوز وعلى رأسهم الأمير يوسف شهاب .

وأما فى مصر فقد سلطت عليه رجاله وأتباعه فخانه مملوكه وأقرب الناس إليه محمد أبو الذهب ، إنشق عليه واضطره إلى الخروج من القاهرة وخذله خشداشه اسماعيل بك ، وأنصاره مراد بك وابراهيم بك وغيرهم. وخدعه من أولاه ثقته وهو المعلم رزق . وكان هؤلاء جميعا سببا فى هزيمته فى معركة الصالحية .

* * *

غدر المماليك :

والغدر صفة من أكثر الصفات انطباقا على المماليك فى العصر العثمانى . ذكر عنهم جودت أنه فى موطنهم الأصلى « لم يكن معيبا عندهم أمر النهب والسرقة بل يعدون ذلك من الشجاعة . والأشخاص غير المقتدرين على ذلك لا ينظرون إليهم بنظر القبول ولا يعدونهم من نوع الإنسان »[١] .

ورغم تربية المملوك فى مصر فان الغرض من تلك التربية لم يكن تثقيف الذهن وتهذيب النفس . إنما تمهيد السبيل أمامه إذا استطاع أن يتولى مقاليد الحكم فى يوم من الأيام . فكانوا ينشئونهم فى ميعة الصبا تنشئة عسكرية ، عند ذلك يطرح المملوك ماضيه وراء ظهره ويرنو بنظره إلى الأمام فيجد المستقبل الباسم ، حلم كل مملوك يأتى إلى مصر . يعلم أن مستقبله يتوقف على سلاحه وقلبه وعقله ، فعقله يدبر الدسائس وقلبه يدفع بسلاحه إلى تنفيذ أغراضه فى خدمة سيده أولا ونفسه ثانيا[٢] . ولم يكن هناك فى نظره من يصح أن يقف عثرة فى سبيل تحقيق

---

(١) يقصد ببلادهم الأصلية بلاد الشركس وهى احدى أقسام بلاد قافقاسيا الأربعة غربها البحر الأسود وشمالها نهر قوبان ، جودت جـ١ ص٣٢٣ .

(٢) Guémard : Aventuriers Mameluks d'Egypte. p. 30.

أطماعه ، فليس بين زعمائه المتقدمين عليه فى المرتبة من يمتاز عنه بأية مؤهلات خاصة توجب له الاحترام والطاعة فكلهم سواء . أتوا مماليك ، وتلقوا نفس التعليم ، وتدربوا نفس التدريبات ، وقد تجمعت هذه العوامل النفسية مع عوامل البيئة الجديدة وكونت مجرى حياتهم الجديدة فأصبحوا كما وصفهم الرحالة فولنى « أقرب إلى الوحوش بما ينفذونه من اغتيالات ، ومشاغبين بما يدبرونه من مؤامرات ، وخونة بما يحبكون من دسائس ، يتسمون بلؤم النفس لكثرة ما هم عليه من مكر وخداع ، وقد أفسدهم الفجور والفسق . وبالاختصار فهم من ذلك الجنس الذى جمع فى وقت واحد نقائص الإغريق والتتار[1] » .

ولم يكن محمد أبو الذهب بدعا من المماليك ، ولا كان يمتاز عنهم بشىء من الشرف اللهم ما غمره به سيده على بك من حب شديد وثقة أعمته عن دسائسه وأطماعه . وكان أبو الذهب لا يقل طموحا من على بك ولكنه كان جشعا يحب المال غيوراً إلى حد كبير .

ذكر لوزيتان أن أعداء على بك من اتباع ابراهيم الشركسى[2] حاولوا رشوته بمبلغ كبير من المال ليقضى على مولاه على بك ، وكان ذلك عقب وفاة إبراهيم كخيا ، فوافقهم أبو الذهب ظاهراً وتسلم المال ثم أفضى بالأمر إلى سيده وبذلك نجح فى الوصول إلى غرضه . ومنذ ذلك الحين اتخذه على بك صديقا أميناً ومعينا مخلصا ولم يعد يصغى إلى أية وشاية ضده صادقة كانت أو كاذبة .

ولما وثق أبو الذهب من ذلك أوعز إلى على بك الطنطاوى أن يغتال على بك عندما يحضر إلى دار صهره للعب « الشطرنج » . وفى نفس الوقت أوحى إلى زوجته أن تضع السم فى القهوة التى ستقدمها الى على بك . ولم يسمح اخلاص طنطاوى لسيده الا بتحذيره ، ولكن على بك لم يصدقه . ولما جاءه رسول شقيقته يحذره من الحضور أسرع اليها يستجلى الخبر . ولكن ثقته العمياء بإخلاص

---

(١) Volney. II. p. 178.

(٢) ابراهيم الشركسى هو عدو ابراهيم كخيا أستاذ على بك .

أبى الذهب جعلت هذا بمنأى عن الشبهات[١] .

وظل على بك يحبو أبا الذهب بعطفه ، ويطويه بكرمه ، ويغمره بحبه وهو لايدرى أنه يحمى الخائن الذى يدبر فى هدوء وسكينة سبيل القضاء على ولى نعمته. وداخلت نفس أبى الذهب الكبرياء لكثرة ما لاقى من انتصارات ، وزهت نفسه غروراً بما حباه به سيده من حب وعطف حتى استوزر على بك المعلم رزق القبطى وأقامه مديراً لماليته . وشغل رزق هذا جانبا كبيرا من اهتمام على بك ، وأصبح له من المكانة مايسمح له بالجلوس عند دخول البكوات عليه[٢] . وعدها أبو الذهب اهانة لكرامته فشكاه الى سيده . ولكن على بك أجابه بلهجة اليقين والجد « أن البكوات كلهم ليسوا سوى مماليكه ، وأما رزق فلم يكن سوى معينه وهو يعرف جيدا كيف يعامل هؤلاء »[٣] — وأخفى أبو الذهب حنقه وحقده وراء ابتسامة عريضة وأخذ ينتظر سنوح الفرصة للتشفى .

فلما دخل أبو الذهب مدينة دمشق ظافرا آلمه عدم ترحيب الشيخ ظاهر به بنفسه وعدم احترام أبناء الشيخ له ، ورغم أن ذلك لم يكن عن قصد فإنه مهد لنجاح دسيسة عثمان باشا والى الشام ، وصنيعته اسماعيل بك فاجتمع به سرا وأظهر له مزيد الاحترام فأعاد كرامته المهدورة ووعده بمركز سيده فأرضى طموحه[٤] ونجحت دسيسة الدولة باستغلال نقائص أبى الذهب فقاتل ولى نعمته وأسر من اشتراه رقيقا ثم رباه فى كنفه واطلقه فى سماء الحرية .

وكان انسحاب أبى الذهب من الشام بدء أفول نجم على بك وفشل ثورته اذ عاد فحارب مولاه وأخرجه من مصر .

---

(١) Lusignan see. II; pp. 87—86

(٢) لم يكن يسمح لأحد سواء من المسلمين أو المسيحيين أو غيرهم بالجلوس عند مرور البكوات أو دخولهم فى مكان ما .

(٣) lusignan: pp. 89—90

(٤) ميخائيل نقولا الصباغ — تاريخ الشيخ ظاهر ص ١١٠ — ١١١ ويوسف الدبس مجلد ٨ ص ٣٩٢ .

ناقش ذلك العامل المستر جورج بلدوين Mr. George Baldwin قنصل انجلترا فى مصر سنة ١٨٠١ ، وعزى اليه وحده فشل الحركة قال « كان أساس تربية المماليك تدريبهم لنوال النصر والفخر . طريقهم الى الشرف قوة غاشمة وعنوان قوتهم تدبير الاغتيالات . فلا استقرار ولا نظام بل تعطش دائم للرياسة وغيرة عليها . . » إلى أن قال « ولعل عصيان على بك الكبير منتهزا فرصة الحرب الروسية سنة ١٧٧٠ يشذ عن الرأى الذى ذهبت اليه ، ولكنى لست جزعا لهذا بل اتخذ حركته توضيحاً لذلك الرأى . فإن نفس الروح التى أشعلت ذلك العصيان وألهبته ، هى نفسها التى أخمدت أواره . فالدولة لم ترسل قوة لتأديب العاصى ، ولم تستخدم فى سبيل ذلك قوة خارجية ولكن قضت عليها روح ذلك النظام ، أعنى ذلك العامل الهدام الذى أثارته بينهم حكمة سياسة سليم ، وهو ذلك الطموح الذى كان يسير كل مملوك . فان محمد بك صنيعته وأقرب المقربين اليه وقائده ، بعد أن أصبح أقوى من أن يكبح جماحه تنكر له وعارضه وقضى عليه (١) »

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن انضمام اسماعيل بك بجيشه الى أبى الذهب قبل معركة بياضة زاد ذلك الخطر الزاحف كما كان لتحمس مراد بك على رأس جيش أبى الذهب فى معركة الصالحية الحاسمة الأثر الفعال فى هزيمة على بك النهائية . وأصبحت معركة الصالحية أحسم المواقع فى تاريخ على بك وحياته أيضاً .

* * *

أخطاء على بك :

ارتكب على بك على نفسه عدة أخطاء لا تقل خطورة عما أسلفنا : منها أنه كان يولى ثقته من لا يستحقها مثلما منح ثقته العمياء لمملوكه أبى الذهب ، تلك الثقة التى أعمته عن استشفاف نواياه السيئة ، وكما عهد الى اسماعيل بك بقيادة حملة جرارة ضد أبى الذهب رغم الموقف الذى وقفه اسماعيل هذا فى حملة الشام

(١) Baldwin: Political Recollections.., pp. 51–55.

عند ما رفض قتال عثمان باشا بدعوى حرمة قتال الحجاج . وكان انضمامه لأبى الذهب بمثابة اعطاء سلاح على بك لعدوه كى يطعنه الطعنة القاتلة ، وفعلا لم يكف جيش على بك الطنطاوى فى صد الزاحفين ، واضطر على بك إلى الفرار من القاهره قاصداً سورية سنة ١٧٧٢ .

ومنها اعتماده فى تنفيذ مشروعاته على دراسة الفلك ، فما تشير به النجوم والكواكب أمر مطاع وثابت لامطعن فى صحته أووجوبه . لاحظ ذلك الرحالة الإنجليزى جيمس بروس واضطر لكى يفوز بثقة على بك وعطفه إلى التظاهر بأنه عالم بالفلك ، وأن آلاته العلمية الطبوغرافية ليست سوى آلات لرصد النجوم[١] . وفى ذلك يقول الرحالة فولنى « ولو أن على بك قد حاز أسس الصفات العظيمة ، إلا أن قلة حظه من الثقافة لم تساعد على إنمائها . . منها أن اعتقاده فى التنجيم والفلك كان يتحكم فى أغلب تصرفاته أكثر من تحكيم عقله وفكره »[٢] .

ولسوء حظ على بك أنه عدم المرشد الكفء والناصح الأمين ، فبطانته كانت تنقصها الخبرة السياسية والحنكة الادارية والمهارة العملية وهكذا صادفته العقبات وغلبته الحوادث بدل أن يخضعها لمصلحته[٣] .

وثمة مسألة أخرى هى تماديه فى الحروب الخارجية ، اذ اضطر الى صرف اهتمامه نحو الخارج ، وأخذ أموال الشعب فصرفها على الجيش . فقد كلفته حملة الحجاز مثلا ٢٦٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات أى ما يعادل ٥٢٠٫٠٠٠ كيسا من الذهب , كما أن حملات الشام كلفته أكثر من ذلك بكثير . ولما كان مركزه فى مصر لا يسمح له بتولى القيادة بنفسه فقد سنحت الفرصة لقواده كى يحوزوا النصر وتتطلع نفوسهم إلى الرياسة كما حدث لأبى الذهب .

لمس آثار ذلك الرحالة فولنى فقال « وإنا لنجد أن على بك قد أخطأ أو أساء

---

(١) Bruce: Voyage.. T. I. pp. 33—34.

(٢) Volney T. I. p. 133

(٣) Lockroy : Ahmed Le Boucher : p. 12

تنفيذ مشروع توسعه ، وأنه هو نفسه مهد طريق فشله . . وأول أخطائه تلك الرغبة الملحة فى الفتوح وهى التى أرهقت موارده دون ثمرة ما (١) » .

هذا وينبغى لنا أن نلاحظ أن على بك لم يكن بضيره عدم الشروع فى غزو الحجاز وسورية فى ذلك الحين إذا علمنا أن الغرض الأساسى من الحملة السورية كان ضمان حدود مصر الشمالية . والثابت لنا والواضح حينئذ أن الجيوش العثمانية لم تكن تستطيع تهديد مصر .

الثورة لم تكن شعبية :

وتشيع للحركة على بك ورجاله وأقاموها على أكتافهم ولمصلحتهم . أما الشعب فكان قد فقد الشعور بحقوقه وراح فى بحر من الجهل يعانى أسوأ ضروب الفوضى والحرمان مع استبداد الحكام . ولم تسمح السنوات الأربعة التى خطاها على بك فى سبيل الاصلاحات أن يتذوق الشعب ثمارها بل أثقل كاهله بتكاليف الحروب التى حالت دون ازدهار الاصلاحات ولذلك كانت ثمارها لاتزال فجة فلم يستسغها الشعب .

والواقع أن على بك لو كان حاول إشراك الشعب فى ثورته لكان كالراقم على الماء ، فالشعب المصرى فى ذلك الحين كان نهبا لتيارات مختلفة وعرضة لمؤثرات قوية حالت كلها دون نمو فكرة القومية أو إبراز معنى واضح مفهوم للوطنية . وذلك الوصف نفسه كان ينطبق على على بك الذى لم يكن غرضه قوميا وإنما شخصيا ولمصلحته الخاصة . وكان أهم هذه المؤثرات جهل الشعب المتمكن من عقول أفراده ، ثم اهتمامه بالدين أكثر من السياسة ، وتأثره بالمعتقدات الصوفية السائدة (٢) . وأخيراً تشبعه بفكرة الوطن الإسلامى دون أى اعتبار أو تقدير للوطن القومى . وهذا يجعلنا نفسر صداقة على بك لكبار

---

(١) Volney. T. I. pp. 134—139

(٢) توفيق الطويل : التصوف فى مصر أبان العصر العثمانى . . ص ٩٠ — ٩٥

العلماء كالطهطاوى والدمنهورى ومشايخ الطرق الصوفية كالحفناوى وغيره بأنها مهارة سياسية قصد بها كسب ولاء الشعب وسكونه عن طريق إرضاء من لهم قوة اقناعه وقدرة التأثير عليه . وقد نجح فى غرضه هذا كما رأينا واضطر أفراد الشعب أن يكبحوا جماح سخطهم من عناء ما لاقوه فى عهده من تضحيات . ولكن عند ما انقضى عهده أطلقوا عنان ما كبحوه من مر الشكوى .

وإليك ما كتبه الرحالة فولنى عن رأى الشعب فى على بك بعد وفاته بعشر سنوات « ولا يسعنى أن أمضى دون أن أذكر هنا ملاحظة سمعتها فى القاهرة من التجار الأوربيين الذين عاشوا فى عصر على بك ووقفوا على خاتمته . فإنهم بعد أن أثنوا على حسن إدارته ، وحماسته فى إقامة العدل ، ومآثره على الفرنجة ذكروا ما أثار دهشتى بقولهم أن الشعب لم يكن يتأسى لفقده . بل أن أفراده كانوا لا يزالون يرددون شكواهم من مظالمه . ولكنى عندما بحثت حقيقة هذا الأمر لم يبق عندى ما يستدعى عجبا أو يثير دهشة ، فإن الشعب فى مصر كما هو فى أى بلد آخر إنما يكون رأيه فى حاكمه حسب ما تمليه عليه مصلحته الذاتية . فبقدر جهد الحاكم فى تمهيد سبيل الحياة لأفراد الشعب بقدر حبهم له وثنائهم عليه حتى إذا شعروا باعباء الحياة تشغل كواهلهم نظروا إلى حكامهم بعين السخط وارجعوا تلك العقبات إلى سياسة الحكام الخرقاء » . ثم يعلق فولنى على ذلك بقوله « ونحن لا يمكننا أن نعتبر أساس ذلك التقدير أهوجا أو غير عادل فمن العبث أن يتعلل الإنسان بأن شرف الدولة ، ومجد الأمة ، وتشجيع التجارة ، وترقية الفنون كانت تستدعى منه هذا العمل أو ذاك ، لأن مرافق الحياة هى التى كان يجب أن تشغل اهتمامه قبل كل شىء . فماذا كان يفيد المصريين أن يغزو على بك الصعيد ، وتدخل جيوشه مكة والشام إن لم تؤد تلك الفتوحات إلى خير يصلح حالهم ! وعند ما يعز الخبز على الشعب يحق له عدم الاعتراف بحاكمه أو الرضاء بحكمه .

لذلك لم تعد هذه فى نظرهم حسنات بل انقلبت إلى مساوىء لأنها أثقلت

كواهلهم بتكاليفها . فقد كلفت حملة الحجاز وحدها ٢٦ مليونا من الفرنكات ، كما أن تموين الجيوش بغلال مصر مضافا إلى احتكار بعض التجار من محاسيبه لها أحدث مجاعة طاحنة فى خلال عامى ١٧٧٠ و ١٧٧١ » . إلى أن يقول « كيف يحق لنا أن نعتبر هياج الخواطر ضد على بك ضلالا عند ما كان سكان القاهرة وفلاحو الريف يموتون جوعا ؟ أكانوا على غير حق عندما سخطوا على تجارة الهند لأن أرباحها تركزت فى أيدى فئة قليلة خاصة ؟ وعند ما صرف على بك ٢٢٥,٠٠٠ جنيها ثمنا لحلية مقبض خنجره ، ألم يكن من حق الشعب أن يبغض تحفه ونفائسه ؟ ثم فيض إنعاماته من مال الشعب التى كانت بطانته تسميها فضيلة ، ألم يكن من حق الشعب أن يعتبرها رذيلة ؟ أكان فضلا لهذا الرجل أن يسرف فيما لا يفيد ؟ وهل كان عدلا منه أن يشبع رغباته الخاصة ويسدد ديونه على حساب الأمة[١] ؟ » .

ونحن مع تقديرنا لعظم التكاليف التى استوجبتها تلك الحملات يخيل إلينا أن فولنى تجاهل أثر انخفاض منسوب فيضان النيل فى تلك السنوات . ففى خلال السنوات الأربعة التى قام فيها على بك بثورته (١٧٦٨ — ١٧٧٢) صادفت مصر خمس مواسم للفيضان كان من بينها فيضان بدرجة حسنة فى عامى ١٧٦٨ (١١٨٣) ١٧٧١ (١١٨٥) وآخران ضعيفان فى عامى ١٧٧٠ (١١٨٤) ، ١٧٧٣ (١١٨٧) والخامس غير كاف ١٧٧٢ (١١٨٦)[٢] .

---

(١) Volney . T. I. pp. 135—137 وقد ذكر مثلا لمسألة الديون فى ص ١٣٧ قال « وفى إحدى مرات نفيه ضرب خيامه خارج القاهرة ثم أعطى مهلة ٢٤ ساعة لتسديد ديونه . وكان من ضمنها دين (لحسن الانكشارى) عجز على بك عن تسديده . فأخرج حسن ضغف الدين وقدمه لعلى بك فتأثر لذلك وأقسم (برأس النبى) أن يعطى حسنا ثروة لا نظير لها عندما تقدر له العودة — فلما عاد شيخا للبلد جعل حسنا متعهدا لتوريد الأغذية الحكومية فربح من وراء ذلك ثروة طائلة ورغم ما كان يذاع من مغالاة حسن فان على بك تغافل عنه ورفض أن يحاسبه . »

(٢) أمين سامى باشا تقويم النيلى ج ١ ص ٢٤ و٧٢ . وكان يعتبر منسوب النيل وقت الفيضان حسنا إذا بلغ ارتفاعه الحقيقى ١٤ ذراعا عند مقياس الروضة ويعتبر منخفضا إذا كان بين ١٠ و ١٣ ذراعا — ويعتبر غير كاف إذا لم يتعد ارتفاعه ١٠ اذرع .

خداع المعلم رزق :

أما العامل الخامس فهو مزيج من دسائس الدولة وإسراف على بك فى منح ثقته لمن لا يستحقها واعتقاده فى ارتباط حياة الأشخاص ببعض الأفلاك ، وهو يتمثل فى خداع المعلم رزق .

بزغ نجم المعلم رزق عندما غير على بك سياسته المالية فنزع إدارة الجمارك من اليهود واستخدم المسيحيين والأقباط بدلاعنهم . وحبب رزق إلى نفس على بك شخصيته القوية ومهارته فى علم الفلك واستيحاء النجوم ، وهذا ما كان يصادف هوى فى نفس على بك ويؤثر فى توجيه أعماله تأثيراً قويا . واتخذه على بك وزيراً له ومشيراً ، ولم يعد يصدر فى حركة من الحركات إلا بعد أخذ رأى المعلم رزق القبطى أو اتباعا لنصيحته(١) .

وقوى هذا من مركز رزق وصار لايتسنى لشخص ما سواء من المصريين أو المماليك أو الأجانب أن يحصل على موافقة على بك فى أى أمر من الأمور دون موافقة أو توصية المعلم رزق . أما على بك فقد ارتاح إلى آراء رزق . وأما أبو الذهب فإمتلأ قلبه حقداً وغيرة(٢) ، وأما المعلم رزق فلم يحفل بشعور أبى الذهب إذ كان مستحوذاً على ثقة مولاه وحسن تقديره .

وسارت الأمور فى مجراها الطبيعى حتى تهدد نفوذ على بك وحياته بتهديد أبى الذهب لمدينة القاهرة فى أبريل سنة ١٧٧٢ — ولما عزم على بك على الفرار إلى صديقه وحليفه ظاهر العمر أرسل يطلب من المعلم رزق كل مايوجد بالخزانة من مال . وفى تلك الظروف الدقيقة اختفى رزق دون أن يحقق رغبة مولاه على بك وكان ذلك من ضمن العوامل التى زادت فى حرج مركزه .

ادعى رزق فيما بعد أنه أخفى الخزانة فى باطن الأرض واختفى هائما على وجهه فى الصحراء فى زى درويش مسلم خشية أن يقع فى يد أبى الذهب فيقتص منه

---

(١) Bruce· V. I. pp. 32—34

(٢) Lusignan: pp. 90—91

ويسيمه العذاب[١] . والذى يتضح لنا أن رزقا قد اشترته الدولة العثمانية لمصلحتها وبهره الذهب العثمانى فأعماه عن طريق الوفاء لمولاه ، وعلى ذلك أخذ يدفع به من خطأ إلى خطأ حتى كانت الخيانة التى ذكرناها ، إذ أنه عندما انتعشت آمال على بك بسقوط يافا فى نوفمبر سنة ١٧٧٢ ، وقوى الأمل فى نفسه باستعادة مصر دفعت الدولة بصنيعتها رزق ليكمل دور الخيانة فعاد إلى الظهور ثانية وسط دهشة الجميع وعدم تصديقهم .

شاهد التاجر لوزنيان تلك الحادثة وكتب عنها يقول « وفى شهر نوفمبر ، بينما كان حصار يافا قائما ، حضر المعلم رزق رئيس الادارة العربية لدى على بك — والذى لم يعثر عليه عندما اضطر لمغادرة مصر — وعاد رزق إلى المعسكر وسط دهشة الجميع وكان فى حالة يرثى لها : يرتدى قميصا قذرا مهلهلا ، ويتدلى من كتفه جراب من الجلد ، وقد قص شعره وعقصه كما يفعل الأحباش. وكان عارى الرأس حافى القدمين وبالاختصار كان فى زى نساك (دراويش) المسلمين . وكانت بشرته برونزية بعد أن لفحتها الشمس . وكان يشبه فى مجموعه شكل العفريت أو الشبح.» إلى أن يقول « وعند ما سمع على بوصوله لم يكد يصدق أذنيه ، فأمر باحضاره وحينئذ لم يستطع أن يتمالك نفسه من الضحك من منظره الذى يدعو إلى السخرية. وبعد أن وجه إليه أسئلة قليلة سمح له بالراحة وأمده بملابس لائقة . وعندما علمت بطانة على بك بمقدم المعلم رزق أسرع الجميع يقدمون الهدايا الضرورية له حينئذ. أما أنا فقدمت إليه ساعة ذهبية وقدرستة فناجين من القهوة الصينية وست فناجين من الفضة وإنائين لصنع القهوة وصيوان للملابس وأشياء أخرى . »[٢] .

وبعد أن علل اختفائه السابق (من أبريل إلى نوفمبر سنة ١٧٧٢) بما لا يخرج عن التعليل الذى ذكر أضاف أن على بك قدر ظروف المعلم رزق فأعاده إلى منصبه. هكذا تمهد السبيل أمام الخائن رزق لكى يلعب دوره الأخير . فبينما كان

---

(١) Lusignan, p. 140.

(٢) lusignan, pp. 121, 122, 131.

على بك يمهد لعودته إلى مصر . ويستوثق من أتباعه بالقاهرة وحسن استعداد جيوشه بالشام يساعده ظاهر ووزيره ابراهيم الصباغ ، أخذ الخائن رزق يسر إليه أن ساعة الرحيل قد أزفت وأن الكواكب تشير بذلك ، وأنه لاحاجة لمولاه بانتظار وصول المدد الروسى ما دام النصر قد كتب له .

وكان أن أسرع على بك بالعودة رغم عدم وصول النجدة الروسية ونصائح ظاهر ووزيره الصباغ فكانت النهاية المحزنة . وأخيراً اختفى المعلم رزق نهائيا بعد أن أدى دوره بنجاح تام(١) .

عدم كفاية مدد ظاهر العمر :

أما العامل السادس الذى ساهم فى هزيمة على بك الأخيرة فهو عدم كفاية المدد الذى هيأه ظاهر العمر لحليفه على بك . فقد حاول ظاهر كثيراً أن يمنع على بك من العودة إلى مصر أو على الأقل أن يؤجل تلك العودة ما أمكن لأن وجود على بك فى الشام وهو المخلص لقضية ظاهر كان أكبر ضمان لتفوق الحليفين على عدوهما المشترك . ويدلنا على ذلك رسالة القنصل الفرنسى فى صيدا التى لخص فيها رأيه بقوله « أنه وأن كان يخيل إليه أن على بك هو القوة المنفذة للأعمال التى جعلت تلك المنطقة مسرحا للكوارث فانها فى مجموعها ليست سوى مشروع للتوسع أوجدته أطماع ظاهر للإستيلاء على جميع المدن الساحلية »(٢) .

وكان ظاهر يتعلل حينا بانتظار المدد الروسى ، أو بخيانة مماليك مصر وخداعهم حينا آخر ، ولم يكن ذلك مكراً منه بل كان نصحا خالصا أوحاه إليه موقف على بك وموقفه هو مهدداً من باشوات الشام . وبذلك لم يستطع على بك أن يحصل من حليفه على أكثر من ثلاثة آلاف على رأسهم صهره كريم وابنه صليبى مع بعض الأموال . إذ لم يكن فى استطاعة ظاهر أن يستغنى عن قسم كبير من جيشه لمساعدته ،

---

(١) Lusignan. pp. 141—142

(٢) Charles-Roux: les Echelles..., p. 97

وإن كان ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى صاحب ترجمته يقول بانه كان فى نية ظاهر أن يجهز تجريدة عظيمة عدتها مائة ألف مقاتل(١). وهكذا اضطر على بك أن يقف فى الصالحية بثمانية آلاف يناضل عشرين ألفا فى ظروف قاسية أفقدته الأمل فى النصر .

* * *

تأخر المساعدة الروسية :

أما العامل السابع والأخير فكان له أثر حاسم فى فشل على بك فى الصالحية ونعنى به تأخر المساعدة الروسية التى ألح على بك فى طلبها .

ونحن لو قلنا أن ثورة على بك ليست سوى لعبة روسية نجحت فى أول الأمر لمساعدة روسيا، ثم فشلت عند انقطاع تلك المساعدة أو تأخرها لبعدنا كل البعد عن الحقيقة الثابتة وهى أن ثورة على بك حركة مستقلة تماما عن الحرب الروسية العثمانية وأن تكن الأولى استفادت من حدوث الثانية . كما نخطىء كذلك إذا قلنا أنها قامت بتحريض الروسيا حتى تظهر لنا وثائق تنافى ذلك ، وإن كنا نحن لا ننفى أن حركة على بك صادفت ترحيبا من الروسيا ونوعا من التشجيع .

أما على بك فكان ينظر إلى الروسيا كدولة تربطه بها روابط العداء المشترك للدولة العثمانية . وكان يرجو من جميع فؤاده أن يرتبط معها برباط من التحالف الوثيق وأن يعقد معها محالفة ومعاهدة دفاعية ضد الدولة العثمانية ، لأن روسيا فى نظره كانت كما كان ظاهر العمر عنصرا مكملا لقوته الحربية ؛ فكما كان ظاهر حليفا يمده بالأموال والرجال وكانت أملاكه قواعد حربية أمامية للدفاع عن مصر فان روسيا كانت تصلح موردا يسد حاجته إلى الفنيين وحاجة جيشه إلى الأسلحة الحديثة وخاصة المدافع مدافع الميـــدان منها ومدافع الحصار . وكان أسطولها فى نظره سياجا يحمى شواطىء مصر وشواطىء الشام ، وسلاحا يسلطه على الموانى

---

(١) ميخائيل نقولا الصباغ ص ١٢٧ .

العثمانية متى عادته الدولة وهو أخيراً وسيلة ناجحة لتموين جيوشه بسرعة وسهولة.

وأما روسيا فكانت ترى فى حركات ظاهر العمر وعلى بك وغيرهما معاول هدم للدولة العثمانية ، ومتاعب تبلبل أفكارها وتضعف من قدرتها على مجابهة الجيوش الروسية المهاجمة فأظهرت ارتياحها ووهبتها تشجيعها وأيدتها بمساعدتها ولكن بالقدر الذى سمحت لها به ظروفها الخاصة .

أما العامل الذى كان يحدد مدى تلك المساعدة فهو رغبة روسيا فى عدم تشتيت قوتها ومواجهة جيوش الدولة فى أكثر من ميدان وذلك على قدر الامكان.

ذكرنا أن على بك اتصل بالروس أكثر من مرة ، وكان أول اتصاله بهم عندما عول على إرسال حملة أبى الذهب لمساعدة ظاهر إذ حمل مندوبه يعقوب الأرمنى رسالة إلى أمير البحر الروسى فى البحر الأبيض الكونت الكسيس أرلوف يخبره بقيامه بالثورة ويعرض عليه عقد محالفة مع قيصر روسيا ، ووعده بكل مايحتاج إليه جيشه وأسطوله من معونة ومال . فرد عليه الأمير مهنئاً ومتمنياً نجاح حركته ، ووعده بإرسال طلبه لعرضه على القيصر .

وكان اتصاله الثانى فى أبريل سنة ١٧٧٢ على يد يعقوب الأرمنى أيضا ، وذلك عندما اضطر إلى الفرار من القاهرة أمام جحافل أبى الذهب ، أرسل يخبره بما حدث وبعزمه على التوجه إلى سورية ويرجوه أن يمده بمدافع وجنود وخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر . ولكن على بك لم يتلق جوابا عاجلا على رسالته هذه .

وفى أثناء مرضه فى معسكره أمام عكا ، بعد وصوله إلى الشام ، تصادف مرور بعض قطع الأسطول الروسى بقيادة الشفاليه جورج ريزو والشفاليه قسطنطين سارو من مساعدى أمير البحر الروسى فعرجا على معسكره عندما علما بوجوده ، فأكرمهما وأرسل معهما ذا الفقار (أغسطس سنة ١٧٧٢) مزوداً بالهدايا وخطاب إلى القيصرة يمتدح فيها خصالها ، وآخر إلى أمير البحر يرجوه أن يرسل اليه مدافع ومهندسين وفرقة من الجند الألبانيين ، ويعده بأن يجعل

تحت تصرفه كل قوة مصر الحربية متى تمكن من العودة إلى وطنه ، واخيرا عرض عليه عقد معاهدة تجارية تسمح لروسيا بالدور الأول فى تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر وموانيه .

ولم يكد ينتصف شهر سبتمبر ، وكان على بك مقيما على حصار يافا حتى وصل ذو الفقار ويعقوب الأرمنى على ظهر سفينة روسية تحمل ضابطين روسيين وثلاثة مدافع بجراراتها وسبعة بنادق وبعض الهدايا ورسالة من أمير البحر إلى على بك تتضمن وعودا بالنجدة السريعة .

وقد علق التاجر لوزنيان على تلك الوعود بقوله « وقد اعتمد عليها على بك كثيرا ولكنها لم تتحقق أبدا وكان الضابطان — الكابتن كلنجلينوف والملازم سيرجى بلسشوف النجدة الوحيدة التى تلقاها على بك من الروسيا وهذان كانا قد أرسلا لتقدير قوة على بك فقط (١) » .

ونحن لا ننكر مدى المساعدة التى قدمها هذان الضابطان لعلى بك فى حصار يافا ، ولا ننكر أيضا تلك المظاهرات البحرية التى قامت بها السفن الروسية أمام سواحل الشام ومساهمتها الجريئة فى ضرب بيروت ويافا أكثر من مرة ، إلا أنها كانت بدون أثر فعال وغير خالصة بقصد مساعدة على بك أو حليفه ظاهر .

وقد ذكر لوزنيان أن الأميرال أرلوف خطا خطوة تمهيدية لمساعدة على بك مساعدة عملية بينما كان هذا قائما على حصار يافا فأرسل فى فبراير سنة ١٧٧٣ الضابط مكسمليان بونجارد Maxmilian Bongrde الألمانى الاصل وهو فى خدمة الروسيا بمهمة سبرغور استحكامات ميناء الاسكندرية . وأن هذا اضطر على أثر زوبعة إلى الالتجاء إلى يافا حيث قدمه لوزنيان إلى على بك ثم غادرها إلى عكا ثم صور حيث عاد من حيث أتى دون أن ينفذ مهمته طبعا (٢) .

---

(١) Lusignan, pp. 121,122,131

(٢) Lusignan, pp. 141,—142

ثم أن المؤرخ همر Hammer يفيدنا بأن فرقة روسية مكونة من أربعمائة جندى ساعدت على بك فى الصالحية وبوجود أربعة من الضباط الروسيين ضمن الأسرى من جيش على بك فى معركة الصالحية وأنهم أرسلوا إلى القسطنطينية(١) ولا شك فى أن هذا الزعم لا يستقيم مع رأى لوزنيان الذى أسلفنا ذكره ، فإن جاز لهذا أن يغفل ذكر تلك الفرقة فإنه لا يعقل أن ينص صراحة على عدم وجودها .

* * *

وهكذا نجد أن على بك داوم على إرسال طلبات المساعدة من روسيا وأن هذه اكتفت « بالتحيات والتمنيات والوعود الخلابة بالمساعدة العاجلة » .

وفى ذلك يقول السفير الفرنسى بالآستانة سان پريست Saint-Priest فى بعض مذكراته « يخيل إلينا أن الروسيا كانت تعلل أهمية كبرى على علاقتها بعلى بك والشيخ ظاهر ، وعلى إعادة الأول إلى سلطته فى مصر . ولكنها لم تبذل كل ما فى طاقتها فى سبيل ذلك فرغم اشتراكهم فى حصار بيروت فان الحرب فى سوريا لا تدخل فى حسابنا ، وأن خسارتهم الحقيقيـــة جاءت من تباطئهم فى نصرة على بك لاستعادة مركزه فى مصر(٢) » .

« إذن ما هو السبب الحقيقى الذى منع روسيا من معاونة على بك معاونة فعالة ؟ لمس ذلك الرحالة جيمس بروس James Bruce ، وتكلم عنه بروح العصر فقال « من المؤكد أن قواد الروس لم يكن لديهم تفويض ، ولم يتضح لهم الحد الذى يمكنهم من أن يساعدوه (أى على بك) على بلوغه ولا كيف يجب أن يستفيدوا من ذلك — فلم تكن بين الطرفين علاقات صريحة ومستمرة ، ولم يكن لهم ولا له مندوبين أكفاء فضاعت الفرصة قبـل أن يصل الطرفان إلى إتفاق حاسم » .

ثم أنه نعى على على بك عدم استخدامه الشاب البندقى كارلو روستى رغم كفاءته

---

(١) Hammer : Livre Lxill p.352.

(٢) Charles-Roux, Echelles... p. 109.

وصلاحيته متى زود بتعليمات صريحة للقيام بدور المفاوض الناجح لدى بلاط بطرسبرج(١) .

أما على بك فلم ينتظر المدد الروسى وتقدم قاصداً مصر فى أوائل مارس سنة ١٧٧٣ . ولسنا على يقين عما إذا كان سينتظر طويلا . ولكن قنصل فرنسا فى صيدا يخبرنا فى تقريره بتاريخ ٤ يوليه سنة ١٧٧٣ أن حملة روسية بحرية برية وصلت لنجدة على بك دون أن تعلم مصيره الأخير . وكانت هذه الحملة مكونة من إحدى عشرة سفينة وتوابعها ، منها فرقاطتان إحداهما مسلحة بستة عشر مدفعا وثلاثة منها مسلحة بأربعة وعشرين مدفعا ، وعلى ظهرها حملة برية مكونة من ألف ومائتين من المقاتلة معظمهم من الروس المجهزين تجهيزاً حسنا . وكثير من ضباط المدفعية والمدافع والقنابل وبالاختصار كل ما يجعل الحملة كاملة العدد والعدة(٢) .

ومما لا شك فيه أن وصول هذه الحملة قبل ذلك بشهر واحد كان يغير نتيجة النضال الأخير فى الصالحية بفضل مساعدة الضباط الروس لعلى بك بفنهم الحربى وأسلحتهم الحديثة .

* * *

ثانيا — أثر الحركة فى تاريخ مصر

غير أن فشل الحركة لا يعنى إنعدام آثارها فانا نلمس لها فى التاريخ المصرى عدة نتائج . وكانت أولى نتائجها الملموسة إنفراد على بك بشئون الحكم فى مصر فقد اختفى الباشا ممثل السلطان وضعفت الأوجاقات العثمانية ما عدا فرقة المستحفظان التى تولت عمل الشرطة .

---

(١) Bruce. T. 2. pp. 388' & 251,

(٢) Charles-Roux : Les Echelles,..., p. 211

كما كانت الحركة ضربة للسيادة العثمانية لم تفق منها حتى بعد وفاة على بك . ولم تعد مصر ، فى الفترة الواقعة بين سنة ١٧٧٣ ونزول نابليون بجيشه فى مصر سنة ١٧٩٨ سوى مسرح لتجبر بكوات المماليك وتجاهلهم السيادة العثمانية — بدأت تلك الفترة فى عهد أبى الذهب ، الذى رغم اعترافه بالولاء للسلطان وإرساله الخزنة وأوقاف الحرمين ومعتادات الاستانة ، فإنه انفرد بأمور مصر كما لو كانت مستقلة تماما وكتب الجبرتى يقول فى ذلك « أن سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٣ م) استهلت ووالى مصر خليل باشا محجوز عليه ليس له فى الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق ، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب[١] » .

كما قرر ذلك المؤرخ جودت العثمانى قال « وبعد مدة وجهت الدولة العلية خليل باشا واليا على مصر . فجلس على منصة الحكم على العادة القديمة ولكن لم يكن له من الأمر شىء بل كان النفوذ بالاستقلال لأبى الذهب[٢] » .

وتمتع بذلك النفوذ بعد وفاته سنة ١٧٧٥ خشداشه إسماعيل بك ثم مملوكاه إبراهيم بك ومراد بك وحوادث مصر فى الفترة من سنة ١٧٧٥ حتى ١٧٩٨ نزاع بين هؤلاء مصحوب باضطرابات وظلم وقسوة عمت القطر وكانت شديدة الوطأة على التجار الفرنسيين . وقرر تلك الحقيقة البارون دى توت الذى عينته الحكومة الفرنسية مفتشا لاساكل اللفنت ١٧٧٧ ، وكلفته بمهمة سرية فى مصر . كما لاحظه جميع الرحالة الذين زاروا مصر بعد على بك مثل دى بينو ١٧٧٧ Abbéde Binos واروين ١٧٧٧ Irwin وسافارى ١٧٧٩ Savary وسونينى Sonnini وكاپر ١٧٧٩ Capper والكونت دانتريج ١٧٧٩ C. D'Entraigue وروك Rooke وفولنى ١٧٨٥ Volney وأوليفييه ١٧٩٣ Olivier وبراون ١٧٩٨ Browne وغيرهم .

---

(١) ذكر الجبرتى جـ١ ص٣٧٧ أن خليل باشا وصل مصر فى اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول ١١٨٢هـ . (١٧٧٢م) وطلع القلعة فى يوم الخميس ١٩ ربيع الأول.

(٢) جـ١ ص ٤٢٨ .

فى سنة ١٧٧٨ مثلا وقت أن كان الرحالة سونينى بالقاهرة حبس مراد بك محمد باشا لاتهامه بمؤازرة إسماعيل بك . وعندما وصل كابر إلى القاهرة قيل له أنه لا داعى لزيارة الباشا وضرورة زيارة شيخ البلد . وقد علق على تلك النصيحة بقوله « إن شيخ البلد رئيس الديوان وهو رأس السلطة التنفيذية[١] » . كما أشار الرحالة أروين فى خطابه من القاهرة بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٧ إلى أن « الباشا الذى يرسله الباب العالى هنا (فى مصر) ليس له تأثير فعلى فى الديوانين ، بل ليس له صوت عملى فى شئون الحكم[١] » .

* * *

وقد تعددت شكايات الدولة العثمانية نفسها من سوء الحالة فى مصر ، واستدعى الحال إرسال حملة بحرية حربية عثمانية بقيادة حسن باشا الجزايرلى ١٧٨٦ (١٢٠٠هـ) ففر مراد بك وابراهيم بك إلى الصعيد ، وعاد اسماعيل بك إلى شياخة البلد . ولم تكن لهذه الحملة أية نتيجة عملية لتقوية النفوذ العثمانى بمصر ، بل على العكس بمجرد وفاة اسماعيل بالطاعون عاد ابراهيم ومراد إلى شياخة البلد وأمارة الحج وتجبرا حتى فاجأهما نابليون .

وضعفت فرق الحامية عدا فرقة اليكيجرى ، ولم يعد لها كيان حربى فى عهد على بك ، ثم أعيد جمع من بقى من رجالها ابتداء من عهد أبى الذهب ولكن قيمتهم الحربية كانت فى حكم العدم ولم تعد قوة مصر الحربية تتمثل إلا فى المماليك . أشار إلى ذلك فولنى ١٧٨٥ بقوله « والحق أن كل قوة مصر الحربية إنما تتمثل فى فرقة المماليك . ذلك أن على بك — زعيم المماليك — كان قد أذل فرق الحامية العثمانية إذلالاً تاما لدرجة أننا نجد اليوم أن اليكيجرية والعزب والخمس فرق الأخرى ليست سوى عصبة من ذوى الحرف والاتباع يقومون بخفارة الأبواب[٣] » .

---

(١) Capper, p. 18

(٢) Irwin, p. 340

(٣) Volney p. 160

بل أن الرحالة براون ١٧٩٨ فى الملحق الرابع من مؤلفه عاب على ساڤارى أنه تكلم عن فرقة العزب (ج ١ ص ٢٧٥) كما لو كانت موجودة حقيقة ، والواقع أنها كانت قد انحلت منذ عدة سنوات ، مثلها فى ذلك مثل بقية الفرق بحيث يمكن اعتبارها فى حكم العدم . أما اليكيجرية فيمكن اعتبارهم حرسا خاصا للأبواب ونوعا من الشرطة لا أكثر ولا أقل[١] » .

وعند ما جاء حسن باشا القبطان بحملته المشهورة سنة ١٢٠٠ هـ للقضاء على إبراهيم بك ومراد بك « نودى على جميع الألضاشات بالخروج إلى الوطاق . فتكدر الناس لذلك واختفوا فى الدور ولبس كثير منهم ملابس الفقهاء والمجاورين وخوطب حسن باشا فى شأن إعفائهم من ذلك الأمر وقالوا له : يا سلطانم الجماعة الألضاشات مكروبون من هذا الحال ، وغالبهم فقراء ومنهم من لا يملك قوته ، وما أعطيتموهم نفقة . فقال ليست هذه الحادثة أحدثناها بل ذلك أمر قديم لأنهم ينتسبون إلى الوجاقات . فقيل له نعم ، ولكن العادة القديمة كان كل وجاق له دفتر وفيه عدة معدودة منهم ، ولهم جامكيات وعوائد وكساوى وهذا الأمر بطل من مدة سنين . فلما فهم حقيقة الحال أعفاهم وأمر الأغا فنادى عليهم بالعفو[٢] »

تلك كانت حال الأوجاقات ورجالها قبيل الحملة الفرنسية فلا نستغرب إذن كيف أن حركة على بك أضعفت القوة الحربية العثمانية بمصر ، ولم توجد بدلها قوة كافية لصد حملة قوية كالحملة الفرنسية . وكان ذلك من العوامل التى أدت إلى النصر الأول الذى صادفه نابليون .

* * *

وثمة ذيل للحركة أدى إلى توجيه حملة مصرية إلى الشام انتهت بوفاة أبى الذهب ثم قتل ظاهر العمر فيما بعد ، وبيان ذلك أن ظاهراً بعد أن فقد حليفه على بك ، وتأكد من عداء أبى الذهب راسل عثمان باشا والى دمشق فى التوسط الحصول على عفو الدولة .

---

(١) Browne : Travels, p. 486

(٢) الجبرتى ج٢ ص ١٣١ .

وعمدت الدولة إلى خداعه فأرسلت إليه فى شوال ١١٨٨ (١٧٧٤) فرمانا — أورد صورته الأمير حيدر فى تاريخه — أشار إلى ما حدث من عصيان سابق وعفو لاحق جاء فيه « . . فليكن معلوما أنك من قديم الزمان من المتنعمين بنعيم الدولة العلية . . . وكنت تؤدى الأموال السلطانية قبل كل إنسان ، وقط ما عرجت عن صدق الخدامة وطرق الاستقامة إلا منذ أزمنة قريبة لحدوث بعض أسباب نفسانية أظهرت التردد والوحشة خمس سنوات . . وكان ما فهم من عرض حالك أنك إذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات غير المستحسنة وصرت منظوراً إليه بعين الرحمة لتضع قلادة الطاعة فى عنق العبودية وعلى هذه الشروط المذكورة قد أجرينـــا قلم ما مضى على صفائح ذنوبك إلى يومنا هذا . . (١) »

وعاد الشيخ ظاهر حاكما على صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة ونابلس وصفد وأقض ذلك مضاجع أبى الذهب ، فاستصدر فرمانا من السلطان يسمح له بتوجيه حملة للقضاء على حليف على بك عدو السلطنة ، ولم يتوان الباب العالى فى السماح له بذلك . وتهيأت حملة جرارة قادها أبو الذهب بنفسه (٢) . وخرج من مصر فى أوائل ١١٨٨ (١٧٧٤) فوصل غزة ، ثم حاصر يافا ستين يوما وفتحها عنوة ثم ألقى على أهلها درسا لم يترك لهم فرصة بعد ذلك للاستفادة منه ، « وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع » .

ثم توجه قاصداً عكا لملاقاة ظاهر العمر ، وأسرع ظاهر يستنجد بالأمير يوسف شهاب . ولكن هذا أشفق على نفسه وجيشه من هزيمة محققه ومصير

---

(١) الأمير حيدر ج ٢ ص ٨٢١ — ٢٢١ .

(٢) إصطحب معه مراد بك وإبراهيم بك طنان وإسماعيل بك ، وهو أحد مماليك اسماعيل بك الكبير . وترك بمصر اسماعيل بك خشداش سيده ، وإبراهيم بك مملوكه . وكانت الحملة مكونة من ستين ألفا ومجهزة أحسن تجهيز ومن بينها بعض المدافع بقيادة الانجليزى روبنسون ومدفع ميدان كبير ، أجرى سبكة فى مصر وسماه الجبرتى — أبو مايله — (الجبرتى ج ١ ص ٢٨٥)

كمصير أهل يافا ، عند ذلك فر ظاهر من عكا و نصح أهلها بعدم مناوأة القائد المصرى . فدخلها هذا فى زهوة النصر ، وأرسل يأمر بإقامة الزينة بمصر ، ولكن القدر لم يمهله حتى يفرح بنصره أو يكمل غرضه وفتكت به حمى شديدة فى أوائل ١٧٧٥ (٢٤ ربيع أول ١١٨٩) وعاد الجيش المصرى بجثة أبى الذهب إلى القاهرة حيث دفنت فى مسجده المعروف بجوار الجامع الأزهر (١) .

---

(١) يقال أن أبا الذهب أمر فى أثناء سيره من يافا إلى عكا بهدم دير إيليا النبى (مار الياس) وقتل رهبانه فسلط الله عليه سيف الحمى ولذا كانت تنتابه أحلام مفزعة فيقول «ردوا عنى هذا الشيخ المفترس» والناس لا يرون حوله أحداً » ولما مات فرح الناس وقالوا فيه شعرا.

لما دنا كل المنى والهم عن قلبى ذهب
والسعد أقبل ظاهراً أرخت «مات أبو الذهب

يوسف الدبس المجلد السابع ص ٣٩٧ إلى ٣٩٩ .

ولعل محمد بك أبو الذهب فى غير حاجة إلى تعريف ، فمنذ اشتراه على بك سنة ١١٧٥هـ. وهو ساعده الأيمن أحله خازن دار محل اسماعيل بك ، ثم صحب سيده على بك إلى الحج سنة ١١٧٧هـ حيث أعتقه على بك «وأرخى لحيته على بئر زمزم» . ولما عاد إلى القاهرة تقلد الصنجقية فى نفس العام . ومنذ سنة ١١٧٨هـ عرف بلقب أبى الذهب لأنه « لما لبس الخلعه بالقلعة سار يفرق البقاشيش ذهبا. وفى حالة ركوبه ومروره ينثر الذهب على الفقراء والجميدية حتى دخل إلى منزله ، فعرف بذلك لأنه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الأمريات . واشتهر عنه هذا اللقب وشاع وسمع عن نفسه شهرته فكان لايضع فى جيبه إلا الذهب ولايعطى إلا الذهب ويقول أنا أبو الذهب فلا أمسك إلا الذهب » كان بهى الطلعة ، جميل الصورة ، أبيض اللون ، معتدل القامة والبدن ، مسترسل اللحية ، مهاب الشكل وقورا محتشما قليل الكلام والالتفات ، ليس بمهدار ولا خوار ولاعجول . قريبا للخير ، يحب العلماء والصلحاء ويعطيهم وينصت لكلامهم

ترجم له الجبرتى ج ١ ص ٤١٧ — ٤٢٠ وورد ذكره فى عدة مواضع أخرى وقال « ان المترجم كان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة وسعدا وحزما وعزما وحكما وسماحة وحلما» .

قام بأعمال باهرة فى عهد على بك فتولى رئاسة الشرطة ، وأدب العربان ، وقضى على منافسى سيده . وهو بطل الحجاز والشام ، ولكنه أخيرا الخائن الأكبر . ولأبى الذهب عدة عمائر بالقاهرة أهمها مسجده المجاور للأزهر ، ومدرسته الملحقة به .

وأحس أهل الشام جميعا بزوال كابوس مخيف وكان السلطان قد أصدر فرمانا بتأمير أبى الذهب على مصر والشام تشجيعا له على القضاء على ظاهر ، ولكن أبا الذهب توفى قبل تمتعه بذلك الشرف . أما الباب العالى فقد عول إلى إرسال أسطول بقيادة الغازى حسن باشا لتسلم الأموال التى لم يسددها الشيخ ظاهر فرفض ظاهر دفع الأموال بناء على مشورة وزيره ابراهيم الصباغ ، ولم يستمع إلى مشورة حاكمه على صيدا أحمد أغا الدنكزلى زعيم المغاربة . وكانت النتيجة أن ضربت عكا بقنابل الأسطول ، ورفض الدنكزلى أن يرد على ذلك التهديد ، وأسكت مدافع الأبراج . وشدد حسن باشا الضرب وتبين ظاهر الخيانة ، وأيقن بعبث المقاومة فعول على الخروج من عكا . وبينما هو كذلك إذ أطلق أحد جنوده من مرتزقة المغاربة رصاصة أردته قتيلا ، وتسلم القبطان العثمانى حسن باشا مدينة عكا وعادت السيادة العثمانية على أملاك الشيخ ظاهر «حاكم عكا وصفد وشيخ أقليم الخليل» كما عادت من قبل على أملاك حليفه على بك قائمقام مصر سابقا .

* * *

وفى عهد على بك أصبحت لمصر شخصية ممتازة . ولأول مرة فى العصر العثمانى الأول اتصلت مصر مباشرة بالسياسة الخارجية ، وعلى هذا الأساس حاول على بك عقد معاهدات سياسية مع الروسيا وجمهورية البندقية ، كما نجح فى عقد اتفاقات جمركية مع الانجليز . وتطلع حاكم البنغال وارن هستنجس إلى عقد معاهدة تجارية مع مصر لمصلحة التجارة الانجليزية .

والجدير بالملاحظة هنا أن تهافت الانجليز والفرنسيين على عقد معاهدات تجارية مع مصر فى عهد على بك والعهود التالية نشأ من تبينهم أن وجود حكومة قوية فى مصر تحمى الأمن وطريق التجارة تجعل بضائعهم فى مأمن من قطاع الطرق وفى حمى من معارضة الدولة العثمانية . ولا شك فى أن التوفيق الذى لاقوه فى عهد على بك ، ونجاح التجربة أديا إلى استمرار نشاطهم من بعده وإلى انتعاش

حركة إحياء الطريق المصرى وما تبع ذلك من نتائج سياسية .

وكان من بعض نتائج ذلك أن عقدت اتفاقية ١٥ ذى القعدة ١١٨٦ (فبراير سنة ١٧٧٣) لمصلحة شركة الهند الشرقية التجارية مع أبى الذهب بفضل وساطة الانجليزى جيمس بروس تأكدت نصوصها بمعاهدة ٤ المحرم ١١٨٩ (٧ مارس ١١٧٥) .

كما عقدت معاهدات مصرية فرنسية بين مراد بك والحكومة الفرنسية فى أوائل ١١٩٩ (١٧٨٥) ، وتلتها معاهدة تجارية على يد بلدوين قنصل انجلترا بمصر فى ٢٨ رجب ١٢٠٨ (فبراير ١٧٩٤) على نمط المعاهـــدات الفرنسية السابقة (١) .

واستمرت تلك الجهود والأبحاث من ناحية الفرنسيين فى أثناء إقامتهم بمصر فى زمن الحملة ثم فى عهد محمد على وعباس حتى نفذت فكرتهم فى عهد سعيد بحصول ديليسبس Delesseps على امتياز بحفر القناة التى تصل بين السويس والبحر الأبيض المتوسط ، ثم افتتاح هذه القناة رسميا فى عهد اسماعيل

* * *

ومما لا شك فيه أن حركة على بك وحملاته إلى الحجاز والشام ، ونجاح الفرنسين والانجليز فى جنى الثمرات الأولى لإحيـاء الطريق البرى ، ثم اتصاله بروسيا كلها عوامل لفتت أنظار الدول إلى مركز مصر الخطير كحلقة تربط الدنيا القديمة ، ومحط وسط أقصر طريق بين أوربا والهند ، وبدت بسبب ذلك اطماع بعضها تجارى وغالبها سياسى من جانب النمسا وروسيا وانجلترا وفرنسا « فقد فكرت الامبراطورية النمساوية — فى عهـــد الامبراطورة مارى تريزا — فى السيطرة على تجارة الشرق وتحويلها إلى الطريق البرى عبر مصر تحت اشرافها ، وكان من مؤيدى هذه الفكرة ومروجيهـا بمصر فى سنة ١٧٨٢ كارلو روستى

---

(١) Charles-Roux : Autourd'une Route. pp. 320—323

قنصل عام النمسا بالقاهرة ، ولكن هذه الأفكار لم تتخذ شكلا عمليا .

وأما روسيا فيظهر أنها ندمت على عدم استغلال الفرصة التى هيأتها لها حركة على بك فأخذت ترنو إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، فعينت لها قنصلا بالاسكندرية هو البارون دى ثونيه B. de Thonus وكلفته أن يحرض ابراهيم بك ومراد بك على الانفصال عن السلطان ، ووعدت بمساعدتهما وحمايتهما . وتبع ذلك استخدام ابراهيم بك لكثير من المماليك الروس . وشعر بذلك القنصل الفرنسى بالقاهرة المسيو ماجالون Magallon فكتب تقريرا إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٧ أكتوبر ١٧٨٨ قال فيه « أؤكد لمعاليكم أن الروس يرنون بأبصارهم منذ مدة طويلة نحو هذه البلاد الغنية — يقصد مصر — وإذا لم تخضع حكومة المماليك تماما للسلطان فسوف يصلون — الروس — يوما إلى تحقيق مشروعهم » ويظهر أن القنصل الروسى كان نشيطا جدا فانه لما قتل لسوء حظه بمدينة الاسكندرية كان ذلك مدعاة لارتياح القنصل الفرنسى فكتب يقول « ينبغى أن نعتبر وفاة البارون دى ثونيه حادثا سعيدا ، فانه كان رجلا خطرا . ولو أدرك مماليك محمد بك — أى ابراهيم بك ومراد بك وكانا منفيين بالصعيد — على قيد الحياة بعد عودتهما من الصعيد لسبب لنا متاعب خطيرة ، ولتمكن من أن يحقق لقيصرته مشروع التحالف مع هذه الحكومة »(١) .

أما انجلترا فقد أحست أن محمد على الكبير أوجد فى مصر ابتداء من سنة ١٨٠٥ حالة استقرار وطيدة ، فعادت إلى محاولة عقد معاهدات تجارية ، وإحياء الطريق البرى ، حتى نجحت فى عهد عباس ١٨٥٤ فى الحصول على موافقته على اصلاح الطريق من السويس إلى القاهرة وإنشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية .

وإن صح لنا أن نقرر أن النجاح الذى صادف على بك فى مستهل ثورته ، وتأسيسه حكومة حازمة سبب ارتياح الدولتين المتنافسين وهما انجلترا وفرنسا ،

---

(١) Déhérain : V. 5. Chap. IV. pp. 194—197

وجعل مصر ميدانا جديد لتنافسها ؛ ذلك التنافس الذى بدا فى شكل محاولات لعقد معاهدات تجارية مع على بك ، فانه يصح لنا أن نقرر أيضا أن اضعاف الحركة للنفوذ العثمانى فى مصر ، وما تبع ذلك من تمادى البكوات فى استغلال التجار الأجانب على طريقتهم الخاصة أدى إلى تراكم شكاياتهم، وشكايات قناصلهم إلى دولهم ، وعبثا حاولت حكومة الثورة الفرنسية الحصول على ترضية كافية وشىء من التعويضات لما لحق التجار الفرنسيين بمصر من جراء تعسف البكوات، وأهم تلك المحاولات بعثة دبوا — ثانفيل Dubois — Thanville فقد اقترحت « لجنة الأمن العام » الفرنسية على سفيرها بالاستعانة المسيو فرنيناك Verninac أن يرسل بعثة إلى مصر لتحقيق الغرض السابق — وندب ثانفيل لهذه الغاية، فوصل الاسكندرية ن أواخر أكتوبر ١٧٩٥ . وتمكن ثانفيل بصحبة القنصل ماجالون من زيارة الباشا العثمانى زيارة رسمية ، وحصل منه على وعود طيبة ، إذ كان هذا كل ما فى استطاعته ، ثم زار مراد بك وابراهيم بك. وتكرر اتصاله بهما فى شأن دفع التعويضات والحصول على تأكيدات بحسن معاملة الفرنسيين فى مصر . وكانت نتيجة تلك الجهود اغفال مراد بك له والامتناع عن مقابلته . فغادر مصر فاشلا فى أبريل ١٧٩٦ ، بعد أن أيقن أن مقابلة الباشا العثمانى أسهل من مقابلة شيخ البلد .

واشتدت وطأة البكوات على التجار الفرنسيين ، وواظب القنصل الفرنسى على إرسال الشكاوى والاقتراحات. وكانت كلها تدور حول وجوب قيام فرنسا بعمل حربى حاسم لا يقل عن استعمار مصر ، والتحذير من الاعتماد على فرمانات السلطان ، أو توقع أية فائدة عملية من جانب العثمانيين .

ففى ١٧ يونية ١٧٩٥ مثلا كتب ماجالون تقريرا من صورتين أرسل إحداهما إلى السفير الفرنسى فرنيناك بالاستانة ، وأرسل الأخرى إلى لجنة الأمن العام بباريس قال فيه « ينبغى ألا نعتمـــد فى تحسين مركز الفرنسيين فى مصر على الفرمانات — السلطانية — مهما كانت قوية ، بل على العكس من ذلك ، أن

هذه الفرمانات سوف تؤدى فقط إلى زيادة حرج مركزهم . وعلى ذلك فإما أن يتدخل الديوان العثمانى بشكل حاسم ، وأما أن يفاد — الديوان — بأن الجمهورية — الفرنسية — ذات قوة تستطيع بها تأديب جماعة من الذين لا تعدو قوتهم الحقيقية أن تكون كبرياء وغرورا » . إلى أن قال « وأما إذا كانت الجمهورية تريد الاهتمام بالتجارة واستغلالها ، فالواجب يحتم عليها احتلال مصر بأكملها »(١).

ثم تعددت تقارير وشكايات ماجالون ، وكانت خاتمتها التقرير الوافى المفصل الذى قدمه بيده إلى حكومة الإدارة بباريس فى ٩ فبراير ١٧٩٨ واسترشدت حكومة الثورة به وبغيره فى إسال حملة لفتح مصر ١٧٩٨ بقيادة يونابرت(٢) .

---

(١) Charles-Roux : Les origines de i'Expedition.. . p271 & Ghorbal : The Beginnings of the Eg. Question.., p. 28 .

(٢) Mogallon : Memoires sur l'Eg. (Revue d'Eg) T. 3 Sep. 1096. pp. 205—224.

ثبت بمصادر الكتاب

أولا ــ الوثائق الرسمية والنقوش التاريخية .

ثانيا ــ المخطوطات .

ثالثاً ــ المطبوعات العربية والتركية .

رابعا ــ المطبوعات الإنجليزية والفرنسية .

مصادر الكتاب

أولا — الوثائق الرسمية والنقوش التاريخية :

١ — نقوش القبة الرئيسية بمسجد الإمام الشافعى بالقاهرة .

٢ — نقوش مقبرة على بك الكبير بالقرافة الصغرى بالقاهرة .

٣ — وثائق دار المحفوظات العمومية بالقلعة :

(ا) دفاتر التزامات الولايات البحرية والقبلية .

(ب) مجموعات الفرمانات والتقاسيط الديوانية وتذاكر المرتبات .

(ج) دفاتر مرتبات مردان القلاع .

(د) دفاتر جراية وعليق .

(ه) دفاتر مسموح ومرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة .

(و) دفاتر التزامات الجمارك .

٤ — وثائق وزارة الأوقاف العمومية بالقاهرة :

(ا) حجة وقف على بك الكبير ١٠ شعبان ١١٨٣ .

(ب) حجة إيقاف وضم ١٨ القعدة ١١٨٥ .

(ج) حجة وقف الست نفيسة قادن بنت عبد الله البيضاء مستولدة الأمير على بك الكبير . (رقم ٦٧ ج ا أهلى بوزارة الأوقاف) .

* * *

ثانيا — المخطوطات (عربية وتركية وفرنسية) حسب الترتيب الهجائى :

١ — رسمى كريدى (أحمد بن إبراهيم) : خلاصة الاعتبار (+ ١١٩٧) مخطوط تركى رقم (٧٨٢٨ — تركى) مكتبة جامعة فؤاد الأول .

٢ — شمعدانى زادة : مرعى التواريخ مخطوط تركى رقم (٧٥٨١ تركى) مكتبة جامعة فؤاد الأول .

٣ — ميخائيل بريك الدمشقى : وثائق تاريخية للكرسى الملكى الأنطاكى (+ ١٧٨٣) صورة شمسية لمخطوط رقم (٢٩٨٩ تاريخ) مكتبة البلدية بالاسكندرية .

4. Compte des sommes payées pour avanies faites à lanation francaise, depuis 1656 jusqu' à présent (1759.)
دار الكتب المصرية برقم (.2509 His)

5. Mémoires des nogociants de Marseille faisant le commerce d'Egypte. (pièce manuscrit datée de. Mavseille le 20 Avril 1777).
دار الكتب المصرية برقم (.3692 His)

* * *

ثالثا — المطبوعات العربية والتركية (مرتبة حسب الحروف الأبجدية للمؤلفين)

١ — أحمد بن زينى دحلان : تاريخ ابن دحلان أو تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

٢ — أحمد بن زينى دحلان : خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ، من زمن النبى عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا (١٣٠٤ هـ)

٣ — أحمد جودت : وقائع دولتعلية من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١١٩٦ - أثر خامة أحمد جودت - دفعة ثانية ، طبعى أولوب .

٤ — أحمد واصف : محاسن الآثار وحقائق الأخبار ، جزآن تركى ، طبع استانبول ١٢١٩ (١٨٠٤) .

٥ — أمين باشا سامى : تقويم النيل - جزآن - القاهرة ١٣٣٤هـ-١٩١٦م

٦ — بولس قرالى (الخورى) : السوريون فى مصر ، جزآن ، طبع القاهرة

٧ — توفيق الطويل (دكتور) : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى القاهرة ١٩٣٦ .

٨ — الجبرتى (الشيخ عبد الرحمن) : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار أربعة أجزاء ، بولاق ١٣٠١ هـ

٩ — حيدر الشهابى (الأمير) : تاريخ الأمير حيدر . ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٠

١٠ — سعيد محمد فرائضى زاده : كلشن معارف ، جزآن تركى ، استانبول ١٢٥٢ هـ

١١ — شفيق غربال بك : مصر عند مفرق الطرق ـ المقالة الأولى ، مجلة كلية الآداب مايو سنة ١٩٣٦ .

١٢ — على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ١٦ جزءاً ـ بولاق ١٣٠٦ هـ .

١٣ — عمر طوسون (الأمير) : كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ، الاسكندرية ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م ـ الجزء الأول .

١٤ — كوجك جلبى زادة : تاريخ إسماعيل عاصم أفندى (تركى) .

١٥ — محمد كرد على : كتاب خطط الشام ـ ٤ أجزاء ـ دمشق ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٥ م

١٦ — المرادى : أخبار الأعصار فى أخبار الأمصار أو سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ـ ٤ أجزاء القاهرة ١٣٠١ هـ .

١٧ — المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب (٨٤١ هـ) القاهرة ١٩١٦ .

١٨ — ميخائيل بريك الدمشقى : تاريخ الشام ١٧٢٠ — ١٧٨٢ ـ حريصا لبنان ١٩٣٠ .

١٩ — ميخائيل مشاقة (دكتور) مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ـ القاهرة ١٩٠٨ .

٢٠ — ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى حاكم عكا وبلاد صفد .

٢١ — يوسف الدبس (المطران) : تاريخ سورية - ٤ أجزاء في سبعة مجلدات (بيروت ١٩٠٣) .

* * *

رابعاً — المطبوعات الإنجليزية والفرنسية (مرتبة ترتيبا أبجديا الأسماء المؤلفين)

1— **Abdulla Zeki** : Essai sur les causes de la Décadence de L'Empire ottaman. These pour le Doctorat 1929. Paris.

2— **D'Arvieux** : Memoires du Chevalier D'Arvie ux, VI Tomes. Paris 1735.

3— **Baldwin. G.** : Political Recollections Relative to Egypt. London 1801.

4— **Browne (W.C.)** : Travels In Africa, Egypt and Syria, from the year 1792 to 1998 London 1799.

5— **Bruce (L.)** : Voyage en Nubie et en Abyssinie, entrepris pour decouvrir les sources du Nil, pendant les années 1768. 1770, 1772 & 1773.
Traduit de L'Anglais par M.Castera 3 vols, Paris 1790,

6— **De Binos (Abbé)** : Voyage par L'Italie Egypte, Au Mont-Liban et en Palestine ou Terre Sainte, 2 Tomes Paris 1787

7— **Cantemir** : The History of The Growth and Decay of The ottoman Empire. Lond 1756.

8— **Cattaui (J. E.)** : Histoire des Rapports de L'Egypte avec La Sublime Porte Au XVIll ieme siecle 1841. Poris 1919.

9— **Chabrol (M. O.)** : Essai sur les Moeurs des habitans modernes de L'Egypte. (Description de L'Eg. ypte Moderne. Tome seconde). Paris 1809.

10— **Charles-Roux (F.)** : Autour D'une Route. L'Angleterre, L'Isthme de Suez et L'Egypte au XVIII Siecle. Paris 1922.

11— **Charles-Roux (F.)** : Les Echelles de Syrie at de Palestine au XVIII. S. Mayenne 1928.

12— « « : Les Origines de L'Expedition D'Egypte. Paris 1910.

13— « « : Le Projet Prançais de Commerce avec L'Inde, par Suez sous le Regne de Louis XVI. Paris 1928.

14— **Capper. J.** : Observations on the Passage to India, Through Egypt, and Across the Great Desert. London 1784.

15— **Carré (Jean Marie)**: Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte. 2 Tomes. (T. 1 De début àla fine de la domination Turque 1517–1840) Le Caire 1932.

16— **Combe (Etienne)** : L'Egypte Ottomone. Premiere Partie : De Sa Conquete par Sélim 1715. àl'arrivée de Bonaparte 1798. (Precis de l'Histoire d'Egypte. T. 3. Le Caire 1935)

17— **Déhérain (H.)** : L'Egypte Turque. (Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne. Tome 5)

18— **Delaporte**. : Abrégé chronologique de l'histoire des Mameluks d'Egypte, depuis leur origine jusqu'àla conquête des Français. (Description De L'Eg. Etat moderne T. 1 Paris 1809.

9— **Egmont. (Van)** : Travels of the Archipelago, Syria, Palestine Egypt Mount-Sinai, 2vols, London 1759.

20— **Estève** : Memoire sur les Finances de L'Egypte,

Depuis sa conquête par Sultan Selym (923-1517) jusqu a celle du général en chef Bonaparte (Des. de L'Eg. Etat Mod. T. 1.)

21— **Funk et Mazarevski** : Histoire de Romanov 1613—1918. Paris 1930.

22— **Girard** : De L'Etat des cultivateurs en Egypte, Quelques Notions sur l'administration des Villages. (Des, de L'Eg. Et. Mod. T. 1. Paris 1809).

23— **Guémard** : Aventurieurs Mameluks D'Egypte. Alexandrie.

24— **Guémard** : Les Romformes en Egypte, D'Ali-Bey El-Kebir à Mehémet Ali 1760—1848. Le Caire 1937.

25— **Hammer** : Histoire de L'Empire Ottoman. Tomes 15, 16 Paris 1839.

26— **Hasselquist (F.)** : Voyages dans le Levant, dans les Années 1749, 50, 51, & 52 Paris 1769.

27— **Irwin** : A Series of Adrentures in the course of a Voyage up The Red Sea, on the coasts of Arabic and Egypt in the year 1777. London 1780.

28— **Jauna** : Histoire générale des Roiaumes de Chypre, de Jérusalem, d'Arménie et d'Egypte. 2 Tomes. Leide 1785.

29— **Jomard** : Description Abrégéde la ville et de la citadelle du Kaire (Desc. de L'Eg. T. 2. Paris 1809).

30— **Lammense** : La Syrie, 2 vols. Beyrouth 1921.

31— » : La Syrie et son Importance Geographique. Louvain 1904.

32— **Lancret (M. A)** : Memoire sur la systeme d'Imposition territoriale et sur l'administration des provinces de L'Egypte, Dans les dernieres années du gonvernement des Mameluks (Desc. De L'Et. Moderne T. 1. Paris 1809)

33— **Lockroy** : Ahmed le Boucher. La Syrie et L'Egypte au XVIIIieme Siecle Paris 1888.

34— **Lusignan (S. L)** : A History of the Revolt of Ali-Bey, against the Ottoman Porte. London 1783.

35— **De Maillet** : Description de L'Egypte. Composée sur les memoires de M. de Maillet. par l'Abbé le Mascrier. Paris 1735.

36— **Marcel (J. J.)** : Contes du Cheykh El-Mohdy. Traduit de l'Arabe d'Apres le Manuscrit original. 3 vols Paris 1835.

37— **Marcel (J. J)** : "Egypte" depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination Français 3 vols, Paris 1848.

38— **Magallon.** : Memoire sur L'Egypte (Révue D'Egypte T. 3. Septembre. 1896).

39— **Masson (P.)** : Histoire du Commerce Français dans le Levant au dix-huitieme siecle. Paris 1911.

40— **Niebuhr** : Description de L'Arabie-Amesterdam 1774.

41— **Norden (F.L.)** : Voyage dans L'Empire Othoman, L'Egypte et la Perse. Fait par ordre du Gouvermement 3 vols. Paris 1801.

42— **Oliver (G.A.)** : Voyage dans L'Egypte et de Nubie. 3 Tomes. Paris 1795.

43— **De Perceval** : Précis Histoirque de Guerre des Turcs contre les Russes. Paris 1822.

44— **Le Père** : Memoire sur la communication de la Mer des Indes ala Méditerrannée par la Mer Rouge et L'Isthme dc Souez. (Desc. de L'Eg. Etat modern T. 1. Paris 1809).

45— **Perry (ch.)** : A View of the Levant. Particularly of constantinople, Syria, Egypt, and Greece etc. In 4 Parts. London 1743.

46— **Platonov** : History of Russia-London 1925.

47— **Pococke (Richard)**: A Description of the East. 4 books I vol. London 1743.

48— **Poliak** : Les Revoltes populaires en Egypte à l'époque des Mameluks et leurs causes économiques. Paris 1935.

49— **Rooke (Henry)** : Travels to the Coast of Arabia Felix and From thence by the Red-Sea and Egypt, to Europe. London 1784.

50— **Politis** : L'Hellénisme et L'Egypte moderne. 2 tomes Paris 1929.

51— **Saint-Priest** : Mémoires sur l'Ambassade de Françe dans la Turquie Paris 1817.

52— **Savary.** : "Lettres Sur L'Egypte" 3 Tomes. Paris 1786. (T. 2. Lettre XVI. Histoire d'Ali bey).

53— **Sicard (C.)** : Nouveaux memoires des Missions de la Compagnie de Jesus Dansle Ievant T.1 ; Paris 1723.

54— **Sonnini (C.S.)** : Voyage dans la Haute et Basse Egypte Fait par ordre de L'Ancienne gouvernement. 3 vols. Paris 1799.

55— **Corel.** : La Question d'Orient au XVIII **ieme** Siècle. Paris 1889.

56— **Thevenot. (Jean)** : The Travels of Monsieur de Thevenot. Into the Levant. In three Parts. London 1687.

57— **Thoumin** : Histoire de la Syrie.

58— **De Tott.** : Memoires du Baron De Tott. Sur les Turcs et le Tartares. 2 Ts. 5 parties Maestrich 1985.

59— **Toynbee & Kirkwood** : Turkey. London 1926.

60— **Toynbee** : The Western Question in Greace & Turkey London 1923.

61— **Vansleb.** : Nouvelle Relation en forme de Journal d'un Voyage fait en Egypte. Paris 1672.

62— **Volney (C. F.)** : Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784 et 1784 suivi de consideration sur la Guerre des Russes et des Turks. 3 Tomes Paris 1823.

A. (Tome 1. Chap. 111. Précis de l'Histoire d'Ali-Bey).

B. (Tome 11. Chap. IV précis de l'Histoire de Daher fils d'Omar).

ملحق

للتعريف ببعض مصادر الكتاب

التعريف ببعض مصادر الكتاب

المصادر التى استخدمناها فى الحصول على مادة هذا الكتاب ترجع إلى أصول مختلفة أهمها :

أولا — الوثائق الرسمية وشبه الرسمية والنقوش التاريخية .

ثانياً — المخطوطات : فرنسية وتركية وعربية .

ثالثا — مؤلفات الرحالة الذين زاروا مصر فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

رابعا — المؤلفات الشرقية : عربية وتركية .

خامسا — يضاف إلى ما تقدم أهم المؤلفات الأوربية التى تكلمت عن مصر فى العصر العثمانى .

* * *

وقد رأينا من الأهمية بمكان أن نعرف الوثائق والنقوش والمخطوطات ؛ ونترجم للرحالة والمؤلفين والمعاصرين ، لأن ذلك العمل يوقف القارىء على قيمة هذه المصادر ، ويلقى الضوء على حياة رجال عاشوا فى عصر على بك ، وتكلموا عنه فى ناحية من نواحيه .

وسوف نبدأ أولا بالكلام عن الوثائق والنقوش ، ثم نثنى بالمخطوطات وترجمة المعاصرين من رحالة ومؤرخين . كما نختم بالكلام عن المؤلفات التركية لما لها من أهمية خاصة فى هذا الموضوع .

* * *

أولا — الوثائق الرسمية وشبه الرسمية والنقوش التاريخية :

---

(١) وثائق العصر العثمانى بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة .

(١) تقارير قناصل فرنسا فى القاهرة والاسكندرية إلى الغرفة التجارية بمرسيليا .

(٢) تقارير قناصل فرنسا فى القاهرة والإسكندرية إلى وزارة الخارجية والبحرية بباريس .

(٣) تقارير سفراء فرنسا فى الاستانة إلى وزارة الخارجية والبحرية بباريس

(ب) كما نقصد بالوثائق شبه الرسمية الخطابات التى كانت ترسل من الإسكندرية إلى سفارة النمسا بالاستانة فترفق بتقارير سفراء النمسا إلى وزارة الخارجية النمساوية بفينا . وقد أشرنا اليها فى سياق الكتاب بخطابات الاسكندرية أو وثائق الإسكندرية وهى محررة باللغة الايطالية .

* * *

والواقع أن كل الفضل فى حصولنا على كثير من الحوادث التى تخللت حياة على بك ، والوقوف على تفصيلاتها إنما يرجع إلى خطابات الإسكندرية وتقارير القناصل وعجائب الجبرتى ، والمصادر الثلاثة تتساوى فى هذا الفضل ولولاها لفقدنا كثيراً من الحوادث الهامة وضللنا فى كثير من التحقيقات التاريخية التى وردت فى الكتاب .

هذا وينبغى أن نشير إلى أن الحادثة الواحدة كانت ترد متشابهة فى المصادر الثلاثة المذكورة ، ومتفقة فى ترتيب وقائعها جملة وتفصيلا بحيث يخيل إلى الإنسان أن أحدها نقل عن الآخرين مع استبعاد ذلك لاستحالته من عدة وجوه كما سنبين فيما بعد . كما أن التواريخ التى وردت فيها كلها متفقة باليوم والشهر والسنة لأنها رواية شهود صادقين لحوادث واحدة .

(ج) ونعنى بالنقوش التاريخية ، ما أمر على بك بنقشه على القبة الرئيسية لمسجد الإمام الشافعى بالقاهرة وما أمر أبو الذهب بنقشه على مقبرة على بك بالقرافة الصغرى .

وثائق العصر العثمانى بدار المحفوظات العمومية بالقلعة

ويحتوى « المخزن التركى » بدار المحفوظات العمومية بالقلعة على وثائق العصر العثمانى بمصر ، وهى بلا شك على أعظم جانب من الأهمية لمن يدرس أى موضوع فى تاريخ مصر العثمانية أو نظمها المختلفة .

والباحث فى هذا « المخزن » تعترضه عقبات جمة قد تجعله يصدف عما هو مقبل عليه ، ولكن الصبر به أجمل فإنه سيعثر بكل تأكيد على ضالته .

أما أهم تلك العقبات فهى تشتت كثير من وثائق العصر بحيث لا يمكن العثور عليها إلا بعد جهد ووقت . والعقبة الثانية عدم وجود بعض أنواع من « الدفاتر » إلا دفاتر سنة أو سنتين منها ، والتعليل المعقول لذلك أن ديوان الرزونامة فى العصر العثمانى كان يتخلص من تلك الدفاتر بعد الاحتفاظ بمثل لها أو مثلين . والعقبة الثالثة فقد أنواع بأكملها من تلك السجلات لسبب من الأسباب .

أما العقبة الرابعة فهى أن معظم تلك الوثائق ، وعلى وجه الخصوص كل ما يتعلق منها بديوان الروزنامه ، محرر « بخط قيرمه » وهى الكتابة المختصرة السرية أو الرمزية التى تعود أفندية الروزنامه أن يحرروا بها حسابات المالية المصرية بخط واضح جميل وبحبر ثابت ، على ورق جيد صقيل فإن تسطيرها بخط قيرمه يجعل من الضرورى للباحث المبتدىء الاستعانة فى حل رموزها بمن يلم بها وهم قليلون .

وفيما يلى أهم وثائق دار المحفوظات التى استعنت بها فى بحثى .

١ — دفاتر التزامات الولايات القبلية والبحرية للسنوات من ١١٧٠ هـ إلى ١١٨٨ هـ (١٧٥٦ — ١٧٧٤م) وهى تزيد عن مائه وثيقة ، وقد أشرنا فى الكتاب إلى أهم تلك الدفاتر وأرقامها ٦/٢٣ ، ٦/٢٤ ، ٧/٢١ ، ٧/٤٤ ، ٧/٥٥ ، ٧/٦١ ، ٧/٦٦ ، ٨/١٣ مخزن تركى .

وعلى ضوء البيانات التى وردت فى تلك الدفاتر درسنا شيئا ذا غناء عن نظام

الالتزام فى العصر السابق لعلى بك ، وفى أثناء عصره ، وفى الفترة اللاحقة به . وخاصة فيما يتعلق بتقسيم القطر إلى ولايات (مقاطعات مالية كبرى) . ونظام منح الالتزام والفئات التى كان يحق لها الالتزام ، كما درسنا ناحية من نواحى سياسة على بك المالية وحققنا آراء المؤرخين فيما فرضه من ضرائب وأموال .

٢ — مجموعات من الفرمانات والتقاسيط الديوانية وتذاكر المرتبات .

(ا) مجموعات الفرمانات الموجودة « بالمخزن التركى » تتضمنها ثلاثة دفاتر فقط بعنوان « دفاتر قيد الفرمانات الصادرة من الباب العالى لمصر المحروسة » بأرقام ١ و ٢ و ٣ . وقد حررها أفندية الروزنامة ، وبعضها بالخط الديوانى وبعضها بخط قيرمة ، نقلا عن نصوص الفرمانات الأصلية . وهى متعلقة بالأمور المالية فقط أى الخاصة بأعمالهم . أما الفرمانات الخاصة بالادارة والسياسة أوغيرذلك من أمور الدولة فلم نعثر على السجلات الخاصة بها .

هذا ومن الفرمانات الموجودة فرمانات صادرة من الباشا فى عهد شياخة على بك ، وفرمانات صادرة من على بك بصفته قائمقام ، وهى على قلتها ضرورية لدراسة ما تتضمنه من نظام . وتبلغ فى عددها نحوا من خمسين فرمان .

(ب) التقاسيط الديوانية :

ونعنى بها تقاسيط الإلتزام . والموجود منها بالدار مرتب فى « محافظ » موزعة حسب السنوات فى « ملفات » بكل منها عدد من « الوثائق » المشار اليها يتراوح بين القلة والكثرة وتزيد عن المائة فى مجموعها .

والجزء الذى بحثناه منها فى محفظة رقم (١) ملفات أرقامها من ١٩ لسنة ١١٧٥ هـ حتى ٢٨ لسنة ١١٨٥ هـ . وقد أوردنا فى متن الكتاب أمثلة لنصوصها وأشرنا إلى أرقامها . ووجه الأهمية فى تلك الوثائق أنها تساعدنا بصفة جدية على دراسة نظام إلتزام الأراضى فى العهد العثمانى عامة وفى عهد على بك بصفة خاصة . هذا وجميع التقاسيط الممنوحة للملتزمين فى عهد على بك ابتداء من سنة ١٨٨٢ هـ (١٧٦٨) أصدرها بصفته قائمقام وهى مبهورة بخاتمه فى الطرف العلوى منها .

(ج) تذاكر المرتبات :

وقد عثرنا بين صفحات دفاتر المرتبات على عدد كبير جداً من الإخطارات المالية التى كان يرسلها كبير أفندية أوجاق متفرقة إلى أفندية المصرف ، أى الأفندية الذين يتولون صرف الرواتب فى القلاع المصرية المختلفة . وقد استخدمنا البيانات الواردة بها فى تصحيح آراء المؤرخين فيما يتعلق بسياسة على بك فى صرف رواتب رجال الأوجاقات العثمانية ، وغير ذلك من الشئون المالية لتلك الفرق .

٣ — دفاتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحروسة مصر :

للسنوات من ١١٨١ هـ حتى ١١٨٥ هـ أرقامها من ٥٥/١١٦ إلى ٥٥/١٣٢ مخزن تركى . وتشمل هذه الدفاتر على بيانات تفصيلية دقيقة عن كل ما يتعلق بالقلاع المصرية وخاصة فى عهد على بك . فتذكر اسم القلعة ، ومكانها ، وعدد رجال حاميتها ، والفئات التى تتكون منها ، ومجموعهم الكلى ، ورواتبهم اليومى ، وأشارة إلى تاريخ تسلم أقساط تلك الرواتب ، والشخص الذى قام بتسليمها .

وقد تضمنت كثيراً من الرموز والاصطلاحات فمثلا (رى يعنى ربيع ثانى) (ومصر يعنى محرم وصفر وربيع أول) ، (رشن يعنى رجب وشعبان ورمضان) وقسط يعنى رواتب ثلاثة أشهر عربية متتالية . . . الخ .

٤ — دفاتر جراية وعليق :

للسنوات من ١١٧٤ هـ حتى ١١٨٦ هـ أرقامها من ٥٥/٦٢ إلى ٥٥/١٣٤ مخزن تركى . وهذه الدفاتر خاصة بالجراية والعليق الذى يحصل عليه بعض فئات من « خدمة الديوان » ، « أسبان جماعة كشيدة ديوان » ، « جماعت متقاعدين » . وفى السنوات الأولى للعصر كانت كلها طوائف عسكرية ثم انضمت اليها فئات مدنية مختلفة بطرق شتى حتى أصبح معظم من يتقاضى الجراية من غير العسكريين فمنهم قضاة ومماليك ونساء وأمراء جراكسة . . . الخ .

٥ — دفاتر مسموح ومرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة :

أرقامها متداخلة فى أرقام النوع السالف — ووجه الأهمية فى الأنواع الثلاثة السابقة المقارنة بين العناصر المكونة لها فى العصر السابق لعلى بك ، وفى أثناء عصره لتعرف مدى أضعافه لأوجاقات الحامية العثمانية وسياسته نحوها .

فدفاتر مرتبات عساكر القلاع أثبتت لنا وجود أوجاق متفرقة . ودفاتر الجراية والعليق أثبتت لنا وجود أوجاق عزبان « متقاعدين » ودفاتر مقاطعة دباغ خانة أثبتت لنا وجود أوجاق جاوشان . ولكنها فى الوقت نفسه وضحت بصورة قاطعة نقص عدد رجال الفرق تدريجاً لأننا وجدنا كثيراً من الهيئات غير العسكرية تشارك رجال العسكرية فى رواتبها .

٦ — دفاتر ساليانات أمراء محافظين ولايت محروسة مصر .

تشمل هذه الدفاتر على رواتب بكوات المماليك السنوية (ساليانات) وهى التى كانوا يتقاضونها نقداً بخلاف (الجراية والعليق) التى كانوا يأخذونها عيناً (قمحاً وشعيراً) كل شهرين ، وقد سهلت لنا هذه الدفاتر الأخيرة (من سنة ١١٦٤ — ١١٨٦ عين ٥٥ مخزن تركى) تتبع بعض المناصب التى شغلها على بك ، والرواتب التى تقاضاها ، والمرات التى عزل فيها عن تلك المناصب . كما انها ذكرت لنا البكوات الموجودين فى تلك السنوات المذكورة :

٧ — دفاتر التزامات الجمارك :

للسنوات من ١١٧٥ هـ إلى ١١٨٧ هـ أرقامها من ٣٠/٢٥ إلى ٣٠/٤٩ مخزن تركى ، ووجه الأهمية فى هذه الدفاتر أنها ذكرت لنا بالتفصيل والدقة عدد الجمارك المصرية والالتزامات المتعلقة بها وإيرادات كل جمرك سنويا والشخص أو الهيئة التى تتولى إلتزامها . وكانت بياناتها ذات فائدة عظمى لنا فيما يختص بسياسة على بك الجركية ، وعلاقته بالأوجاقات العثمانية التى كان بيدها إلتزام بعض الجمارك ، وتحقيق سياسته مع اليهود من مديرى الجمارك ، وأخيراً مسألة منعه

الباشوات العثمانيين من دخول مصر إلى غير ذلك من التحقيقات الهامة التى أشرنا اليها فى صلب الكتاب .

* * *

تقارير القناصل والسفراء

منذ ١٦٩١ فرضت قيود على نظام التمثيل التجارى الفرنسى ، فقد نجح الوزير الفرنسى بونشرتران Ponchartrain فى إصدار مرسوم ملكى بجعل القناصل موظفين حكوميين يعين الواحد منهم باسم (قنصل عام Consul Général) ثم حرمت عليهم المتاجرة لحسابهم ، ولم تعد مناصبهم وراثية ، وأصبحوا لا يعينون إلا بعد أخذ رأى الغرفة التجارية فى مرسيليا . وكان مقر القنصلية بالاسكندرية حتى نقلت إلى القاهرة ١٦١١ وعين نائب للقنصل بالإسكندرية ورشيد ، ومنذ سنة ١٧٧٧ عاد قنصل فرنسا لسكنى الاسكندرية بناء على مشورة البارون دى توت

أما القناصل الفرنسيون الذين عينوا بالقاهرة فى عهد على بك فهم :

1 — Antoine Jocques de lironcourt 1746 — 1751.
2 — De Jonville 1751 — 1758.
3 — D'Amirat 1758 — 1774.

وكان الواسطة بين القناصل و بين الباشا أو البكوات مترجم القنصلية الأول. ولخطورة هذا المنصب وأهميته كانت حكومة فرنسا تختار فريقا من أذكى الفرنسيين وأنشطهم فيعلمونهم اللغات الشرقية فى باريس ثم يرسلونهم بعدها إلى الاستانة للتمرن العملى على النطق الصحيح ، وممارسة الذوق والتقاليد الشرقية وبعدها يعينون فى قنصليات القاهرة والإسكندرية ورشيد وغيرها من المدن الهامة .

ولكن ينبغى أن نشير إلى أن الفرص التى كانت تسمح للباشا بمباحثته فى مسائل تجارية وسياسية ، أو للمترجم الأول بمقابلة كخياوات الأوجاقات أو البكوات ومباحثتهم كانت قليلة . ولم يكن فى امكان هؤلاء إبداء رأيهم بصراحة

أو الاستفهام الحر لأن البكوات كانو يعاملون المترجمين بمنتهى الشدة والأزدراء وكذلك كان يفعل على بك فى أوائل عهده حتى أصبحت قنصلية القاهرة من المراكز غير المحبوبة لا يرسل إليها إلا (سىء الحظ الذى فقد ظهره ومعينه) . ومن أهم المترجمين الأول فى عهد على بك المسيو جيلى وديجون M. Gilly & Digeon .

والواقع أن تقارير هؤلاء القناصل المحفوظة فى سجلات الغرفة التجارية بمرسيليا ، وسجلات وزارتى البحرية والخارجية الفرنسية إنما تستمد قيمتها التاريخية من أنها أقاصيص وآراء شهود عيان مثقفين عززت آرائهم روايات شهود آخرين . وقد أشرنا فى الكتاب إلى أهم هذه التقارير وتواريخها نقلا عن مؤلفات ديهران Déhérain وشارل رو Charles-Roux وبول ماسون Paul Masson .

* * *

(ب) الوثائق شبه الرسمية : وثائق الإسكندرية :

يغلب على الظن أن قنصل النمسا فى الاسكندرية كان يرسل هذه الخطابات إلى السفير النمساوى بالأستانة فيرفقها هذا بتقاريره إلى وزارة الخارجية النمساوية بفينا . وقد نشر المؤرخ همر J. De Hammer النصوص الايطالية الأصلية لهذه الخطابات لأول مرة . والواقع أنها غدقة الأخبار ، مستفيضة الحوادث فى وضوح وجلاء ولا يعد لها فى هذه الناحية سوى الجبرتى .

وأهم هذه الوثائق بتاريخ :

١ — ٢ ديسمبر ١٧٥٤ خطاب ملحق بتقرير السفير بنكلر Penkler .

Letter a di Alessandria. 2 dec., 1754.

٢ — ٤ مارس ١٧٦٦ ملحق بتقرير بنكلر بتاريخ ٢ يونيه ١٧٦٦ .

٣ — ١٧ مارس سنة ١٧٦٦ .

Estratta d'una Lettera indata Alessandria d'Egitto 17 Morzo 1766.

٤ — ١٩ أبريل ١٧٦٦ .

٥ — ٢٧ أكتوبر ١٧٦٧ ملحق بتقرير السفير برونيار Brognard بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٧٦٧ .

٦ — ١٥ يونية ١٧٦٨ .

وجميع هذه الخطابات تشرح تفاصيل الكفاح الذى تجشمه على بك فى الوصول إلى شياخة البلد . وهى متفقة تمام الاتفاق مع ماورد فى الجبرتى بخصوص حوادث هذا الكفاح جميلا وتفصيلا . ولا يعقل أن الجبرتى أطلع على هذه التقارير ، لأنه لم يكن يعرف الإيطالية وهى اللغة التى حررت بها تلك الخطابات كما أنها أرسلت إلى الآستانة وكان لا يزال صبيا . بل أن بعضها أرسل قبل أن يولد ، كما لا يعقل أيضا أن قناصل النمسا فى الاسكندرية استفادوا من عجائب الجبرتى فى تحرير خطاباتهم لأنهم كتبوها قبل أن يسطر الجبرتى تاريخه .

* * *

(ج) النقوش التاريخية :

ونعنى بها النقوش التى أمر بها على بك فى داخل القبة الرئيسية بمسجد الامام الشافعى ، وما انتقش على مقبرته . وكل هذه النقوش أفادتنا من نواحى كثيرة أخصها اللقب الذى كان يتلقب به وتحديد تاريخ وفاته ، هذا عدا أهميتهما من الناحية الأثرية بنوع خاص .

* * *

ثانياً — المخطوطات

نظراً لقرب العصر الذى نبحثه فإن مخطوطاته أقل كثيراً من مطبوعاته . وهذا ما وفقنا إلى الاطلاع عليه من تلك المخطوطات .

١ — المخطوطات الفرنسية :

(ا) بيان المغارم التى دفعتها الجالية الفرنسية بالقاهرة سنة ١٦٥٦ حتى الوقت

الحاضر (١٧٥٩) بما فيها الهدايا المعتادة — نقلا عن سجلات قنصلية القاهرة .

Compte des sommes payées pour avanies faites àla Nation français depuis 1656 jusqu à présent (1759) ence nom compris les présens d'usage, tirées des registres de la Chancellerie du Caire.

وهذا المخطوط محرر بالفرنسية وهو من آثار سياسة المماليك التى اتبعوها نحو الأجانب حتى اضطروهم إلى دفع مبالغ طائلة كغرامات فى حالة غضبهم عليهم ، وأغروهم بتقديم هدايا فى حالة رضاهم استبقاء لهذا الرضاء ودفعا لنقمتهم . وعدد صفحات المخطوط ثلاثة وعشرون من القطع الكبير تحت رقم (2509 his) من فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية ، وكانت المعلومات الواردة بها من أهم البراهين القاطعة التى استخدمناها فى تحقيق وفاة ابراهيم كخيا أستاذ على بك .

(ب) مذكرة تجار مرسيليا الذين يزاولون التجارة فى مصر (١٨٨٦) :

Mémoires des negociants de Marseille faisante commerce d'Egypte datee le 9 decembre 1776 de faire payer soit parimposition, soit par la caisse de la chambre, les avanies, les emprunts demandés à la nation dans les Échelles du Levant et d'emprunter en cors de nation. Pièce manuscrite datée de Marseille, le 2 Avril, 1777 et signé par. Nappllon, Rolland l'aîné, B. Thulis, Beaussier et Ventre, Martin fils de Gezar. Ollive et Mazoillier B. Boyer et Gennier, Apitalierets. In fol. llpp.

Curieux Document.

تحت رقم (3692 his) من فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية .

والمخطوط زيادة على كلامه عن حالة التجارة الفرنسية علق على الحالة السياسية الموجودة فى مصر وأشار فى وضوح إلى اختلاف نظم الحكم فى مصر عن غيرها من بلاد اللفنت ، كما أكد استقلال مصر الفعلى عن الباب العالى .

* * *

٢ — المخطوطات التركية :

والكتاب الترك فى ذلك العصر مشهورون بالتعصب لدولتهم ، وكل حركة

ثورية كانوا يعتبرونها مروقا عن الدين وكفراً بنعمة السلطان ، كما تعودوا استعمال الكنايات والاستعارات . فلا تكاد تخلو صفحة من تعابير مجازية . ولعل من أكبر عيوب تلك المؤلفات عادة الاستطراد فى الكلام عن نقطة معترضة بحيث ينقطع سياق الموضوع الرئيسى ويبدو مبعثراً فى مواضع مختلفة من الكتاب . ولكن تجمل بنا الإشارة إلى جمال الخط المسطرة به تلك المخطوطات مع حسن تنميقها ، بحيث يمكن اعتبار معظمها نماذج لجمال الخط وحسن التنميق .

(ا) تاريخ شمعدانى زاده المشهور بمرعى التواريخ :

وهى نسخة مخطوطة بقلم معتاد بخط عبد الصمد عصمت أفندى فرغ منها فى يوم الاثنين ١١ المحرم ١٢٧٨ هـ — تحت رقم (٧٥٧١ تركى) بمكتبة جامعة فؤاد الأول بالجيزة .

والمخطوط ببحث « وقائع الدولة العلية من سنة ١١٦٧ هـ إلى ١١٩١ هـ » وعلى ذلك فهو يتناول حوادث الفترة التى ظهر فيها على بك وقام فيها بحركته . وصفحات المخطوط غير مرقومة ، والطريقة التى سار عليها شمعدانى زاده المؤرخ العثمانى طريقة التأريخ السنوى . فيبدأ بذكر السنة ثم يذكر الحوادث التى وقعت فيها حتى إذا ما انتهى العام بدأ بسنة جديدة وموضوعات جديدة ثم أكمل حوادث العام السابق وهكذا .

وقد كتب المؤرخ فصلين هامين عن على بك أولهما فى حوادث سنة ١١٨٠هـ بعنوان « تفصيل أحوال مصر وظهور على بك ووالى راقم باشا » وثانيهما ١١٨٧ هـ بعنوان « مصر دن على بك خروجى وطغيان » أى « طغيان على بك وخروجه من مصر » .

والحوادث التى ذكرها المخطوط توافق ما جاء فى المصادر الأخرى . ولكن يمكن أن يستشف من عبارات المؤلف مقدار حقده على على بك وحليفه ظاهر حتى لقد أشار إليهما بلفظ « خنزيرين » وبدا كأن كابوسا قد أزيح من فوق

صدره عند ما أشار إلى وفاة على بك وكيف أنه « ثمل بكأس يأس الخسة وسار فى قافلة اقليم العدم متأثراً بجراحه » .

(ب) خلاصة الاعتبار : لأحمد بن ابراهيم المشهور برسمى كريدى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ مخطوط بقلم الرقعة مسطرة ١٧ ، تحت رقم (٧٨٣٨ تركى) مكتبة جامعة فؤاد الأول

وصفحات هذا المخطوط كسابقه غير مرقومة . وطريقة المؤلف هى التأريخ حسب السنين . أما الجزء الخاص عن على بك فقد ورد فى الفصل السادس بعنوان « فصل ساد سينه محسن زاده صدا رتندن أولان يوز سكسان سكز سنة سى حوادثى بياندة در » أى « الفصل السادس فى بيان حوادث سنة ١١٨٨ هـ الواقعة فى أثناء صدارة محسن زاده » وهى مكتوبة بروح موالية للعثمانيين معادية لبكوات المماليك عموما ولعلى بك على الوجه الخصوص ، فقد اعتبره « مفسدا » واعتبر حركته « من المصائب التى لاتخطر بالبال » . وقد تكلم عن علاقته بروسيا وأثر حركته فى الحرب القائمة بين الدولتين فى ذلك الحين .

ورغم ذلك فحوادث المخطوط صحيحة فى جملتها . وأهمية المخطوطين السابقين هو دراسة وجهة النظر العثمانية فى حركة على بك .

* * *

٣ — المخطوطات العربية :

(ا) وثائق تاريخية للكرسى الملكى الأنطاكى :

أو تاريخ الشام من سنة ١٧٢٠ م إلى ١٧٨٢ م للخورى ميخائيل بريك الدمشقى وصورة المخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم (٢٩٨٩) من فهرس التاريخ .

والمخطوط يتضمن تاريخ الشام بين عامى ١٧٢٠ و ١٢٨٢ وبذلك أورد الحوادث التى كانت سورية وفلسطين مسرحا لها فى عهد على بك . وهو مقسم

حسب السنين ، ويتضمن « تاريخ الشام وفلسطين ولبنان — سياسيا للوزراء والحكام من بيت العظم ومعاصريهم ، مزاحميهم ومواليهم ، وما كان من حروب وأحكام ومظالم وحوادث مهمة دينيا للإسلام والنصرانية . . . » أما مؤلفه الخورى ميخائيل بريك الدمشقى فكان رئيسا لدير السيدة المشهور بصيدا ، رغم كونه راهباً متزوجا ثم فوضت إليه أمور البطريركية فى دمشق . ولهذا تحسب شهادته ذات قيمة فى تاريخ دمشق

وقد أشار المؤرخ إلى أنه كان شاهد عيان لتلك الحوادث بقوله « اعلم بأنى عزمت أن أورخ من سنة ١٧٢٠ مسيحية الموافقة لسنة ١١٢٢ لثلاث أسباب : الأول لأن هذا ما شاهدته بنفسى ، وهو أول وعي على الدنيا وثابت عندى من الذين هم أكبرهم سنا منى . . الخ »

والحوادث التى تدخل ضمن تاريخ على بك تكلم عنها فى سنوات ١٧٦٩ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٢ ، ١٧٧٣ ، وهى عادية ولكن يكسبها قيمة تاريخية أنها رواية شاهد عيان موثوق بصحة أقواله . ويلاحظ أن عبارة المؤلف عربية ركيكة فى بعض الأحيان ، وتتضمن بعض اصطلاحات ذلك العصر وأسلوبه سلس وصريح والنسخة المصورة أخذها الخورى قسطنطين الباشا المخلصى بالتصوير الشمسى عن النسخة الوحيدة الموجودة فى مكتبة مدينة برلين تحت رقم (٩٧٨٦ مخطوطات عربية) وقد قام أيضا بنشر المخطوط دون زيادة أو نقص حرصا على قيمته التاريخية بمكتبة القديس بولس بمدينة حريصا بلبنان سنة ١٩٣٠ .

(ب) أجوبة حسين افندى عن ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية :

مخطوط بقلم معتاد فى ٧٥ صحيفة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١١٥٢ تاريخ) .

وحسين أفندى من أفندية الروزنامه (الإدارة المالية) فى العصر السابق للحملة الفرنسية فلما جاء نابليون عهد بتنظيم الإدارة المالية إلى المسيو بوسيلج M. Poussielgue ومساعدة استيف Estéve (الذى ترأسه فيما بعد) وقد اجتهد

هذان فى الوقوف على موارد البلد المالية ونظمها عن طريق المباشرين الأقباط، ولكن هؤلاء كانوا أحرص من أن يفضوا بأسرار مهنتهم للفرنسيين وأخيراً تمكن استيف من غرضه بمعونة حسين أفندى «فأجاب عن الأسئلة التى وجهها إليه المسيو استيف ، ونظم إجابته فى ستة عشر باباً . وكان هذا فى ١٣ محرم ١٢١٦ (أواخر مايو ١٨٠١) أى قرب انتهاء العهد الفرنسى » .

وقد جاءت إجاباته وافية إلى حد كبير ، فمهد بشرح نظم الحكم والقائمين بأموره ، وتقسيم البلاد المصرية ، ثم الأفندية واختصاصاتهم ، والملتزمين وحقوقهم ، والأطيان وضبطها منذ دخول السلطان سليم ثم الميرى ومقداره ومصارفه .. وبالاختصار كل مايخص المالية المصرية . ولكن يلاحظ أن حسين أفندى هذا قد تجنب تفصيل الأنظمة السائدة حينئذ تجنباً يكاد يكون تاما ، إلا فى موضع أو موضعين فذكر الأمور على ما كان يجب أن تكون عليه . وقد قام الأستاذ محمد شفيق غربال بك بنشر هذا المخطوط فى مجلة كلية الآداب المجلد الرابع الجزء الأول مايو ١٩٣٦ بعد أن مهد له بتعريف حسين أفندى ، وناقش مدى قيمة أجوبته من الناحية التاريخية ، ثم علق على تلك الأجوبة بما أكمل النقص الذى كان يعتورها ، ووضح الغموض الذى كان يحيط ببعض نقطها ، واستعان فى ذلك ببعض المراجع الهامة كان من أخصها بعض مباحث علماء الحملة الفرنسية والمخطوط أساس فى دراسة النظم التى كانت سائدة من الوجهة الشرعية .

* * *

ثالثا — مؤلفات الرحالة

زار مصر العثمانية عشرات السائحين من مختلف الأجناس ، ولمؤلفاتهم عن مصر قيمتها من حيث أنها دراسة لتاريخها من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية — ولا شك فى أن دراسة حكاية تلك الرحلات ، وتراجم أولئك الرحالة يستوعب رسائل بأكملها ، ولذلك سنقتصر هنا على إبراز أهم العوامل

التى جعلت مصر ميدانا لسياحات عدة فى ذلك الحين ثم نأتى بتعريف لأشهر أولئك الرحالة مع نقد مؤلفاتهم من الناحية التاريخية .

فمنذ فشل الغرب المسيحى فى الاستحواذ على الأرض المقدسة بفلسطين ، بقيت الروح الصليبية ثائرة فى صدره ؛ نفس عنها بالحج وإيفاد الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية على وجه الخصوص . وأعقب ذلك اهتمام الغرب بفنون الشرق وآدابه ، فأقبل الأوربيون على مطالعة مؤلفات الرحاله ، عن الشرق عامة ومصر خاصة ، حتى طبعت تلك المؤلفات أكثر من مرة ، وترجمت إلى أكثر من لغة ، وكان النجاح الذى صادف الرحالة الأوائل خير مشجع لعشرات آخرين معظمهم من الفرنسيين فالإنجليز فالهولنديين والدانمركيين وغيرهم .

وفى أثناء القرن السابع عشر ، وعلى وجه الخصوص فى عهد الملك لويس الرابع عشر ، اتجهت أنظار فرنسا إلى الشرق حيث قامت بمجهودات تجارية ومحاولات دبلوماسية فى تركيا وسورية وفلسطين وفارس ومصر والحبشة والهند والصين وسيام ، وتلا نشاط العلاقات التجارية والسياسية نشاط الإرساليات الدينية ووضع ذلك كله أساسا صالحا لنشاط علمى أساسه الدراسات التاريخية والجغرافية واللغوية ، تطور بعد ذلك إلى ما صار يعرف بالاستشراق L'orientalisme وظهر بين الرحالة بعض المستشرقين الأوائل . ولما كانت هذه الرحلات وما قام به الرحالة من دراسات أفادت العلم واسترشدت بها الحكومات نال الرحالة عطف حكوماتهم وتشجيع الهيئات العلمية وتعضيدها ، بل أن كثيراً من الرحالة قام بسفاراته بأمر من حكومته على نحو ما نسميه فيما بعد .

ومنذ أواسط القرن السابع عشر . وعلى وجه التحديد منذ رحلة جان دى تيفينو Jean De Thévenot (١٦٣٣ — ١٦٦٧) بدأ عصر الرحلات الأعظم بظهور كثير من « الرحالة المحترفين » أو ما نسميهم الآن « المستكشفين » ونال مصر من تلك الحركة النصيب الأوفر ، ثم بفضلها تعرف الأوربيين للوجه البحرى

ومصر الوسطى كما بدأ كشف مصر العليا علميا وبعض أعالى النيل جغرافيا فى أثناء القرن الثامن عشر .

وبعد أن انتهت مرحلة الكشف هذه بدأت مرحلة جديدة هى بحث مصر بحثا علميا ودراستها دراسة منظمة. وقدقام باحياء هذا الدور علماء الحملة الفرنسية.

ولسهولة دراسة هؤلاء الرحالة قسمناهم إلى ثلاث فئات .

١ — من زاروا مصر فى أثناء القرن السابع عشر ، والثامن عشر قبيل عصر على بك .

٢ — من زارها فى عصره .

٣ — الرحالة المتأخرون .

* * *

١ — الرحالة السابقون :

ووجه الاستفادة من كتابات الرحالة السابقين لعصر على بك هو دراسة حوادث مصر العثمانية وتطور نظمها المختلفة ، ولذا سنكتفى هنا بذكر أسمائهم وتاريخ زياراتهم لمصر . وقد ذكرنا عناوين مؤلفاتهم بثبت المراجع .

١ — فرمانيل الفرنسى زار مصر سنة ١٦٣١ م .

٢ — جان دى تيفينو الفرنسى (١٦٥٧ — ١٦٥٩) ، (١٦٦٣) .

٣ — دارفييه الفرنسى (١٦٥٨) .

٤ — كوبان الفرنسى (١٦٣٨ — ١٦٤٠ ، ١٦٤٤ — ١٦٤٦) .

٥ — فانسليب ألمانى الأصل وفرنسى الجنسية (١٦٦٣ ، ١٦٧٢ — ١٦٧٣) .

٦ — بول لوكاس الفرنسى (١٧٠٤ — ١٧١٧) .

٧ — القنصل الفرنسى دى ماييه (١٦٩٢ — ١٧٠٨ ، ١٧١٥) .

٨ — كلايتون الإنجليزى (١٧٢٢) .

٩ — سيكار الفرنسى (١٧١٢ — ١٧٢٦) .

١٠ — جرانجيه الفرنسى (١٧٣٠ — ١٧٣٢) .

١١ — فان اجمونت الهولندى (١٧٢٠) .
١٢ — نوردن الدانمركى (١٨٧٨) .
١٣ — طومسون الانجليزى (١٧٣٤ — ١٧٣٥) .
١٤ — بوكوك الانجليزى (١٧٣٧ — ١٧٤١) .
١٥ — هازلكيست السويدى (١٧٥٠ — ١٧٥١) .

* * *

(ب) كتابات المعاصرين الأوربيين :

وجل مؤلفاتهم لا تتناول على بك وأعماله إلا بالإشارة فقط . والواحد منها بمفرده لايكاد يكفى لتكوين فكرة واضحة عن الموضوع . وأهمها ما يلى :

١ — رحلة جيمس بروس :

ولد جيمس ١٧٣٠ من أسرة عريقة باسكتلندة ، ونشأقوى البدن ، طويل القامة ، أشرب بالشجاعة والاقدام وحب الأسفار . وقد طاف يكثير من بلدان أوربا وخصوصا أسبانيا والبرتغال وأنعم عليه ملك انجلترا لذلك بلقب بارون من رتبة فارس ، ثم عينه قنصلا لانجلترا فى شمال أفريقية ١٧٦٢ وهناك فى مدينة الجزائر استغل مهارته الفنية فى رسم الأطلال الرومانية والنقوش التاريخية من الآثار .

ولما عاد إلى انجلترا ١٧٦٧ تشوقت نفسه إلى كشف منابع النيل . ولما كان الشائع فى ذلك الوقت أنه ينبع من الحبشة فقد عول على الرحلة إلى تلك البلاد ، وكلفه اللورد هاليفاكس Halifax وزير خارجية انجلترا أن يعرج فى طريقه على مصر . فغادر لندن إلى فرنسا فإيطاليا فسورية براً ، وفى ١٥ يونية ١٧٦٨ أبحر من صيدا إلى مصر فوصل إلى الاسكندرية فى ٢٠ يونيه ١٨٦٨ . ووصل إلى القاهرة فى أوائل يوليه حيث قابل على بك عدة مرات . ثم ركب النيل حتى قنا ومنها اتجه إلى القصير ، حيث أبحر إلى ينبع ثم جدة فوصلها فى أوائل

سنة ١٧٦٩ . وهناك قابل قباطنة مراكب تجارية انجليزية حدثوه فى التوسط لدى على بك فى شأن عقد معاهدات تجارية بين مصر وشركة الهند الشرقية الانجليزية فوعدهم بتحقيق ذلك بعد عودته من الحبشة . ثم غادر جدة فى ٨ يولية سنة ١٧٦٩ إلى الحبشة لكشف منابع النيل ، فنزل مصوع وسار إلى عدوة ثم العاصمة غندار قرب تسانا فوصلها فى يناير سنة ١٧٧٠ حيث أدى خدمات طبية للرأس ميخائيل والملكة استر وسمحا له بعد ذلك بمشاهدة منبع النيل فوصل إلى نهر آباى وبحيرة تانا فظن أنهما مبدأ النيل . ثم غادر العاصمة فى يناير سنة ١٧٧١ وسار شمالا بغرب مارا بسنار . ولما وصل إلى ملتقى النيل الأزرق — الذى استكشف — بالنيل الأبيض ظن هذا الأخير رافدا للنيل مع أن الصحيح عكس ذلك . ثم سار شمالا إلى شندى ، فبربر ، فأسوان . وانهكت قواه رياح السموم الحارة المحملة بالرمال ونفذ منه الزاد والمال فبقى عدة أيام على الطوى . وكاد يفقد متاعه ومذكراته ورجاله وحياته بين كثبان الرمال لولا معونة أغا أسوان الذى انقذه وأكرمه . ثم انحدر مع النيل إلى القاهرة فوصلها فى ١٠ يناير ١٧٧٣ وغادرها فى مارس إلى اسكتلندا ، حيث دون مذكراته بعد أن أتم « أخطر مغامرات عصره » على حد وصف فولنى . فانه عند ما وصل إلى دير القديس جورج عند مدخل القاهرة فى ١٠ يناير ١٧٧٣ كان كأفاق أكثر منه رحالة . وكتب يصف نفسه فى آخر الجزء الثالث بقوله « لم يكن يغطى جسمى قميص ما ، وكان قد مضى على أربعة عشر شهراً دون أن أملك واحداً منها . وكل ما كان عندى صديرية ومئزر طويل من النيل الأسمر الخشن ، وإن كنت لا أزال أحمل شاربا طويلا . وكنت أضع على رأسى ليلا ونهاراً غطاء من الموصلى الأبيض يلتف حول طربوش أحمر على الطريقة التركية ، وأحمل حول وسطى منطقة فى ثمان لفات أو عشرة تصل حتى معدتى . أما أقدامى فكانت حافية ولكنى كنت مسلحا بغدارتين انجليزيتين مكفتتين بالفضة أحملهما فى جانبى الأيسر ، خنجر حبشى مقوس صنعت قبضته من قرن الخرتيت » .

هذا وقد نشرت رحلته بالانجليزية ثم ترجمها مسيو كاستيرا إلى الفرنسية ونشرها فى حياة مؤلفها بعنوان :

Voyage en Nubie et en Abassinie, entrepris pour decouvrir les sources du Nil, pendant les années 1768, 1769 1770, 1771, 1772, 1773. Par M. James Bruce. 3 vols. Paris 1790.

ولنا عدة ملاحظات عن تلك الرحلة :

أولا : يتضح من كتابة بروس أنه كان مثقفا ثقافة عالية ، واسع المعلومات وعلى درجة كبيرة من الذكاء واللباقة والفضائل النفسية . وقصة رحلته ممتعة للغاية وأسلوبه سلس وحوادثه شيقة .

ثانيا : يشمل الجزء الأول من الترجمة الفرنسية الكلام عن مقدمات رحلته والاستعدادات التى اتخذها لذلك ثم أخبار مقابلاته مع على بك وتاريخ العلاقات التجارية بين الهند وأفريقية الشرقية والحبشة منذ عصر البطالسة والرومان . الخ ويشمل المجلد الثانى تاريخ بلاد الحبشة من ١٧٦٨ — ١٧٦٩ . أما المجلد الثالث فقد أورد فيه قصة رحلته واستكشافاته مع أعماله فى الحبشة . . . الخ .

ثالثاً : جاء الرحالة إلى مصر مرتين كانت المرة الأولى فى عهد على بك من يونية ١٧٦٨ إلى ديسمبر من السنة نفسها . والمرة الثانية من ١٠ يناير ١٧٧٣ إلى مارس من نفس السنة فى عهد محمد بك أبى الذهب . وكان على بك فى ذلك الحين لاجئا إلى حمى خليفة الشيخ ظاهر ، يستعد للعودة إلى مصر . ورغم قصر تلك المدة فإنها كانت كافية لتمحيص ما كتب ، لأنه كان على اتصال مباشر بعلى بك نفسه وبرجاله ثم بمحمد بك أبى الذهب ورجاله .

رابعاً : الجزء الذى ذكره عن مصر فى المجلد الأول طريف جداً لم يرد فى كتابة رحالة غيره ، وذلك لأنه لم يقحم نفسه فى مقدمات تاريخية كما كانت العادة بل قص علينا ما حدث بينه وبين على بك فى أسلوب شيق جذاب وحدثنا عن كثير من صفاته الشخصية ، وعن حركته وموقفه من الباب العالى ، واتصاله

بروسيا ، والظروف التى استغلها للقيام بثورته . وقارن بين حكومته والحكومات السابقة له . كما ناقش أهم العوامل التى رأى أنها كانت سبب فشله . وأخيراً ساهم بنفسه فى حركة إحياء طريق التجارة البرى .

خامسا : نشاط جيمس بروس ، وكفاياته المتعددة ، ولباقته ، وتكييفه لنفسه حسب مقتضيات الحال : فى مصر تظاهر بأنه عالم بالفلك عند ما علم بتقدير على بك لعلمائه ، ثم ادعى بأنه ذاهب إلى الهند ليقينه من معارضة تركيا ومصر للرحلات الاستكشافية ، لاعتقادها أنها مؤسسة على أطماع سياسية . وهذا هو سبب سفره إلى جدة أولا بدل الحبشة مباشرة . وفى أثناء الطريق تصنع التنسك والزهد خوفا على حياته من الأعراب وتسهيلا لمهمته . وفى الحبشة ادعى أنه عالم بالطب ، ولولا خدماته الطبية للأسرة المالكة ما سمح له بالتجول بحثا عن منبع النيل . ولما عاد إلى مصر عرف كيف يكسب احترام أبى الذهب وحسن تقديره فلقبه « يعقوب الحكيم » واستصدر منه بروس فرمانا فى الشهر التالى لوصوله (فبراير ١٧٧٣ — ١٥ ذى القعدة ١١٨٦) لمصلحة شركة الهند الشرقية التجارية .

ويجمل القول فى رحلته أنها أضافت كثيراً إلى معلوماتنا التاريخية عن الفترة الأولى من عصر على بك .

* * *

٢ — مذكرات البارون دى توت :

البارون دى توت مجرى الأصل ولد فى سنة ١٧٣٣ ، ثم دخل فى خدمة فرنسا ، وكان على درجة عالية من المهارة السياسية ، والكفاية الحربية ، بزغ اسمه فى إبان اشتداد الأزمة التى سبقت الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ ، فكلفته الحكومة الفرنسية بمهمة رسمية لدى خان التتار بالقرم . ولما تهدد بوغاز الدردنيل بمدافع الأسطول الروسى الظافر بعد احتراق معظم سفن الأسطول العثمانى فى خليج جشمة ، وعانت الامبراطورية العثمانية كثيراً من ثورات على بك الكبير فى مصر

وحليفه ظاهر فى فلسطين وحركات غيرهما من الولاة « حول دى توت مهارته السياسية إلى أعمال السيف » تعهدت إليه الحكومة العثمانية تحصين البواغيز وإصلاح المدفعية والبحرية ، والإشراف على تدريب الجند العثمانى وإدخال الأسلحة الحديثة . وقد أنجز دى توت مهمته وأدى خدمات جليلة للدولة العثمانية

ولما انتهت الحرب بصلح قينارجى ١٧٧٤ عاد دى توت إلى باريس. وفى أبريل ١٧٧٧ اقترح وزير البحرية الفرنسية المسيو دى بويتس M. De Boynes إيفاد دى توت فى بعثة سرية الغرض منها إعداد دراسة تمهيدية لمشروع إرسال حملة فرنسية لفتح مصر . وقد وافق وزير الخارجية المسيو فيرجن M. Vergennes فعينه « مفتشا لاساكل اللفنت » وكانت مهمته الظاهرية بحث الوسائل اللازمة لزيادة النشاط التجارى الفرنسى فى شرق البحر الأبيض .

وقد بدأ توت مهمته فغادر طولون فى ٢٦ ابريل ١٧٧٧ قاصداً مصر ، ومعه مساعده لالون la loan ورافقه الرحالة العالم الفرنسى سونينى Sonnini ووصل الجميع إلى الاسكندرية فى يونيه ثم القاهرة حيث درس توت أحوالها السياسية والتجارية وعاد إلى الاسكندرية فدرس قدرتها على الدفاع وصلاحية الشواطىء المصرية لنزول حملة غازية . وفى سبتمبر ١٧٧٧ عاد إلى فرنسا وقدم إلى حكومته مذكرتين إحداهما عن مهمته السرية والثانية عن مهمته الرسمية ، وفى عام ١٨٧٤ نشر «مذكراته» عن الترك والتتار فى أربعة أجزاء بعنوان .

"Memoires du Baron De Tott, Sur les Turcs et les Tartares, à Maestricht 1785 2 Tomes. 5 Perties."

وقد ضمت هذه المذكرات أخبار رحلته السالفة الذكر وخلاصة آرائه السياسية فى الدولة العثمانية . وكان من رأيه أنها آيلة إلى الإنحلال فالسقوط ولا يمكن الحيلولة دون ذلك بحال من الأحوال ، وأنه يجب على فرنسا الاستفادة من ذلك بأخذ نصيب ذات قيمة وأشار إلى مصر (التى تكلم عنها فى الجزء الرابع من الصفحة الأولى حتى صفحة ٧٤) وتناول بحث أحوال السكان والتجارة

والزراعة وفوضى الحكومة . ومؤلفه يهم موضوعنا من ناحيتين : فهو أصدق وأكمل مصدر لتوضيح الظروف الخارجية التى انتهزها على بك للقيام بحركته ، وقد كان معاصراً لها ومن المؤثرين فى حوادثها ، ولكنه لما كان فى خدمة الدولة العثمانية فقد نظر إلى على بك بعين عثمانية فتحامل عليه واعتبر نضاله أساس الفوضى التى كانت بمصر حينئذ . كما تهمنا أيضا من حيث أنها أظهرت حالة مصر كعامل ممهد للحملة الفرنسية التى كانت لا تزال فى ذلك الحين مشروعا تحت الدرس والبحث . وكان دى توت من أنصارها والداعين لقيام فرنسا بتحقيقها .

سان بريست Saint-Priest :

كان سان بريست من رجال السياسة الفرنسيين الأكفاء ، فلما تجهمت الأحوال الدولية قبيل الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ عينته حكومته سفيراً فى الاستانة فوصلها فى ١٣ نوفمبر ١٧٦٨ . ووقف يحكم مركزه على جميع المحاولات والمناورات السياسية التى سبقت اعلان تلك الحرب وكان على اتصال دائم بالصدور العظام والسلطان مصطفى الثالث . وفى سنة ١٧٧٧ ذهب إلى باريس ، وانتهز السماح له بعطلة للاستجمام فدون مذكراته ثم نشرها فيما بعد بعنوان :

Memoires Sur L'Ambassade de France En Turquie.
Par M. Le Conte de Saint Priesr 1777.

وتلك المذكرات تهمنا من حيث أن صاحبها كان معاصرا لحركة على بك منذ مبدئها حتى نهايتها ، وهو وإن لم يحضر إلا مصر فإنه كان فى الاستانة يقف على أخبارها الرسمية من الديون العثمانى وشبه الرسمية من تقارير قناصل فرنسا بالقاهرة وغيرهم من التجار ، وقد وضح لنا ، أكثر من القنصل دى توت ، الظروف الخارجية التى اكتنفت حركة على بك من أولها حتى ختامها . وهو مؤمن بضعف الدولة العثمانية ، وقرب انحلالها ما لم تمدها فرنسا بمعونة صادقة ناجحة . كما كان من رأيه الاتفاق مع النمسا على حساب روسيا لمصلحة الدولة

العثمانية . وأخيراً نصح حكومته بأن تجعل مصر نصب عينها إذا قدر للدولة العثمانية أن تزول .

* * *

٤ — سوفير لوزنيان كوزموپوليتس .Sauveur lusignan Kosmopolites

هيأت لنا العناية كتابات بروس لتحليل شخصية على بك ، ودى توت وسان بريست لتوضيح الظروف التى انتهزها للقيام بثورته ، كما أنها أتاحت لنا بكتاب لوزنيان مصدراً شاملا دقيقا لكثير من أعماله ، ووقفنا منه على حوادث عصره ونهايته .

وسوفير لوزنيان هذا يونانى جاء مصر صبيا مع أخيه الأكبر فى سنة ١٧٤٦ . وكان عمره حينئذ عشر سنوات ، فأقام بدمياط أسبوعين أرسله أخوه بعدها إلى خاله بالقاهرة ، وكان هذا فى خدمة محمد راغب باشا وإلى مصر فى ذلك الحين .

قص علينا اتصاله بعلى بك فقال فى الصفحة الخامسة من المقدمة « وكان خالى على اتصال وثيق بابراهيم كخيا أستاذ على بك — وكان على بك خازنداره حينئذ . وقد تعمد أن يصحبنى كلما زار إبراهيم كخيا ، الذى كان يأمر عليا أن يقدم لى بعض الهدايا . كما أن عليا كان كثيراً ما يزور خالى فى منزله بالقلعة فتقدم له بعض الهدايا ، مثل الفراء والأقمشة ومنتجات الخارج الأخرى . وهكذا زادت معرفتى بعلى ، وكنت لا أزال فى ميعة الصبا . حتى إذا ما عزل راغب باشا سنة ١٧٤٩ واضطر خالى إلى اللحاق به غادرنا مصر إلى الأناضول ، حيث أقمنا أربعة عشر شهراً ، ذهبنا بعدها إلى القسطنطينية . وفى سنة ١٧٥٣ انفردت بأعمالى ، فأخذت أمارس التجارة . فحملت تجارتى على سفينة إلى دمياط حيث قابلت المعلم ميخائيل فرحات وكيل ديوانها ، وكان من أتباع إبراهيم كخيا ومن المقربين إلى على بك الذى سبق اتصالى به ، فاشترى منى (ميخائيل) عروض تجارتى . ورجوته أن يتوجه إلى على بك بالتحية والتمنيات . ومنذ ذلك الحين وأنا أتراسل مع المعلم

فرحات فكان يؤكد لى أنه يبا تحياتى إلى على بك كما كان يطلب منى فى كثير من الأحيان شراء بعض البضائع الأوربية لحساب على بك وكنت أجيبه إلى طلبه .

وفى سنة ١٧٦٩ بينما كنت مقيما فى أوربا وصلنى خطاب من المعلم فرحات يطلب فيه باسم على بك أداء بعض المهام ، ويدعونى إلى الحضور إلى مصر بأسرع ما يمكن حتى يعهد إلى بأحد الأعمال . ولكن ظروف العمل اضطرتنى إلى البقاء فى أوربا حتى سنة ١٧٧١ ، فوصلت إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة حيث كان لى شرف المثول بين يديه عندما قدمنى إليه المعلم فرحات . ومنذ ذلك الحين بقيت فى خدمته حتى هزيمته الأخيرة التى أوقعتنى فى المتاعب التى أعانيها » .

وبعد هزيمة على بك فى الصالحية سنة ١٧٧٣ سمح له بالرحيل فتوجه إلى فلسطين حيث أبحر على سفينة انجليزية إلى لندن . ولما كان لوزنيان قد فقد بفراره كل ما يملك فإنه وصل إلى انجلترا صفر اليدين ، وهناك بدأ يكتب مؤلفه التالى عن تاريخ على بك ونشره فى لندن سنة ١٧٨٣ بعنوان :

"A History of The Rovolt of Ali Bey. Against The Ottoman Port, Including an Account of The Form of The Government of Egypt, Together with a Description of Great Cairo, and of general Celebrated Places In Egypt, Palestine & Syria . . . . By S. L. Kozmopolites. (London 1783.)

أما عن غرضه من نشر الكتيب فقد أشار فى الصفحة الثالثة من المقدمة إلى أنه نظراً لظهور بعض مقالات عن (حركة عصيان على بك ضد الحكومة العثمانية) باللغة الألمانية وجد من الواجب عليه أن يكتب تاريخا يوضح فيه قصة هذا « الأمير السيء الحظ » ، لا سيما وأنه اتصل به اتصالا وثيقاً لمدة طويلة وكان شاهد عيان لمعظم مخاطراته ومغامراته . كما صرح بأنه فعل ذلك نزولا على إرادة كثيرين من أصدقائه . والذى يتضح لنا أن لوزنيان كتب مؤلفه هذا ونشره بقصد التكسب ، فالغالب أنه كان يعيش عيشة رقيقة ، إذ كان يدرس

اللغة اليونانية ، وكتب إعلانا عن نفسه بذلك بعد مقدمة الكتاب . ثم إنا نفهم من سياق كلامه فى الصحيفة الأخيرة من الكتاب أنه كان يعيش على ما يجود به عليه بعض معارفه من الانجليز إذ قال : « ولا يسعنى سوى انتهاز هذه الفرصة لأبدى كامل عرفانى بالجميل لما لاقيت من إحسان بعض أصدقائى . وكلى أمل — رغم عجزى عن رد جميلهم — أن يظلوا يشملونى بعطفهم حتى يمكننى أن أجد المعونة فى هذه البلاد البعيدة عن أرض الوطن » . ويتضح من ذلك أن أصدقائه نصحوه حقاً بكتابة تلك القصة ، وأنه نشر الكتاب طمعا فى المكسب أكثر من أى شىء آخر . وعلى كل حال فهذا لا ينتقص من قيمة الكتاب .

والكتاب غنى بمعلوماته ! تكلم على الحركة بإسهاب لم تصادفه فى مؤلف آخر ، وهذه هى الموضوعات التى تكلم عنها حسب ترتيبها الذى وردت به :

أولا : نبذة عن مصر ، بولاق ، نهر النيل وحكومة مصر .

ثانيا : المظهر الملكى لحكومة مصر .

ثالثا : المظهر الجمهورى للحكومة ميزاته وقوته .

رابعا : تاريخ على بك .

الفصل الأول : ويشمل نبذة عن مولده ، وأسره وحضوره إلى مصر وتربيته بها .

الفصل الثانى : ويشمل أخبار عن على بك حتى قيامه بالثورة .

الفصل الثالث : ويشمل الكلام عن بدء ثورة على بك وحوادثها .

خامسا : وصف مختصر للحالة الحاضرة فى صور ، صيدا ، وإرشادات للمسافر فى تلك الجهات .

سادسا : وصف للأماكن الهامة فى فلسطين .

سابعا : وصف موجز لحالة الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية .

ملحق جريدة أحد المسافرين (خط سيره) من حلب إلى مدينة البصرة .

والكتاب من القطع الصغير مكون من مائتين وسبعين صفحة تبدأ بمقدمة وتنتهى بملحق .

القيمة التاريخية للكتاب :

وقد اعترف المؤلف صراحة فى مواضع كثيرة من الكتاب (ص ٣ ، ٤ مقدمة ، ١٤٥ ، ١٦٢ . . . الخ) بدقة روايته فقد ذكر أنه كان شاهد عيان لها فى المدة من ١٧٤٦ إلى ١٧٤٩ ثم من ١٧٧١ — ١٧٧٢ . أما بقية حوادث الحركة فى غير تلك المدتين فقد أخذها باعترافه عن المعلم فرحات ، على بك الطنطاوى والمعلم رزق وذى الفقار وعلى بك نفسه ، كما أنه اعتذر عن ذكر حوادث لا يثق بصحتها ، وفى الوقت نفسه نصح بعدم الاعتماد على التواريخ التى أوردها لأنه فقد مسوداته فى أثناء «الفرار» أما الحوادث التى انفرد لوزنيان بذكرها واعتمدنا عليها كثيرا فتشمل حياة على بك الأولى . والفترة الأخيرة من حياته التى تبدأ من فرار على بك الأخير من مصر وأعماله بالشام ثم عودته الأخيرة إلى مصر وتفاصيل معركة الصالحية .

ويصح أعتبار هذا الكتاب مصدرا أساسيا لتلك الفترة ، أما فى الفترة السابقة فينقصه كثير من التفصيلات .

* * *

رابعا — المؤلفات الشرقية المعاصرة

١ — « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتى .

ولد عبد الرحمن الجبرتى سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٥ م) بالقاهرة . وهو كما ذكر فى ترجمته لنفسه ، من أسرة يرجع أصلها إلى بلاد جبرت « وهى بلاد الزيلع بأراضى الحبشة تحت حكم الخطى ملك وهم عدة بلاد معروفة تسكنها هذه الطائفة وهم المسلمون بذلك الإقليم ويغلب عليهم التقشف والصلاح » — ج ١ ص ٢٠٣ ، ٣٨٥ .

نزل جده السابع «الشيخ عبد الرحمن» بمصر فى أوائل القرن العاشر الهجرى بعد أن جاور بمكة والمدينة ، ثم جاور بالأزهر، وتولى مشيخة رواق الجبرتية وتوالى أجداده على مشيخة هذا الرواق نحو ثلاثة قرون . وكانوا كلهم من المسلمين الصالحين .

وقد توفى صاحب « عجائب الآثار » فى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٣٧ (١٧ يونيه سنة ١٨٢٢) بعد أن ترك مسودات كتاب أسماه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » نشر بالعربية عدة مرات وترجمت بعض أجزائه إلى اللغتين الفرنسية والتركية . والطبعة التى اعتمدنا عليها طبعت ببولاق ونشرت سنة ١٣٠١هـ فى أربعة أجزاء . ويعرف الكتاب أيضا «بتاريخ الجبرتى » . هذا وقد نشرت عدة تراجم للشيخ الجبرتى ولكن ثمة أمور ينبغى أن نشير إليها .

١ — مهد الجبرتى لكتابه بمقدمة عن تاريخ مصر منذ ضعف الخلافة العباسية ثم بدأ بذكر حوادث مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى (١٦٨٩م) .

١ — أشار الجبرتى إلى أنه وعى الحوادث فى سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو فى سن الأربعين ، ولما كان قد أدرك أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، وأوائل الثالث عشر (النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى وأوائل التاسع عشر) فان روايته لحوادث تلك المدة رواية شاهد عيان — وقد أشار إلى ذلك بقوله «أنى كنت سودت أوراقا فى حوادث آخر القرن الثانى عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر الذى نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع إجمالية وأخرى محققة تفصيلية . وغالبها مما أدركناها وأمور شاهدناها » . (ج ١ ص ٢) .

٣ — حوادث الفترة من أوائل القرن الثانى عشر إلى سنة ١١٧٠هـ (١٦٨٩ — ١٧٥٦م) سابقة لعهده نقلها من الشيوخ المسنين ، وسجلات دفاتر الأفندية والكتبة والمباشرين وشواهد قبور المتوفين . وفى ذلك قال « واستطردت فى

ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخه — جمع شيخ — تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، ومن العلماء والأمراء المعتبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم » .

٤ — أما حوادث الفترة من ١١٧١هـ (١٧٥٧م) إلى سنة ١١٩٠هـ (١٨٧٦م) فقد عاصرها وشاهدها ، ورواها رواية من وقف على تفاصيلها . ولكنه دون حوادثها بعد وقوعها بمدة تتراوح بين الطول والقصر ، لأنه كما سبق أن أشرنا لم يدون أوراقه إلا بعد بلوغه سن الأربعين . وفى ذلك يقول «فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين . وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتقش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أوائل القرن (الثانى عشر) إلى السبعين (١١٧٠) — وما بعدها إلى التسعين (١١٧١ — ١١٩٠هـ وهذه الفترة تشمل عصر على بك) أمور شاهدناها . ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها إلى وقتنا الحاضر أمور تعلقناها وقيدناها وسطرناها . » (ج ١ ص ٦) وحوادث كتابه تنتهى بوقائع سنة ١٢٣٦ (١٨٢١) وكان سنه عشرين عاما عند وفاة على بك الكبير .

٥ — وقد جمع ما دونه من حوادث مرتبة على حسب السنين والأشهر والأيام قال « فأحببت جمع شملها وتقييد شواهدها فى أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والأعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، فانها حوادث غريبة فى بابها متنوعة فى عجائبها وسميته « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » (ج١ ص٢) .

٦ — كان الشيخ حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن من علماء الأزهر ، نبغ فى العلوم الدينية وذاع صيت كفايته فى العلوم الرياضية والهندسية وعلوم الرصد والتوقيت والفلك « حضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة ، كما اشتهر بالوقار . وكانت له منزلة كبيرة فى قلوب الأكابر والأمراء والوزراء والأعيان يسعون إليه ويذهب إليهم » ج ١ ص ٣٩٥ ، ٢٥٤ « بل إن السلطان مصطفى الثالث كان يراسله لعلمه وفضله » ج ١ ص ٣٨٣ ، فكان الشيخ حسن خير مورد يستقى منه عبد الرحمن أصدق الروايات . وقد توفى

الشيخ حسن فى العام التالى لوفاة على بك سنة ١١٨٨ هـ .

٧ — كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى من علماء الأزهر النابهين مثقفا كوالده وصف الحوادث باسهاب وتحرى الدقة فى كل ما قال وتوخى الحق ما أمكن أن يتوخى المعاصر الحق فيما يقول « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق ، لميل نفسانى أو غرض جسمانى .

٨ — حوادث عصر على بك فى مصر فقط أورد معظمها فى الجزء الأول ، وما قل منها فى الأجزاء الباقية مبعثرا فى تراجم العلماء والأعيان ، وكلها على شىء كبير من الدقة ، استفاض فى أكثر تفاصيلها فجاءت خير هاد فى دياجير هذا هذا الموضوع الغامض ، وقد سبق أن أشرنا إلى إتفاق رواياته مع ماجاء بخطابات الإسكندرية ، وتقارير القناصل الفرنسيين . وعلى أن للجبرتى الفخر فى أنه أقرب الثلاثة إلى الكمال . كما أن كتابته تمتاز عن كتابات الرحالة من حيث أنه مصرى يحس شعور المصريين ، وقضى حياته بين ظهرانيهم ، فخالطهم ومازجهم ووقف على دخائل نفوسهم حكاما ورعية . فكتابته عنهم انما هى كتابة العارف بأحوالهم ، الواثق مما يقول . على خلاف الرحالة الأجانب الذين مهما طالت إقامتهم بمصر فهم أجانب عنها وعن شعبها وحكامها ، لم يتيسر لهم المشاهدة والرواية وجمع الأخبار واستخراج الزائع منها بمثل ما تيسر ذلك للجبرتى . وأصح نسخة هى المطبوعة ببولاق فى أربعة اجزاء سنة ١٣٠١ هـ وقد اعتمدنا عليها .

* * *

٢ — « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى . حاكم عكا وبلاد صفد » :

تأليف المرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى . عنى بنشره والتعليق على حواشيه الخورى قسطنطين الباشا المخلص .

ندرت المراجع التى تكلمت عن أعمال على بك فى فلسطين وفسرت العلاقة التى كانت بينه وبين الشيخ ظاهر العمر . ورغم وفرة المراجع التى تكلمت عن تاريخ سورية وفلسطين فى عهد العثمانيين ، فأن الأعمال المشتركة باسم على بك والشيخ ظاهر لم تنل قسطا وافرا من اهتمامهم ليس لأنها لا تستحق الاهتمام ، وإنما لأنها موضوع قائم بذاته . ولحسن حظنا عثرنا على مؤلف يتناول هذه المسألة فى تفصيل دقيق ، يتفق مع لوزنيان إلى حد كبير . وإن كان يزيد عليه فى الكلام عن حملتى أبى الذهب الأولى والثانية .

وهو مؤلف « للمرحوم ميخائيل نقولا الصباغ العكاوى » كان جده إبراهيم الصباغ كاتب الشيخ ظاهر ووزيره « أخذ عن أبيه وأعمامه وأساتذته المقربين إلى ظاهر » فجاء هذا المؤلف « أوسع تواريخه — أى تواريخ ظاهر — تفصيلا وأجملها تعليلا وأفضلها ترتيبا وأقربها للصدق والصواب » والنسخة الخطية الوحيدة موجودة فى المكتبة الشرقية التابعة لكلية الآباء اليسوعيين ببيروت . وقد نشرها الخورى قسطنطين فى كتاب بالعنوان المذكور .

وناشر المخطوط مشهور بالدقة وسعة الاطلاع . وله سابق الفضل فى نشر عدة مخطوطات سهلت كثيراً من الأبحاث التاريخية . ومخطوط نقولا الصباغ لا تقتصر أهميته على كونه معاصراً فقط بل تزيد لأنه استقى معلوماته من مصادر أصلية . ولا يغرب عن البال أن جده إبراهيم الصباغ وزير ظاهر ومشيره كان المتصرف فى كل شىء ، وكان ظاهر لا يصدر أمراً فى شىء إلا بعد مشورته .

والكتاب سلس الأسلوب تكلم يتوسع عن ظاهر وعلاقته بالدولة العثمانية والوقائع التى كانت بين الطرفين . ثم أسهب فى الكلام عن علاقة على بك بحليفة ظاهر واتصالها بروسيا . إلا أنه فى مناقشة خاتمة على بك كان ميالا لظاهر فخورا بجده ابراهيم ، وكأنه أراد أن يتنصل باسم ظاهر والصباغ من تبعة فشل على بك وفيما عدا ذلك فوقائعه صحيحة غدقة .

* * *

٢ — « سلك الدور فى أعيان القرن الثانى عشر » للسيد محمد خليل المرادى

هو السيد محمد خليل بن على بن محمد المرادى البخارى الدمشقى النقشبندى مفتى السادة الحنفية بدمشق ، ويعتبر من أجل علماء القرن الثانى عشر الهجرى . جمع تراجم مشاهير رجال عصره من علماء ، وحكام ، وقواد وتحرى فى أخبارهم الدقة البعيدة عن الهوى . واهتم على وجه الخصوص بأعلام الشام ومن اتصل بها وبحوادثها من رجالات الأقطار المجاورة . وأدرج تراجمهم مرتبة على حسب الحروف الأبجدية ، وأخرجها مطبوعة فى ثلاثة أجزاء باسم « أخبار الأعصار فى أخبار الأمصار » واشتهر أيضا باسم «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وقد فرغ منه فى اليوم السادس من شهر شعبان سنة إحدى وتسعين ومائة وألف من الهجرة .

وقد ذكر المؤلف فى الصحيفة الثالثة من الجزء الأول الدافع له على التصنيف والجمع فقال « لم أزل منذ أميطت عنى التمائم مكباً على الكتب التاريخية ، منهمكا فى جميع الدواوين الإخبارية . تدعونى إلى ذلك غيرة الفضل كل آونة وتحثنى عليه حمية الأدب فتطرد عن عيونى السنة » .

واعتمد فى كتابته على الرواية ، ومحصها بدراسة المعاجم والإثبات . وقام بالرحلة إلى مختلف البلدان للتثبت . وكلامه عن ابى الذهب وظاهر العمر وعلى بك كلام ثقة لامطعن فيه ولا يعيبه سوى الإيجاز .

ونشير إلى أنه كان معاصراً لعلى بك بل أنه ذكر فى الصفحة الرابعة والخمسين من الجزء الأول أن على كان يراسل والده السيد على بهاء الدين المرادى فى شأن إقناع علماء دمشق بعدم مناصرة عثمان باشا والى الشام العثمانى وذلك قبل حملة أبى الذهب الأول على الشام .

* * *

٤ — المؤلفات التركية .

والمؤلفات التركية تهمنا بصفة خاصـــة لأنها توضح لنا وجهة نظر الدولة

العثمانية فى الحركات التى انبعثت فى كثير من أنحاء أملاكها ، ومن بينها حركة على بك فى مصر . والملاحظ فى كتابة هؤلاء المؤرخين وقوفهم عند حد الحقائق الموجودة . فهم لا يجولون بأفكارهم إلى ما وراء تلك الحقائق يلتمسون خفايا السياسة . وعلى وجه الخصوص ما اتصل بالسياسة الأوربية الكثيرة التعقيد .

ونحن لو اعتبرنا ذلك عيبا يشوب المؤلفات التركية القديمة ، فأنه يصح أن يكون لها فضيلة أيضا . إذ أن ذلك يمهد للمؤرخ الحر مصدرا للحوادث كما وقعت ثم هو عليه بعد ذلك أن يجول بفكره كما يشاء ويستعين بغيرها من المؤلفات .

والتواريخ العثمانية كانت تطبع عادة دون فواصل . وحوادثها غير متسلسلة أو موحدة العلاقة . فلا اعتبار للتسلسل التاريخى عندهم ، فقد يذكر المؤرخ منهم حادثة عارضة حدثت فى مكان آخر من الدولة تخرج بنا عن الموضوع ، وتبعدنا عن التاريخ ثم يعود إلى موضوعه الأصلى وهكذا . أما الأسلوب ففخم العبارة ضخم الألفاظ . والمؤرخون الأتراك مغرمون باستعمال المحسنات البديعة إلى أقصى حد ، وقلما تخلو لهم عبارة من استعارة أو مجاز . فمن توفى من زعماء الثورات فانما « سار فى قافلة العدم » . ومن توفى من العظماء « نقل إلى مكان الصامتين » والسيف عندهم فى مضائه « متعطش للدماء » ودولتهم إنما هى « شجرة غرسها عثمان » والحوادث التى كادت تودى بها « خريف » لا يلبث أن يعقبه « ربيع الإعتدال » . . . الخ .

محررو الوقائع الرسميون

وقد تكلمنا فى موضع سابق عن مخطوطين تركيين . وثم أربع مؤلفات تركية لا تقل أهمية عن سابقيها بل قد تفوقها فى الأهمية لأن مؤلفيها من محررى الوقائع « واقعة نويس » . ومعنى ذلك أن السلطان العثمانى كان يكلف أحد المؤرخين ، ممن يثق فى كفايته ، تدوين حوادث الدولة فى عصر من العصور . وله الحرية فى سبيل ذلك أن يصحب الجيش لتدوين الحوادث أو الرحلة من

مكان إلى آخر بقصد إجراء تحقيقات تاريخية ... الخ فمحررو الوقائع شهود عيان . ولكن مؤلفاتهم كانت تطبع بأمر السلطان وعلى نفقته وتحت إشرافه ، فهم كانوا خاضعين لمؤثرات شتى حادت بهم عن الحكم العادل فى كثير من الأحيان . ومعظم تراجم المؤرخين العثمانيين ومحررو الوقائع نشرها الأستاذ جمال الدين المؤرخ العثمانى فى كتاب بعنوان « آينا ظرفا » أى « مرآة الظرف » فى استانبول ١٣١٤ . وللكتاب اسم آخر هو « عثمانلى تاريخ ومورخلرى » أى « التاريخ العثمانى ومؤرخوه » .

وسنذكر فيما يلى أهم المحررين الذين عاصروا على بك الكبير .

(ا) « اسماعيل عاصم افندى » الشهير بكوجك جلبى زادة ، مؤلف « تاريخ اسماعيل عاصم افندى » وقائع من سنة ١١٣٥ — ١١٤١ .

كان والده كوجك جلبى رئيسا للكتاب (وزيراً للخارجية) ، ربى ولده تربية حسنة حتى تولى القضاء فى الأناضول ، والمدينة المنورة ، والروملى . وفى سنة ١١٧٢ هـ عين مفتيا « مفتى الأنام » وتوفى فى ٢٧ جمادى الآخر ١١٧٣ . وكان فوق مهارته فى العلوم قادرا على الكتابة وقول الشعر بالعربية والفارسية والتركية ، والتاريخ الذى تركه يبحث أخبار الدولة العثمانية من سنة ١١٣٥ هـ — ١١٤١ هـ ، وقد اهتم بصفة خاصة بحوادث مصر فى الفترة التى سبقت على بك مباشرة ولم يستطع أن يخفى أمر الفوضى التى كانت سائدة حينئذ .

* * *

(ب) أحمد واصف أفندى :

ولد ببغداد وتثقف ثقافة عالية . ثم اشتغل بالكتابة فى دواوين الحكومة والأسطول حيث أظهر تفوقا على أقرانه ، ومنذ سنة ١١٧٦ صار يلحق بوفود المفاوضة مع روسيا . ثم وشى به لدى السلطان فقرر نفيه . ثم عاد وعفا عنه ، ولكنه لم يعين فى منصب حكومى « فقضى زمنا طويلا فى فقر وعوز ، مقلباً

صحائف الصباح والمساء بتحرير الوقائع . ثم عاد الحظ يلازمه فتقلب فى عدة مناصب حكومية حتى عين صدرا أعظم فى أواسط سنة ١٢٢٠هـ لمدة عام ونصف وتوفى سنة ١٢٢١ .

وقد ظهرت مهارته فى العلوم العقلية والثقافية وملكته فى الشعر والانشاء من كتابه المسمى «محاسن الآثار وحقائق الأخبار» . وقد اكتسب خبرة طويلة بتقلبه فى مناصب الدولة ، واشتراكه فى المفاوضات ، ووجوده فى الجيش عدة مرات . وبفضل صداقته للصدر الأعظم محسن زاده كلفه السلطان مصطفى الثالث بتحرير الوقائع ، بعد غضبه عليه : وقد أشار واصف أفندى إلى أثر ذلك بقوله « أن تعطف مولاى صاحب السلطنة أجرى الفصاحة بقلمى وجعل صفحات مؤلفى فى رقة النسيم ونضارة الورد الغض » . وقد كلفه السلطان أن ينقح كتابات أنورى وغيره من محررى الوقائع السابقين . وقد أشار إلى ذلك بقوله : « كلفنى صاحب العظمة السلطان أن انقح مذكرات أنورى أفندى كما نقحت مذكرات محررى الوقائع السابقين ، وأن أصحح الأخطاء وادعم الحقائق . وقد كنت كفئا لانجاز تلك المهمة إذ أنى صحبت الجيش منذ أوائل سنة ١١٨٤هـ (١٧٧٠م) ... وتوليت أمر المكاتبات ، ومقابلة السفراء المفوضيين لعقد الصلح ، وعملت فى المؤتمر الثانى كسكرتير للمفاوضات . وزيادة على ذلك فأنى تقريبا الوحيد الذى حررت جميع التقارير المسهبة التى بعث بها الصدر الأعظم إلى السلطان ولذا فقد وقفت على معلومات أكيدة ، واتصلت بالحوادث أكثر من أنورى أفندى . وهكذا قمت بإعباء تدوين ذلك التاريخ ، فحللت الشخصيات البارزة وحكيت الحوادث كما حدثت ، وذكرت التفاصيل كلها . . . . »

وتاريخه قسمان : القسم الأول اعتمد فيه على تواريخ من سبقه من محررى الوقائع : حكيم ، جشمى زاده ، موسى زاده ، بهجت حسن أفندى . وينتهى بسنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨م) قبل نشوب الحرب الروسية التركية . والقسم الثانى : قصة الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ . ومعظم ما ورد فيه جاء نتيجة

لملاحظته الشخصية إذ كان شاهد عيان لحوادث الحرب . ولم يعتمد على تاريخ أنورى أفندى إلا قليلا ، إذ وجده مملوءا بتفاصيل غير مهمة أو غير صحيحة . »

والحق أن مصادر الأخبار الصحيحة كانت طوع بنان واصف أفندى . وكتابه مصدر عام معاصر لحركة على بك أوقفنا على الظروف الخارجية التى انتهزها على بك للقيام بثورته كما تناول حوادث مصر قبل عصره ، وفى أثناء عصره ، والفترة التالية له مباشرة باسهاب لا بأس به . وربط حركته بحرب روسيا وحوادث بلاد الحجاز . وكان أول من أورد النص الأصلى العربى للمنشور الذى أرسله على بك عن طريق أنى الذهب إلى أهل دمشق ، وكان له الأثر الفعال فى تسليم المدينة .

وكتابه جزآن يشمل الجزء الأول حوادث الدولة العثمانية من سنة ١١٦٦ إلى ١١٨٣ ، والجزء الثانى من سنة ١١٨٣ إلى ١١٨٨ وطبعا باستانبول سنة ١٢١٩ هـ (١٨٠٤ م) .

وقد قام الاستاذ دى پرسيفال M. A. Caussin de Perceval مدرس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس عام ١٨٢٢ بنشر موجز بالفرنسية لمذكرات واصف افندى عن الحرب الروسية التركية ، ونشره بباريس سنة ١٨٢٢ بعنوان :

Précis Historique de la Guerre Des Turcs Contre les Russes, Depuis l'Année 1769 Jusqu'au l'année 1774, Tiré des Annales De l'Historien Turc Vassif Effendi.

* * *

(ج) سعيد (محمد فرائضى زاده) :

كاشف معارف . تاريخ من ابتداء الخلق إلى سنة ١١٨٨ . جزآن استانبول .

كان السيد محمد سعيد بن فرائضى ، خطيب مسجد سلطان بروسه . وكاتب محكمتها . قضى عشرة سنوات فى كتابة تاريخ بداه بأخبار العالم منذ الخليقة

باختصار ثم اسهب فى تاريخ الدولة العثمانية حتى عصر السلطان عبد الحميد واسماه « كلشن معارف » أى « روضة المعارف » . وقدمه فى سنة ١٢٥١ إلى السلطان عبد الحميد فقدر هذا العمل وقرر له خمسمائة قرش شهريا طول حياته . وأمر بطبع الكتاب على نفقته . وقد توفى محمد سعيد فى نفس السنة ونشر كتابه فى العام التالى .

والكتاب على غرار الكتب السابقة من حيث الاسلوب والعبارات ومبلغ تحرى الدقة التاريخية مشربة بالروح العثمانية ، وقد تكلم عن حوادث على بك وحملة أبى الذهب بالشام وناقش مسألة انسحابه منها .

* * *

(د) أحمد جودت باشا :

ولد جودت باشا بمدينة لوفجه عاصمة أحدى ولايات الدانوب . وتثقف ثقافة عالية ، وتولى القضاء والتدريس ، وتقلد مناصب حكومية محترمة حتى عهد إليه سنة ١٢٧١ بتحرير الوقائع . ثم عهد إليه بعدة مناصب سياسية وإدارية حتى ١٢٨٧ عند ما استقال واعتكف على المطالعة والتأليف . ثم عين ناظرا للأوقاف سنة ١٢٨٩ . فالمعارف وغيرها من نظارات الدولة . وكان فيها كلها موضع التقدير والثناء .

كلفه السلطان عبد الحميد سنة ١٢٧١ ضبط الوقائع متصلا ذلك من تاريخ سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤١ . وقد بدأ العمل فى سنة ١٢٧٠ هـ . وطبع كتابه فى الاستانة باسم « وقائع دولتعليه من سنة ١١٨١ إلى سنة ١١٩٦ » ثم ترجمه إلى العربية عبد القادر أفندى الدنا رئيس محكمة بيروت ونشره ببيروت فى جزئين سنة ١٣٠٨ .

والكتاب جم المعلومات ، ناقش عوامل اضمحلال الدولة العثمانية . والحوادث التى وقعت بسبب هذا الاضمحلال وكنتيجة له . ورغم أنه ذكر

سنة ١١٨٨ كبدء لتاريخه إلا أنه أورد فصولا عن أهم الحوادث السابقة مباشرة ونالت حركه على بك نصيبا لا بأس به من اهتمامه . تكلم عنها فى صراحة يشوبها ميل « محررى الوقائع » إلى الدولة العثمانية . وكتابه مشهور أيضا باسم « تاريخ جودت » وهو لا يقل أهمية عن تاريخ واصف . كما أنه فى الحوادث السابقة لعصره اعتمد على كتابات أشهر المؤرخين العثمانيين ممن ذكرنا وغيرهم . ثم على أدق المؤلفات الشامية ، وتاريخ الجبرتى المصرى فجاء وافيا بالغرض إلى حد كبير .

« انتهى »

موضوعات الكتاب

مقدمة فى نشأة البيوت المملوكية (٥ — ١٧)

نشأة البيوت المملوكية (١١) البيوت المملوكية فى العصر العثمانى (١٤)

الباب الأول — ظهور على بك الكبير (١٨ — ٣٤)

نشأته (١٨) ، تلبسه بالصنجقية (١٩) ، توليته شياخة البلد (٢٠) ، تقلده إمارة الحج (٢٤) ، نفيه وعودته إلى مصر (٢٦)

الباب الثانى — تمهيدات الحركة (٣٥ — ٦٤)

الفصل الأول : تعبيد الطريق

سياسته نحو العثمانيين (٣٤) ، شل نفوذ الحامية والديوان (٣٨) ، القضاء على نفوذ العربان . معركتا دجوة وأسيوط (٤٣)

الفصل الثانى : انفراد على بك بحكم مصر

فرصة الحرب الروسية العثمانية (٥٣) ، بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثمانى (٥٥) أغراض على بك من الحركة (٥٧)

الباب الثالث حركة التعديل والاصلاح (٦٥ — ١٣١)

الفصل الأول : سياسة على بك الداخلية

الإدارة الحكومية والأمن (٦٥) ، التزام الأراضى (٧٥) ، النقود (٨٣) ، السياسة المالية وإدارة الجمارك (٨٧) ، المنشئات (٩٦) ، الجيش (١٠٣) .

الفصل الثانى : مسألة التجارة والطريق البرى

تجارة مصر الخارجية (١١١) . مسالك التجارة (١١٣) . نشاط الفرنسيين (١١٥) ، محاولات الانجليز (١٢٢) ، إحياء الطريق البرى فى عهد على بك (١٢٦)

الباب الرابع — الحملات الخارجية (١٣٢ — ١٧١)

الفصل الأول : حملة الحجاز

بلاد العرب تحت حكم العثمانيين (١٣٢) ، مقدمات الحملة المصرية (١٣٦) ، تجهيز الحملة (١٤١) ، سير الحملة وعوامل نجاحها (١٤٢)

الفصل الثانى : حملات الشام

حكم الشام فى عهد العثمانيين (١٤٥) ، مقدمات الحملة المصرية (١٥٤) ، الحملات التمهيدية (١٥٧) ، تجهيز الحملة المصرية (١٦١) ، أغراض على بك من حملة الشام (١٧٠)

الباب الخامس — نهاية على بك الكبير (١٧٢ - ٢٠٩)

الفصل الأول : انشقاق أبى الذهب

عودة أبى الذهب من الشام (١٧٢) ، نفيه إلى الصعيد (١٧٧) ، نجدة مصرية لظاهر العمر (١٨٠)

الفصل الثانى — الكفاح الأخير

معركة بياضة وانتصار أبى الذهب (١٨٢) . فرار على بك إلى الشام (١٨٤) كفاحه فى الشام (١٨٦) . عودته إلى مصر (١٩١) ، معركة الصالحية وأسر على بك (١٩٥)

الفصل الثالث : وفاة على بك وتقديره

وفاته (١٩٨) ، تحليل شخصيته (٢٠٠) ، تقدير حركته (٢٠١)

الخاتمة (٢١٠ — ٢٢٦)

عوامل فشل الحركة وأثرها فى تاريخ مصر

مصادر الكتاب (٢٣٧ — ٢٤٦)

Baich
S
B
*PB-33270
5-08
DC
*5677

Date Due

Demco 38-297

PERMA-BOUND

NYU - BOBST
31142 02821 2309
DT98.5 .R3
Ali Bak al-kabir